السيد مجتبى الموسوي اللاري

أصول العقائد في الإسلام

الجزء الأول

تعريب
محمد هادي اليوسفي الغروي

أصول العقائد

في الإسلام

بسم الله الرحمن الرحيم

أصول العقائد

في الإسلام

تأليف

السيد مجتبى الموسوي اللاري

الجزء الأول

تعريب

محمد هادي اليوسفي الغروي

موسوی لاری، مجتبی، ۱۹۳۶ -
اصول العقائد فی الاسلام (التوحید) /تألیف مجتبی الموسوی اللاری. تعریب محمد هادی
الیوسفی الغروی. ـ قم: مرکز نشر الثقافة الاسلامیة فی العالم، ۲۰۰۸.
۴ج
ISBN: 978-964-5817-27-3(ج۱)
مندرجات: ج.۱. التوحید. – ج.۲. النبوه. – ج.۳. المعاد. – ج.۴. الامامه.
۱. اسلام – عقاید. ۲. خداشناسی. ۳. نبوت. ۴. معاد. ۵. امامت.
الف. یوسفی غروی، محمد هادی، ۱۳۲۷ - . مترجم. ب. عنوان.
BP۲۱۱/۵/م۸الف۶ ۲۹۷/۴۱۷۲

اصول العقائد فی الاسلام – ج۱

(التوحید)

المؤلف : السید مجتبی الموسوی اللاری
تعریب : الشیخ محمد هادی الیوسفی الغروی
الناشر : مرکز نشر الثقافة الاسلامیة فی العالم – قم
الطبعة الثامنة : ۲۰۰۸ – ۱۴۲۹
المطبعة : الهادی – قم
الکمیة : ۲۰۰۰ نسخة
ISBN : 978-964-5817-27-3
ISBN Set. 1- 4 : 978-964-5817-54-9

مرکز نشر الثقافة الاسلامیة فی العالم
Sayyed Mojtaba Musavi Lari
Foundation of Islamic C.P.W
21 Entezam St., Qom, I.R.Iran
Tel: [0251] 6605408 – 6609550
Fax: [0251] 6602335
Website: www.musavilari.org
E-mail: info@musavilari.org

كلمة الناشر

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ ومن أحسن قولاً ممّن دعا إلى الله وعمل صالحاً وقال إنني من المسلمين ﴾ .

خلق الله الإنسان ليكون خليفته على الأرض ؛ وجعل من سعادته مشيئةً إلهيّة ، وفيض رحمةٍ ربّانيّة ؛ ووضع هذا الكون على اتّساعه ، والعوالم على رحبها في خدمته ، ورهن منافعه . وشرّع له قانوناً ينظّم حياته ، ويهديه سواء السبيل في دنياه ، لينعم بالفوز والعافية في أخراه .

والله سبحانه لم يخلق هذا الإنسان وهذا الكون عبثاً ؛ إنّما خلقهما لحكمةٍ ساميةٍ اقتضتها مشيئته ؛ فجعل هذا العالم مجاز اختبار لخليفته ، بعد أن خلقه في أحسن تقويم ، وزوّده بسلاح العقل ، وحثّه على التعلّم والتفكّر والتدبّر في هذا الوجود ، المترامية أطرافه ، البعيدة أكنافه .

ثم أرسل إليه الرسل والأنبياء يهدونه إلى الحق ، ويرشدونه إلى الصواب . وأنزل إليه الكتب والشرائع والدساتير السماوية ، يستنير بهديها في مسيرته الدنيويّة ؛ ووهبه حريّة

الاختيار ؛ فهو حرٌ في اختيار طريقه ، ومسؤول عما يقوده إليه اختياره في واحد من طريقين لا ثالث لهما : فإما الهدى ، وإما الهاوية .

كما اقتضت حكمته تعالى أن يرشد الإنسان إلى الجذور والأصول التي يستقي منها معارفه ، وينهل منها حقائق هذا الوجود ، ليصل عن سبيلها إلى المعتقدات الصحيحة ، السليمة من الشوائب ، والبعيدة عن الانحراف ؛ بعد أن منحه نعمة الفطرة الصافية مشعلاً يهديه إلى النور .

فمن خلال وحدة الكون ـ بكل ما فيه . . من أصغر الذرّات إلى أكبر الأجرام ـ عرف التوحيد ، وسلّم وأيقن بوحدانية الخالق ، وهيمنته المطلقة على هذا الوجود .

ومن خلال مظاهر التوازن في الكون ، الذي ينتظم كل موجود ، والعدالة التي تطبع كل شيء فيه ، عرف قانون العدل الإلهي وعرف الآخرة والمعاد ، والحساب والجزاء .

ومن خلال الرسل والأنبياء الهداة ، عرف رحمة خالقه ، وعرف محبته لخيره وسعادته ، فعرف طريقه إليه .

و(أصول العقائد) بين يديك ، أيها القارىء الكريم ، يتناول في أبحاثه المستفيضة هذه الأمور كلها ، وكثيراً غيرها ، بأسلوب سهل ممتع ، وعرض علميّ قويم ، يبتعد بالأفكار عن مهاوي الانحراف وأوهام الخيال ، ويقودها إلى الحقائق صرفةً صافية ، يعالج ارتباط العقائد بالحياة ، ويخاطب العقل السليم ، يلتقط جواهر الأمور ، ويُعرض عن التوافه والقشور ، يعتمد البحث العقلي والتحليل الفلسفي ، والتفكير الحرّ البعيد عن التشنّج والجمود ، يأخذ بيد القارىء فيصحبه معه ، في

الـطريق الصاعـد إلى الكمال ، إلى قمم المعـرفـة النيّرة في الطريق إلى الله .

والدار الإسلامية ـ الحريصة على نشر المعارف الإسلاميـة الرفيعة ، والعقائد الحنيفية السليمة ، وإذ عوّدت قراءهـا على إتحـافهم بكل نفيس ، بعـد أن عوّدوهـا على مزيـد اهتمامهم وجميل عنايتهم ـ تتقدم إليهم بهذا السفر القيّم ، مع وافر ثقتها بأنّهم سيردون فيه نبعاً ثرّاً فيّاضـاً ، وسيصـدرون عنـه رواءً من عطش ، وشباعاً من سغب .

وعلى الله قصد السبيل .

الدار الإسلامية

مقدمة المؤلف

إن ما يبعد الإنسان بصورة تصاعدية عن محور الواقعيات ويرديه في مستنقعات الباطل لهو : « الفراغ الفكري » .

نحن نشاهد اليوم أن قسماً عظيماً من القوى العقلية الخلاقة والمبدعة تذهب هباء وهدراً وهي تغض طرفها عن أغنى وأثرى الأمواج الثقافية والأيديولوجية الدينية ، وأن عدداً كبيراً من الأفكار تذبح على مجازر الأيديولوجيات في العالم الحديث .

تعرض اليوم على الجيل الحاضر والعَطِش للمعرفة من مختلف الطرق والسبل والوسائل أفكار ناشئة ناقصة وعاجلة من نتائج أفكار الفلاسفة والعلماء الماديين ذوي الأفكار المحدودة والضيقة ، أفكار تأمل أن تجيب على حوائج الإنسان ، إلاّ أنه لا معنى ولا مفهوم للحياة فيها ولا هدف ولا غاية .

إن هذه الأفكار الناقصة لا تكون الغذاء الفكري السالم والمناسب لهذه

الأفكار الحساسة ، بل حتى أنها غير قابلة للعرض عليها قبل أن يموت العقل لديها .

لا شك أن أنواعاً من الظلم والعدوان والعذاب والاضطراب في طول التأريخ تنشأ من المناقضات السائدة في العالم وبخاصة في حياة البشر .

نحن نعتقد بأن الأيديولوجية التوحيدية في الإسلام التي تحتوي على سلسلة من التحليلات الفلسفية والعلمية الواسعة والعميقة عن العالم والواقعيات الخارجية ، والتي تلاحظ الإنسان بجميع أبعاده التي هي له ، هذه الأيديولوجية لها القدرة على حل عقد التناقضات الفكرية ، وعلى هداية البشر نحو البناء والحركات البناءة والمستمرة ، وفي نفس الوقت من الطبيعي لكل عقيدة مهما كانت أصولها ومبادئها عالمية وذات أسس خالدة ، أن تكون بحاجة إلى تعريف جديد لكل جيل جديد ، متناسب مع مقتضيات العصر الحديث .

لهذا السبب يجب على العلماء وحراس الفكر والمعنويات والعارفين بروح العصر والذين يشعرون بالحاجة إلى الحركة السريعة التحقيقية حول البحوث الأساسية في مواجهة مستحدثات ومستجدات عالم العلوم والفلسفات . . على هؤلاء أن يلاحظوا المسائل المختلفة ملاحظة دقيقة مقارنة مع المنابع الإسلامية الأصيلة بصورة جدية وواسعة ، ثم يضعوا الحقائق الناتجة من هذه الملاحظات كيفما تقتضي الرؤية الإسلامية الشاملة أمام أعين العالم فيعرفوه بأصول الإسلام الفكرية .

وهذا الكتاب بين يديك مختصر حاولت أن يكون : « دورة عقائدية » نلاحظ فيه تحريراً لأصول العقائد الإسلامية بصورة حية نابضة يراعى فيه جانب الاستدلال ولا يغفل فيه عن سهولة العبارة وسلاسة الأسلوب ، وكان أكثر همنا أن يعرض الكتاب بحجم صغير ميسر للإفادة ، ولذلك أمسكت فيه عن نقل الأفكار والآراء ونظريات الفلاسفة والعلماء بصورة تفصيلية .

والآن ، حيث يطبع الجزء الأول من البحوث المذكورة محتوياً على « التوحيد والعدل » نأمل أن يقع منكم أيها القراء الأعزاء موقع القبول كخطوة مهما كانت قصيرة في سبيل عرض مواقف الإسلام على صعيد المسائل الأساسية بل : « البنية التحتية » لهذا المبدأ الإلهي العظيم ، ومن حسن الحظّ أن الكتاب يطبع في ثلاث لغات:هذه وهي العربية وأخرى فارسية ، وثالثة بالإنجليزية ، نأمل أن نوّفق لنشرها جميعاً إن شاء الله تعالى وهو الموّفق والمعين .

مجتبى الموسوي

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الحلقة الاولى التوحيد

مَعرِفَةُ الخالِق

دوافع التدين بالأديان

لمباحث الاديان أهمية خاصة بين سلسلة البحوث الأصولية والفكرية في حياة الانسان ، ولا زالت هذه المباحث مطروحة على الساحة ، كمسألة أساسية ترتبط بسعادة الإنسانية ومصيرها ، وقد كانت لهذه البحوث آثار علمية وثقافية واسعة ورؤية عميقة .

لقد كان للعلماء والمحققين مطالعات وسيعة في البحث عن أصول ودوافع التدين ، قام بهذا التحقيق كل واحد من زاوية فنه الخاص ، وكان يخرج بنتائج وأحكام تتناسب ونظرته الخاصة .

والواقع أن عقائد البشر قد تكاملت على مر الزمان تماماً كالعلوم والصناعات[1] ، وأنها كانت منذ أقدم العصور قبل التاريخ كظاهرة دائمة مما يتعلق بالمجتمعات البشرية ، ولا تجد في عالمك القديم ولا الحديث مجتمعاً لا عقيدة فيه .

إن الفكر الديني قد تحول وتغير وانتقل من دور إلى دور آخر ضمن توسع الأصول الفكرية والعلمية تماما كاللغات ووسائل الحياة ، ولم تبق أطره

---

(١) ـ : لايقصد المؤلف أن العقائد تكاملت من ناحية البشر ، وإنما يقصد أنها تكاملت بفضل وحي السماء .

على الكيفية الفكرية الأولى وصورتها ثابتة جامدة .

إن البحث والتنقيب عن كيفية تطورات حياة الإنسان وتكامل علومه ومعارفه ، والمطالعة في أعمق آفاق التاريخ ، ترينا أن البشر كان متقيداً بالعقيدة، قبل أن يتعرف على الاستدلالات العقلية، وأنه في بداية تفكره كان متجها إلى خالقه والعلة الفاعلية للعالم ، إلا أنه للعثور على تلك العلة أخذ ينظر إلى ما هو فيه من حواليه ، وبالتالي سقط إلى هوة عبادة الأصنام .

وعلى هذا فإن الدور للعلوم والصناعات البشرية لم يكن أكمل من الأدوار الأولى للأديان والعقائد الإنسانية ، بل يمكن القول بأن بحث الإنسان في سبيل الإيمان والعقيدة ، كان أشد وأطول من مساعيه في سبيل العلوم والصناعات، فإن معرفة الحقيقة الأسمى،حقيقة عالم الوجود أشق وطريقه أصعب من حقائق جميع الأشياء التي تسعى العلوم والصناعات سعياً متواصلاً للوصول إليها .

إن معرفة أكبر الحقائق بصورة كاملة ، لأمة في عصر واحد من غير الممكن ، بل إن أفكار العامة تستعد على مر الأدوار في ظل توسعة وتقدم المعلومات لمعرفة الحقيقة الكبرى .

إن الشمس المشرقة التي هي من أظهر الأشياء كانت ماهيتها مجهولة لمدة قرون ، وكانوا يفسرون حركاتها وآثارها بتفاسير مختلفة عن الحقيقة ، مع أنه لم يكن بإمكان أحد أن ينكر أصل وجودها وشعاعها المشرق ، مع ذلك كانت أفكار العامة بالنسبة إلى معرفة حقيقتها في ظلمة عميقة .

إن درك الحقائق الكبرى ، لا يمكن إلا من طريق التحقيق المنطقي والاستدلال و المطالعة الشاملة ، ولهذا فإن الخرافات والأساطير الدينية في الأمم السالفة ، والتي كانت تصب كل يوم في قالب وأسلوب خاص ، بسبب ضعف الأفكار ومحدودية إطار العلوم والمعارف البشرية ، إن هذه الخرافات ليست دليلاً على أن الدين وتعاليمه ومحتوياته عارية عن الحقيقة ، بل إنها

ترينا أصالة وذاتية العروق الدينية في أعماق قلوب البشرية ، وكما يقول (رونان) : « إن الدين أسمى تجلٍ لطبيعة الإنسان »[1] ، ولا يمكن أن نتوقع من العلم حينما يرجع القهقرى إلى أدوار ما قبل التأريخ أن يكشف من آثار الأديان الأولى (إن صح التعبير بالأديان) غير الأساطير والخرافات في بقايا آثار القدماء وفي أعماق طبقات الأرض ، فإن إنسان ذلك العصر وإن كان يرى أن كثيراً من الأنظمة الجميلة والمحيرة في عالم الطبيعة تستمر وتطّرد في دورات دقيقة ، ومحسوبة ، ومن جانب آخر فلم يكن قد اتفق له يوماً من الأيام أن توجد إحدى وسائل حياته حسب الصدفة ، إلا أن أجهزة فكره لم تكن قد تعالت إلى درجة أن تدرك بذلك وحدة نظام العالم والارتباط الكامل بين آثار الطبيعة وظواهرها المختلفة ، ويدرك أن جميع أنظمة الحياة إنما هي تحت قدرة وإرادة مبدأ واحد عليم حكيم لا يشبه البشر ، ولا سائر الموجودات المعهودة ، وبما أن تواجد أنواع الموجودات لم يكن مما يتحمله تحليله الفكري على أساس ملاحظة منطقية ، لذلك كان يظن أن لكل معلول علة مستقلة ، فكان يستنتج من تعدد أنواع الموجودات تعدد خالقها أيضاً ! .

وبالتالي كان ذلك الاندفاع الفطري والروحي الإنساني السامي والأصيل فيه يقع في مجرى منحرف ، فكان بدل أن يتجه إلى الرب الصادق يتجه إلى معبودات كاذبة كان يعبدها ويكرمها ويخضع لها ويصفها بأوصاف من باب القياس بالنفس أو ما حوله من الموجودات .

حينما تكون حركات الإنسان وسلوكه متصفة بخاصتين : إحداهما الثبات والأصالة ، وأخراهما العمومية والشمول في جميع أفراد النوع الإنساني ، يكون من الطبيعي والمنطقي أن نعتبر لها أصولاً وعروقاً في أعماق الروح الإنساني .

لا يمكن أن نحسب وجود هذه الظاهرة ـ ظاهرة العبادة والعقيدة في

(١) مختصر تاريخ الأديان الكبرى : (بالفارسية) .

الإنسان ـ بصورة مستمرة دائمة خالدة وعامة شاملة في جميع مراحل التاريخ وحتى أدوار ما قبل التاريخ ، من العادات والتقاليد ، والمراسيم فحسب ، بل إنها ظاهرة من ظواهر عطش خاص فطري ، وإحساس ضروري بالتفتيش عن الحقيقة الكبرى ، إذن فجميع العقائد الدينية بمختلف أشكالها وتجلياتها إنما تنبع من عين فياضة متدفقة هي الفطرة التي ليست من الصدف ، ولا من التلقين والإلزام .

إن الاستعداد لتقبل العقيدة موجود في الإنسان، وإنما تتشكل العقيدة فيه مبنية على أساس هذا الاستعداد الذاتي ، وإن نفس هذه الجاذبية والاندفاع الذاتي الذي يدفع الإنسان إلى التحقيق الفكري ، لدرك حقيقة الوجود دليل على ضرورة معرفة الدين ، ولكن لا يلزم أن تكون صحة هذا الاستعداد الذاتي والحالة الروحية في الإنسان ملازمة لصحة العقيدة المتشكلة عنده ، كما أن الإنسان يحتاج إلى الطعام من دون أن تكون هذه الحاجة مبتنية أو ملازمة لصحة أو عذوبة كل مادة من الطعام، إن الروح الإنسانية كذلك تفتش عن غذائها الروحي الخاص أي الايمان والعقيدة، وتصر على معرفة الرب وعبادته ، وإن كان هذا الدافع الذاتي الأصيل عاجزاً عن تمييز العقائد الصحيحة عن غيرها .

يتفق المحققون على امتزاج العقائد الدينية بحياة البشر ، وإن كانوا يختلفون في أصول المذاهب والعوامل الأساسية في تأسيسها ونموها ، وأكثر أحكامهم في هذا المجال ـ مع الأسف ـ مبني على أساس مطالعات في الأديان الخرافية ، والأفكار غير الرشيدة ، ومن الطبيعي أن تكون هذه الأحكام في التحليل النهائي عن الأديان ناقصة وغير منطقية .

صحيح أن كثيراً من الأديان كان لعوامل المحيط والبيئة الاجتماعية وغيرها أثر ومدخلية في تكوينها وتطورها ، لعدم ارتباطها بمبدأ الوحي ، إلا أنه ليس من المنطقي أن نحسب مباني وأصول جميع الأديان والاتجاهات المذهبية منطلقة من مقتضيات اقتصادية أو مادية أخرى أو من الخوف من

العوامل الطبيعية أو الجهل بها ، بصورة عامة .

لا شك أن أحد العوامل لتواجد الأفكار المضادة للدين ومنكري الخالق هي تلك الانحرافات والنقائص وسوء التعليم في أتباع بعض الأديان والمذاهب ، ولهذا يجب في مطالعة دوافع الاعتقادات أن تجعل الخصائص المذهبية لكل مذهب خاص مورداً للتحقيق والملاحظة .

يمكننا أن نرى الدين في كثير من الحوادث التاريخية حاكماً على العلاقات القائمة ، فإن لم يكن للدين أصالة لزم أن ينحصر دائماً في حدوده المادية فقط ، فما هو العامل الذي استطاع أن يجعل الشخصيات الدينية هكذا تقاوم في سبيل أهدافها الدينية ؟ هل أن توقع المنافع المادية والأهداف الخاصة هي التي جعلت مرارة المصائب والمشكلات عندهم حلاوة ؟ ! . بينما كانوا يضحّون بجميع إمكاناتهم المادية والترفيهية وآمالهم الشخصية فداء لأهدافهم وعواطفهم الدينية بكل سخاء ، بل كانوا يجودون بأنفسهم بكل حب وإخلاص ! .

وعلى هذا فإن من غير الممكن تفسير اندفاع الإنسان إلى الدين تفسيراً مادياً ، بل إن هذه الحوادث تبين لنا أصالة الإحساس الديني في ضمير الإنسان .

يقول (لو كنت دونوئي) : « إن الروح الدينية والعقائدية والعبادية والتواضعية في عبادة كاملة ، وإرادة تزكية النفس لتقرّبها إلى الكمال المطلق غير المتصوّر ، كانت موجودة في الإنسان في طول التأريخ ، إن هذه الإرادة لها مبدأ إلهي ، فإنها عالمية وموجودة في الجميع على السواء »[1] .

وكتب (ويل دورانت) يقول : « إن الإيمان أمر طبيعي وهو وليد الحاجات الغريزية والإحساسات المستقيمة بصورة مباشرة ، أقوى من الجوع وحفظ النفس والأمان والطاعة والانقياد » .[2]

---

(١) ارتباط الإنسان بالكون : ص ٦٩ . (بالفارسية) .

(٢) لذات الفلسفة : ص ٤٧٦ . (بالفارسية) .

إن العقائد غير المنطقية ليست منحصرة في إطار الأديان ، فإن كثيراً من العلوم قبل أن تتصفى كانت مزيجة بالخرافات ، فإن الإنسان لم يظفر بعلم الطب الحقيقي والمفيد ـ مثلاً ـ إلاّ عن طريق السّحر والشعوذة ، ولم يصل إلى الكيمياء الواقعية إلاّ من طريق الكيمياء غير الواقعية ، ولا يمكن لأحد أن يدّعي أن البشر إذا أخطأ في بحثه عن شيء كان لزاماً عليه أن يبقى دائماً على خطئه ولا طريق له للوصول إلى الحقيقة .

إن منكري الخالق يستندون إلى هذه المسألة ويستنتجون منها أن الله وليد فكر الإنسان ! ، (برتراند راسل) العالم الإنكليزي ـ مثلاً ـ يرى أن منشأ ظاهرة الدين هو الخوف من العوامل الطبيعية ويقول :

« أنا أرى أن المذهب قبل كل شيء مبتن على أساس الخوف ، الخوف من المجهول . أضف إلى ذلك ما ذكرته سابقاً أنه بسبب العقيدة الدينية ينشأ إحساس يتصوّر معه صاحبه ، أن له ظهراً ومدداً في المشاجرات والمشكلات ، الخوف من الموت ومن الهزائم ومن الأسرار المجهولة والمسائل الغامضة غير المكشوف عنها » .(١)

إن هذا الكلام ادعاء لم يقم لإثباته أي دليل كما يقول (صموئيل كينك) : « إن منشأ الدين سر من الأسرار ، وللعلماء بهذا الخصوص نظريات لا تحصى كثرة ، بعضها أقرب إلى المنطق من البعض الأخر ، إلا أن أحسن هذه النظريات من الناحية العلمية لا يخلو من إشكالات ولا يعدو أن يكون تصوّراً منطقياً ، ولهذا فإن علماء الاجتماع لهم اختلاف شديد في منشأ الأديان »(٢) .

ومع ذلك نقول للإجابة على كلام (راسل) :

لو فرضنا أن الدافع الأولي والأصلي للبشر في العقيدة بالخالق هو

---

(١) لماذا لست مسيحياً : برتراند راسل ص ٣٧ (بالفارسية) .

(٢) موسوعة معارف كينغ : ص ٩٩ (بالفارسية) .

الخـوف ، فهل يصبـح هـذا دليـلاً على أن الله وهم أو خيـال ، ولا واقعيـة له ؟ ! .

إذا كان الخوف دافعـاً للإنسـان لكي يلجأ إلى مـأمن منه ، ومن هـذا الطريق يقع على واقعية معينة فهـل في هذا إشكـال ؟ ! ، إذا كان الخـوف دافعا للظفر بشيء فهل يمكن أن يقال : بدليل أن الـدافع للبحث عن هـذا الشيء كان هو الخوف فإن هذا الشيء لا واقع له وإنما هو موهوم ؟ ! .

هل من المنطق أن نقـول : إن علم الطب ليس علمـاً واقعياً ، إذ إن الإنسان إنما تتبعه وظفر به بسبب خوفه من المرض والموت ؟ ! بل الحقيقة أن علم الطب علم واقعي سواء كان الدافع الأولي للبشر للحصول عليه هـو الخوف من المرض والموت أو أي عامل آخر .

إن الإيمان بالرب العليم القدير ملجأ ومستند حقيقي قوي ، ولكن هذه المسألة لا علاقة لها بأن يكون الدافع الأصلي في الإنسان للإيمان بـالله هو الخـوف من الحوادث والبحث عن ملجـأ معين ، ويجب أن تلاحظ هـاتـان المسألتان بعيدة إحداهما عن الأخرى .

لا شك في أن البشر في مراحله البدائية من حياتـه كان يبتلى بـوحشة مـوجعة حين مـواجهة الحـوادث الـطبيعيـة المـوحشـة كـالـزلازل والسيـول والأمراض ، وأن كابوس الخوف كان ينشر جناحه على جميع شؤون حياتـه وأفكاره ، وفي هذه المرحلة من مجاهـدته الشـاقة مـع الخوف والعجـز كان يبحث عن مستند يستطيع أن يلجأ إليه حين الأحداث المهولة ، فيكون سبباً لطمأنينة روحه ، واستطاع بسعيه المتواصل ، أن يتغلب تدريجياً على كابوس الذلة والخوف وأن يحصل على انتصار ساحق في هذا المجال .

إن البحث في مراحل حياة الإنسان القديم ، وتواجد شواهد لاستيلاء الخـوف على أفكـاره ليس دليـلاً على أن الخـوف والجهـل كـانـا العـاملين الـوحيدين الأصيلين لاعتقـاد الناس بـالدين ، إن هكـذا نظرة إنمـا تنشأ من

النظرة الضيقة إلى العوامل والدوافع ، فإننا إنما نستطيع أن نأخذ نتائج عامة من تحقيقاتنا ومطالعاتنا التاريخية فيما إذا بحثنا وحققنا في مجموع مراحل تاريخ البشر وأدواره المختلفة ، دون ما إذا طالعنا زاوية من التأريخ الإنساني الواسع ، ذي العروج والهبوط .

لا ينبغي لنا أن نجعل سلطة الخوف الوسيعة على جميع شؤون الإنسان في الأدوار المحدودة المعينة أساساً لأحكام كلية لجميع أدوار البشر ، أليس حكماً عاجلاً أن نحسب الأفكار والإحساس الديني للناس واتجاههم لعبادة الله في جميع الأزمنة حتى العصر الحاضر ناشئاً من الخوف من قهر الطبيعة والحروب والامراض ؟ ! .

ليس كل معتقد بالدين أضعف الناس ، إن الذين رفعوا راية الدين في مسير التأريخ كانوا من أثبت وأقوى الناس ، وليست النسبة بين إيمان الشخص وشدة ضعفه نسبة متعاكسة أي كلما ازداد ضعفه ازداد إيمانه ! وأن يكون زعيم الناس في الدين أقدمهم وأسبقهم إلى الهوان والضعف والعجز ! .

هل أن عقيدة آلاف العلماء والمفكرين بالدين نتيجة خوفهم من الزلازل والسيول والأمراض ؟ أم أن دافع اتجاه هؤلاء المحققين إلى الدين - الذي إنما اتبعوه من طريق التحقيق العلمي والمنطق والبرهان العقلي - يمكن أن يفسر بالجهل وعدم اطلاعهم على علل الحوادث الطبيعية ، ثم نغفل أو نتغافل عن دور عقولهم وأفكارهم في موضوع عقائدهم ؟ ماذا يحكم العقلاء ؟ ؟ .

إن الانسان لا يعتقد بالدين ليظفر بالأمن والطمأنينة بل إنما يتمتع بثمرة الإيمان بالله وهي السكون والأمان بعد الاعتقاد والإيمان. إن العلماء الإلهيين يعتقدون أن العالم بوصفه مجموعة من العلل والمعلولات والأسباب والمسببات المحسوبة دقيقاً ، والكائنات ذات النظام الدقيق خير شاهد على وجود مبدأ لهذه القدرات والعلوم ، إن النقوش المختلفة والمتداخلة غير

المفهومة في لوحة ما لا يمكن أن تكون دليلاً على النقاش والرسام الفنان والماهر ، بل إنما يمكننا أن نجعل النقوش والرسوم المحسوبة بدقة والتي تحتوي على معاني وملامح مفهومة سنداً ودليلاً على وجود فنان رسام ماهر .

* * *

ومن ناحية أخرى : نرى الذين يرون أن الاعتقاد بما وراء عالم الطبيعة مسبب عن أوضاع اقتصادية ، ويسعون كثيراً للربط بين الدين والاقتصاد ، نراهم يقولون : إن الدين كان ولا يزال في خدمة الاستعمار والاستثمار ، وإن الطبقة الحاكمة المستثمرة هي التي اخترعت الدين كي تهزم مقاومة الشعوب المستثمرة تحت ستار الدين ، ولكي تفيد من هذه الوسيلة لاستخدام وتخدير الكادحين والمحرومين ، وتشوقهم بالعقيدة إلى تقبّل الحرمان ، ولا شك أن الدين ـ كأي شيء آخر في هذا العالم ـ قد أفيد منه للإضرار بالآخرين ، وحينما ينحرف الدين عن مسيره الصحيح يصبح وسيلة بيد المرابحين المتاجرين كي يقيدوا به الأمم والشعوب ، إلا أن هذه المنفعية والمصلحية الطبقية الظالمة ، لا ينبغي أن تصبح حجة بيد الانتهازيين كي يهجموا على كل ما هو باسم الدين والمذهب ، وبكلمة نقول : يجب أن نفصل بين الأديان المحرّفة والاستعمارية التخديرية ـ إن كانت ـ والأديان الأصيلة والبناءة .

يمكن أن يكون الإيمان الديني في كثير من المجتمعات الإنسانية مقارناً لأوضاع اقتصادية ، غير مزدهرة وتأخر وجمود ، إلاّ أن هذا التقارن لا يمكن أن يكون ملاكاً ومقياساً لنسبة بينهما ، ولا يمكننا أن نرى هذا التقارن بعنوان رابطة الترتب واستنتاج أحدهما من الآخر ، فإننا أحياناً نرى مجتمعاً يعيش رفاه الحياة والقوة المادية والاقتصادية يعتقد بالدين اعتقاداً عميقاً ، ومجتمعاً آخر بنفس الأوضاع من حيث الرفاهية ، والحالة الاقتصادية نراه يعرض عن الدين ، وكذلك نرى أن شمس الدين تغيب أحياناً في محيط الفقر والتأخر ،

وفي مكان آخر بنفس الموقعية الاقتصادية نرى الدين في أوج الرقي والتعالي ، إن عدم الانسجام البيّن هذا بين الأوضاع الاقتصادية وتوسع اعتناق الدين أو انكماشه دليل بيّن على أن التقارن الزمني لا يكفي في كشف علاقة العلة والمعلول ، بل لا بد من خصوصية أخرى هي أن يكون وجود وعدم أحدهما مرتبطاً بوجود وعدم الآخر .

نستطيع أن نرى عدم الانسجام هذا في مجتمعين يعيشان تحت سلطة الاستبداد والضغط وخنق الأصوات من قبل الطبقة المستثمرة (بالكسر) ، فنرى أن الدين قد خرج من صميم الحياة في محيط بينما هو في صميم حياة المجتمع في محيط آخر مع أوضاع متساوية .

إن اعتناق الدين ليس مسبباً من الحرمان المادي ، بل إن البعد والإعراض عن الدين مسبب عن الاتجاه إلى المادية والكماليات ، فالذين ينغمسون في بؤرة الشهوات وعبادة الدنيا يعرضون عن الدين .

إن الواقع يدلنا على أن الإنسان يتجه إلى الدين في مختلف الأوضاع والأحوال ، ولهذا ينبغي أن نتتبع في حالات الاتجاه الديني تلك الدوافع الأصيلة الروحية والذاتية ، لا الأوضاع والأحوال الاقتصادية . إننا في ملاحظتنا لأهداف الأديان الإلهية نصل إلى نتيجة :

إن تأمين الرفاه الاجتماعي وأثر الدين الإيجابي في العدالة الاقتصادية هو أحد أسباب بعثة الأنبياء الربانيين واعتقاد الناس بالدين ، وإن العدالة الاقتصادية هي إحدى الفوائد التي يحظى بها الإنسان من طريق الدين .

* * *

الاتّجاه الإلهي في أعماق الوجود الإنسـاني

للإنسان خارج حدود جسمه أبعاد وسيعة من المساعي الحياتية التي لا تتحدد بحدود البدن أبداً ، ولمعرفة زوايا أبعاد الإنسان خارج حدود جسمه والجوانب الفيزيكية يجب سلوك طريق التحقيق في أعماقه الروحية حتى نصل ما وراء نشاطاته الفيزيكية إلى الآفاق الوسيعة للظواهر الطبيعية والعواطف والغرائز الإنسانية ، ومع مقارنة النشاطات والفعاليات الروحية والنفسية ومطابقتها لعالم الخارج يتضح لنا كثير من الأسرار والمسائل المعقدة

إن للإنسان سلسلة من الإدراكات الخاصة لها عروق ذاتية تنشأ من طبيعة الإنسان ، ولا يؤثر في تواجدها في الإنسان أي عامل خارجي .

قبل أن يرد الإنسان الطبيعي في المباحث العلمية بإمكانه أن يدرك حقائق بمعلوماته تلك الفطرية ، وبعد دخوله في المباحث العلمية و الفلسفية واكتناز مخه من البراهين والاستدلالات المختلفة ، يمكن أن يصل به الأمر إلى نسيان أو تناسي تلك المعلومات الفطرية أو الشك والترديد فيها ، ولهذا نرى أن الإنسان حينما يعزل فطرته عن معرفة العقيدة تبدأ الاختلافات .

إن الاعتقاد بالدين والإيمان بالله ينبع في مراحله الأولى من الدوافع الغريزية والإدراكات الفطرية ، ثم يتكامل بمساعدة العقل والفكر ، إن جذور

الإحساس الفطري في النفس الإنسانية عميقة وفي نفس الوقت جلية واضحة إلى درجة أن لو غسل الإنسان فكره وروحه عن كل تصور ديني ، وفكر مضاد للدين وتوجه إلى نفسه والعالم ، أدرك جيداً أن قافلة الكائنات تتحرك دائماً إلى هدف معين ولأجل مسمى ، وقد بدأت الحياة من دون إرادتها وتجري إلى نقطة معينة ـ وإن كانت مجهولة لها ـ بدون إرادتها أيضاً ، ويلاحظ هذا الواقع في جميع الموجودات في الطبيعة بأسلوب ونظم دقيقين .

إن الإنسان الطبيعي حينما يرى الأوضاع والأحوال حوله يدرك جيداً وجود قدرة عظمى محيطة به وعلى جميع العالم ، إنه يرى العلم والقدرة والإرادة في وجود ذاته التي هي جزء صغير جداً من هذا العالم الكبير ، ثم يفكر : كيف يمكن أن يفترض عدم وجود الإرادة والقدرة والعلم في مجموع العالم ما عدا الإنسان ؟ و بكلمة : إن الذي يلزم الإنسان بالإيمان بوجود حكيم مدبر لهذا العالم يجري نظامه الموجود بأمره وتقديره هو نفس هذا النظام والحركة الدائبة المحسوبة والمقدّرة بدقة خاصة، إذ لا يمكن تفسير هذا النظام الموجود إلا بقبول وجود هذا الحكيم المدبر ، إن الإنسان حينما يقدر موقعه في العالم يدرك أن هناك قوة خاصة تخلقه وتحركه وتذهب به إذا شاءت ، من دون أن تستمد منه أو تستجيز .

إن هذا الحكم فطري ، إذ لم ير البشر في أي مكان وأي زمان مصنوعاً بدون صانع ولا عملاً بدون عامل ، إن البحث عن علاقة العليّة ، ينبع من إحساس ذاتي ، وحيث لا يمكن فصل إدراك العليّة من أحد فإن الإحساس الديني والبحث عن الخالق ، أيضاً لا يمكن فصله عن الإنسان ، حتى الطفل الذي لم ير العالم حينما يسمع صوتاً أو يشاهد حركة يتوجّه إلى منبع الصوت ومنشأ الحركة بصورة طبيعية .

إن قبول نظام العليّة هو أساس حياتنا العلمية وأصولنا العلمية، بل هي من النواميس العامة التي لا تتحمل الاستثناء حتى في مورد واحد ، فالعلوم

بما فيها علم الجيولوجيا (طبقات الأرض) والفيزياء العامة و الكيمياء الطبيعية وعلم الاجتماع والاقتصاد و التحقيق في ظواهر الوجود . . . كلها محاولات لتعيين العلل والعوامل وتشخيص كيفية العلاقات فيما بين الأشياء، وهكذا يتبين أن العلوم والمعارف ليست إلا سعياً لكشف العوامل و العلل ، وأن كل تقدم في ميادين العلوم والصناعات ليس إلا نتائج لتتبع العلماء حول علل الاشياء .

لو كان بإمكاننا أن نشاهد في زاوية من هذا العالم، في موجودٍ من موجودات هذا الوجود العام علامة على الوجود الذاتي كان لنا الحق في أن نعمم هذا بالنسبة إلى سائر الموجودات ، وليس من الضروري أن يبدو قانون العلية لنا بصورة الظواهر العادية ، إذ أن تنوع العلل من الكثرة بمكان يمكن أن يعجز الملاحظ عن تعيين جميعها حتى في حادث معين ، ولكن لا يمكن أن نجد في أي شأن من الشؤون البشرية الجزئية والكلية في الماضي والمستقبل في أمر فردي أو اجتماعي نقطة واحدة من الصدفة قط .

حينما تثبت العلوم التجريبية أن لا سبيل إلى الاستقلال في الوجود لعناصر الطبيعة ، وحينما تبلغ تجرياتنا وإحساساتنا واستنباطاتنا إلى نتيجة واحدة هي :

إنه لا يمكن أن يقع أي أمر في الطبيعة بدون علة خاصة ، وإن جميع الحوادث تتبع نظاماً وقوانين معينة ، غريب أن نرى أناساً يطرحون الأحكام العلمية والفطرية والعقلية وراء ظهورهم وينكرون وجود الخالق إطلاقاً ! .

ويمكننا أن نعبر عن الفطرة بالغريزة الإنسانية المتكاملة والمتطورة التي تستطيع أن تعبر جدران المحسوسات إلى الأسرار المجهولة ، إن كل حكم لأي مسألة تنشأ من ضمير البشر لا من أثر الأنظمة العقائدية والتربوية فهي من الفطرة ، ولا فرق بينها وسائر الغرائز الإنسانية كحب الذات وحب الوجود من حيث الأصالة و الشمول .

ولكن التربية وعوامل البيئة والمحيط فهي من الأمور التي تحجب عن

تجلّي الفطرة أو تقوّيها ، يقول (والتر اوسكار لندبرك) العالم الفيزيولوجي المعروف :

« لعدم توجه بعض العلماء في المطالعات العلمية إلى درك وجود الخالق علل متعددة : منها : الأوضاع والأحوال السياسية المستبدة أو الوضعية الاجتماعية أو الهيئة الحكومية والإدارية، تكون غالباً مما تسبب أو تؤثر في إنكار وجود الخالق »[1] ، إن ما ينشأ من مبدأ غريزي ، يكون من حيث الجمال كالنظام الطبيعي بالذات ، والذين بقوا أحراراً في المسير الأصيل لخلقتهم ولم يتقيدوا بقيود العادات و التقاليد ولم تصطبغ فطرتهم بصبغة اللغات و المصطلحات ، هؤلاء يسمعون نداء ضميرهم أحسن وأحسن من غيرهم، ويدركون الحسن والسيّىء في أعمالهم، والحق والباطل من معتقداتهم ، ولهذا لا تجد الإلحاد عن التدين كتحريفه عن الفطرة عند هؤلاء إلا قليلاً ، وإذا قيل لهم : إن هذا العالم مخلوق صدفة وبلا نظام ، فلا يؤثر فيهم هذا الكلام حتى ولو كان مسبوكاً في قوالب المصطلحات الفلسفية، إذ إنهم يردونه بفطرتهم .

وقد تجد أناساً مقيدين بين المنسوجات العلمية المصطلحة يترددون من أثر هكذا كلمات تصاحبها مصطلحات مصبوغة بزينة وجمال ، إن العلوم المصطلحة المحدودة الباعثة على الغرور كالقوارير الملونة تجعل أمام منافذ عقول وفطرة هؤلاء ، فيصبح أصحاب هذه العلوم يرون العالم بلون علومهم ومعارفهم وفنونهم ، ويتصورون أن ما يرونه من نافذة حواسهم وعقولهم المحدودة هو كل الواقعيات ، ولا نقصد بهذا الكلام أن يقف الإنسان عن التكامل العقلي كيما لا يبتلى بالتحريفات ، بل المقصود أن لا يبقى الإنسان مغروراً بفنونه و محكوماً عليه من ناحية ثقافته المحدودة .

إن أكثر الناس بدل أن يجعلوا علومهم ومعارفهم سلالم تحت أقدام

---

(١) إثبات وجود الخالق ص ٦٠ . (بالفارسية) .

عقولهم ليصلوا بأنفسهم إلى مستوى أسمى ، يتوقفون حيث كانوا ، ويتقيدون بحدود مفاهيمهم ومصطلحاتهم محصورين محبوسين فيها .

إن الفطرة تسعف الإنسان عند المخاطر أيضاً ، حينما يواجه الشخص ضغطاً قوياً ومشكلات شديدة ، وتعرض عنه العوامل المادية من كل ناحية ، وتقصر يداه عن جميع إمكانات الحياة ، ويصبح غريقاً كريشة أو عود من التبن في بحر الحوادث ويقرب من الموت حتى القدم الأخير ، حينذاك يهديه ذلك العامل الضمير إلى ملجأ غير مادي ويتمسك بمن تفوق قدرته جميع القوى ، ويدرك أن ذلك الوجود القدير الرحيم الرحمان هو القادر على انتشال يده بقدرته الفائقة ، فهو بهذا الإدراك يستعين بساحته المقدسة للنجاة من الخطر بجميع وجوده ، ويحس في زاوية روحه قوته وقدرته على إنقاذه ونجاته ، حتى الأقوياء الطغاة العتاة المردة الماديون الذين يطغون ويستغنون عند السلطة و الاقتدار عن القدرة الإلهية الأزلية ، حينما يواجهون ضيق الهزيمة والفناء ينسون فجأة كل ما تعلموه من إنكار الخالق في المدارس أو البيئات المادية ، ويقبلون بكل قلوبهم وأرواحهم على مبدأ الوجود ومنبع القدرات والطاقات .

وقد احتفظ التأريخ في ذاكرته بنماذج كثيرة من هكذا أناس زال عنهم غبار التلوثات المادية في الأحوال الشاقة التي تفوق الطاقة ، فتوجهوا إلى الخالق الوحيد من عمق قلوبهم .

(ديدرو) أحد كبار الفلاسفة الماديين الفرنسيين ، له في آخر كتاب كتبه في أصالة المادة و المادية كلمات في المناجاة والاعتذار ، كتبها كرد فعل لوجدانه وفطرته يقول :

« يا إلهي ! بدأت بياني من الطبيعة التي يعتقد الربانيون الإلهيون أنها من صنعك ، وأختم بياني هذا بك ، يامن يسميك أهل الأرض : الله ، إلهي أفترض أنك موجود وواقف على أعمالي وعالم بضميري ، لو أعلم أني فيما مضى قد عملت على خلاف حكمك وعقلي ، فأنا نادم من ذلك العمل

ومتألم، ولكني غير متألم من المستقبل إذ باعترافي تغفر لي ، لا أطلب شيئاً منك في حياتي هذه إذ ما يجب أن يكون يكون إما بحكمك أو بقانون الطبيعة ، أما لو كان هناك عالم آخر فإني أرجو منك ثواباً، وإن كنت عملت ما عملته لنفسي » .[1]

* * *

إضافة إلى المنابع الباطنية المودعة في روح الإنسان والتي تساعده على فهم الحقائق ، كي ينتخب طريقه بكل حرية طبقاً للأصول الفطرية بعيداً عن المصوغات الفكرية والدعايات المضللة ، يجب أن يكون هناك إرشاد من خارج وجوده ، لهداية فطرته وعقله وتقويتهما ، ولكي يصلح الطبائع الطاغية والمتطرفة والمفرطة ، ويمنع العقل والفطرة عن الانحراف ويحررها من التوقف أمام المعبودات المصطنعة .

بعث الأنبياء ليوجهوا الإدراكات الفطرية اللطيفة ، ويطهروها من قتام العقائد والعادات المكتسبة من المحيط والبيئة ، ويقودوا اتّجاهه الإلهي في مسيره الواقعي ، ويربّوا اتّجاهاته السامية المتعالية .

وليست هذه الهداية بمعنى إطفاء شعلة الإرادة الإنسانية الخلّاقة ، حتى تسلبه حريته وقدرته على التفكير والانتخاب ، بل هي نوع من الإمداد للاتجاهات والدوافع الإنسانية الإيجابية ، كي يقتدروا على الإفادة من فطرتهم وطبيعتهم الفكرية ، ويتفتحوا على الحق والواقع .

إن أولى الناس باتباع دعوة الأنبياء أصحاب الضمائر الطاهرة ، وكان في الصف المخالف لهم أناس يستندون إلى ثروتهم أو قدرتهم البالية ، أو المغترون بعلمهم الضئيل وعقلهم الناقص والمختلط بأوهامهم حيث كان

---

(١) عقائد وآراء بشرية ص ٣٠٨ (بالفارسية) .

الغرور والنخوة الجاهلية تمنع عن تفتح استعداداتهم وتنور طبائعهم .

يقول أحد العلماء : « إن قانون العرض والطلب يحكم حتى في المعنويات ، إذ لو لم تكن فطرة الناس تطلب العقيدة لكان عرض الأنبياء لدعوتهم الدينية يذهب هدراً ، والذي نشاهده أن عرض الأنبياء لم يبق بلا سوق رائج بل وجدت نظراتهم المثمرة والأصيلة أتباعاً وحماة كثيرين ، وهذا دليل على وجود طلب الدين في باطن ضمير الإنسان .

إن دعوة الأنبياء كانت مبنية على التوحيد لا إثبات الصانع ، إنهم نفوا قابلية عبادة الصنم ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، كي لا يروى العطش الروحي والفطري للبشر ، بمصاديق كاذبة للآلهة كالأوثان والنجوم والشمس ، والقمر ، بل يبحثوا عن الأهداف والقيم المستقيمة في الإله الحق ، ويتقيدوا بالكمال اللامتناهي ، ويسرعوا إلى منبع جميع القيم والفضائل بإيمان متكامل من دون توقف ، ويصلوا في النهاية إلى الهدف النهائي .

إذن فالشرك واللادينية بجميع أنواعها المتقدمة (المادية) وغير المتقدمة (الوثنية) كلها من نتائج الانحراف عن الفطرة .

إن تقدم العلوم في خصوص التجربة الدينية التي لها اليوم مظاهر في كل زاوية من العالم ، أسفر عن كشفيات هامة نستطيع أن نحصل منها على نتائج قيمة لمورد بحثنا هذا .

إن تأريخ الأديان يحلل الإحساس الديني والاتجاهات والعوامل المصيرية بأسلوب حديث يغاير التفسيرات السابقة بصورة عامة ، وذلك بالاستناد إلى أسناد ومدارك معتمدة لدى علماء الاجتماع والتاريخ .

إن علم النفس الذي بدأ بالتحقيق في النفس غير الشاعرة من (فرويد) واستمر بمساعدة (ادلر) و(يونك) قد توصل في أعماق روح الإنسان إلى عالم جديد من القوى الخفية وأنواع المعارف والإدراكات غير العقلية ، وفتح

للعوامل غير العقلية وما وراء الإرادة كالإحساس الديني ميادين للتتبع العلمي المنظم .

ويجري الآن بحث فكري يستلزم اعتقاد عدد أكثر من المفكرين من مختلف المدارس بهذا الأصل : وهو أن الأحساس الديني هو أحد العناصر الأولى الطبيعية والثابتة لروح الإنسان ، وأن الإدراك الفطري هو من نوع إدراك ما وراء العقل .

من حدود عام (١٩٢٠ م) استطاع أحد فلاسفة الألمان باسم (رودلف ات) أن يثبت وجود عناصر فطرية وراء العقل في الإحساس الديني إلى جنب العناصر العقلية الأخلاقية ، وأن جميع أوصاف الله كالقدرة والقداسة والأكبرية إنما هي لتفهيم أن مفهوم القدس لا يمكن أن يرجع إلى شيء من المدركات العقلية ، بل مفهوم مستقل لم ينشأ من مفهوم آخر ، ولا يمكن أن يعد مع أي مفهوم من المفاهيم العقلية وغير العقلية واحداً .

إن من إحدى خصائص هذا العصر كشف بعد رابع في عالم الطبيعة باسم (الزمان) مزيج بالأجسام كسائر الأبعاد،وعلى هذا الأساس يقال : لايوجد جسم في العالم فارغاً عن الزمان الناشىء من الحركة والتحول .

كذلك انتهت تحقيقات العلماء في هذا العصر إلى معرفة بعد رابع في الروح الإنسانية باسم (الإحساس الديني)[١] .

وسائر الإحساسات الثلاثة هي :

١ - حب الاستطلاع والمعرفة ، وهذا الإحساس هو الذي حمل فكر البشر من أول يوم على التحقيق حول المسائل المجهولة ، ومعرفة عالم الوجود ومظاهره المتنوعة ، وفي ظل هذا التحقيق ظهرت الصناعات والعلوم ، إن الشدائد والأتعاب التي يتحملها مؤسسو العلوم والمحققون والكاشفون للكشف عن أسرار الطبيعة إنما تنشأ من هذا الإحساس .

(١) الإحساس الديني (بالفارسية) بترجمة مهندس بياني .

٢ ـ الإحساس بالإحسان الذي هو مستند الفضائل والصفات الروحية السامية ، فكل إنسان يحس في عمق وجدانه وضميره جاذبية تجذبه إلى العدل وحب النوع والفداء ، إن هذا الإحساس والجاذبية الأصيلة تحدث نوعاً من الاتّجاه إلى السجايا الطاهرة والتبري والنفور والانزجار عن الأرجاس .

٣ ـ الإحساس بالجمال الذي هو سبب لتجلّي وظهور أنواع الفن والذوقيات ، وله أثر عميق في ظهور قسم عظيم من الحوادث الاجتماعية .

٤ ـ الإحساس الديني أو المفهوم المقدس للبعد الرابع ، وهذا الإحساس هو نوعٌ من الجاذبية إلى ما وراء الطبيعة ، وهو يضمن استقلال سائر المفاهيم الثلاثة وبكشف الإحساس الديني انكسرت محاصرة الأبعاد الروحية في الثلاثة ، وثبت أن لجميع الاتجاهات الدينية جذوراً ذاتية ، ظهرت في أدوار كان أصحابها يعيشون في بطون الغابات وشعب الجبال .

لكسب المعرفة بمبدأ الوجود أساليب متعددة ، إن مفهوم « الله » إجابة صحيحة للحاجات العقلية وغير العقلية (الفطرية) ، فالعقل يتيقن بوجوده من طريق النظام والآيات يقيناً قاطعاً بيناً ، والفطرة ترتبط بالله عن طريق الحب والحاجات الفطرية ، حتى كأنك تقول : إنه يرى الله جهرة ! لا بالبصر بل بالبصيرة ، ولا حاجة في إدراك الله عن طريق القلب والحب إلى أي نوع من الاستدلال والبرهان .

إن العلم اليوم وإن كان يبحث عن التحقيق التجريبي للاستدلال ، إلاّ أن توحيد الله الذي يكون نتيجة مباشرة للبحث والاستدلال ، سواء كان بالدلائل العقلية والفلسفية أو العلوم التجريبية الحسية ، فهو توحيد استدلالي .

هناك علماء مثل (ديكارت) و (سن توما داكن) وصلوا إلى نتائج واضحة من معرفة مبدأ الوجود من نافذة العقل والبرهان والفكر العلمي وهناك

عرفاء مثل (باسكال) الفرنسي أدركوه عن طريق الشهود الباطني والفطرة ، وكان هو يقول : « للقلب دلائل للإيمان بالله لا سبيل للعقل إلى تلك الدلائل »[1] .

وكان (أنشتاين) هكذا يفكر : « إن أجمل وأعمق الأحاسيس التي يمكن أن تعرض للإنسان هو حسه العرفاني ، فهو الذي يبذر بذور جميع العلوم الواقعية في النفوس ، والذي لا يشعر بهذا الإحساس ولا يستطيع أن يكون متحيراً مبهوتاً فهو كالميت »[2] .

و (شوبنهاور) العالم الألماني يرى الاتجاه الديني في الإنسان عميقاً جداً حتى أنه يجعله هو الفصل المنطقي المميز له عن سائر الحيوانات فيقول : « إن الإنسان حيوان يعتقد بالميتافيزيقيا » [3] .

مع ما لحس حب الاستطلاع والإحسان والجمال من الأصالة والاستقلال والأثر في العلوم والأخلاق والفن ، فإن الحس الديني يهيّء الأرضية لتحرك هذه الأحاسيس الثلاثة وفعاليتها ، ويساعدها في مجاريها ، وله الحظ الوافر في فتح أسرار عالم الطبيعة .

إن العالم في نظر المؤمن مصمم على أساس قوانين وأنظمة دقيقة ومحسوبة ، إن حس حب الاستطلاع يتحرك في ظل الإيمان بالله المدبر الحكيم ، كي يبحث ويسعى في سبيل كشف قوانين وأسرار الطبيعة المبتنية على سلسلة من العلل والمعلولات .

(ويل ديورانت) يقول: « كان (هربرت اسبنسر) يرى أن الكهنة هم العلماء الأول كما هم الأدباء الأول ، فهم الذين بدأوا العلم بالمشاهدات في المراصد الفلكية بهدف تعيين أيام الاحتفالات الدينية ، وكانت هذه

---

(١) سير الحكمة في أوربا : ج ٢ ص ١٨ . (بالفارسية) .

(٢) الإحساس الديني : ص ٧٢ (بالفارسية .

(٣) ميتافيزيك فلبسين شاله : ص ١١ (بالفارسية) .

المعلومات تخزن وتحفظ في المعابد ، وتنتقل من جيل إلى جيل آخر بعنوان التراث الديني »[1] .

إن دور الحس الديني في تسامي الإنسانية السامية وتعديل الغرائز وتنمية شجرة الفضائل والأخلاق لا يقبل الجدل ، والذين يخطون في المسير الديني يرون تعديل غرائزهم واتصافهم بالصفات الراقية من أهم الوظائف الدينية .

إن الفكر الديني كان من أهم العوامل في تربية حس حب الجمال على طول التأريخ ، إذ لم يخلق الإنسان القديم أكبر آثاره الفنية إلا لتعظيم آلهته ، إن معابد الصين العجيبة ، وأهرام مصر العظيمة وأصنام المكسيك الجميلة والفن المعماري الجميل ، والمحيّر في الشرق الإسلامي كلها من آثار الإحساس الديني .

يعتقد علماء النفس ، أن هناك علاقة بين البلوغ وثورة الإحساسات الدينية ، وأن في هذا العهد من حياة الإنسان يظهر اتجاه خاص إلى المسائل الدينية ، حتى في الأفراد الذين لم يعيروا أي أهمية لها .

ويرى (استانلي) أن : (حد ظهور هذه الإحساسات هو سن السادسة عشرة للشباب، ويمكن أن نحسب هذا الأمر صورة من صور توسعة شخصية الشباب ، إن هذه الإحساسات تأذن للشباب أن يجد العلة الغائية من وجوده في ذات الله سبحانه »[2] .

ولا شك أن نداء الفطرة إنما يتجلى فيما إذا لم يجعل أمامه مانع بسده ، فإن الدعايات والتبليغات المخالفة تقلل من فعالية الفطرة والفكرة الصحيحة ، وإن كانت نتيجة هذه المكافحات للفطرة لا تصل إلى حدّ أن تستأصل جذور الاتجاهات الطبيعية في الإنسان ، ولهذا إذا كان هناك سدّ

---

(١) تاريخ ويل ديورانت : ج ١ ص ١٢١ (بالفارسية) .

(٢) البلوغ : ص ١١٨ (بالفارسية) .

مانع فإن كُبِرَ بدأت الطبيعة الأصيلة فعاليتها ونشاطها بمحاولاتها الذاتية الخلّاقة المتجلّية .

نحن نعلم أنه قد مر إلى الآن أكثر من نصف قرن على الثورة الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، وعروق الدين بعد حيّة في أعماق طبقات واسعة من الناس في روسيا ، ولم يستطع القادة الزمنيون بكل ما كانت لهم من محاولات جادة في هذه المدة لمحو الدين والمذهب أن يفرغوا ضمائر الملايين من الإحساس الديني .

وعلى هذا نقول : إن تواجد الأفكار المادية في العالم لا تضر بفطرية الاعتقاد بالله والمعاد ، ولا يمكن أن نحسب هذا الابتعاد والانفصال عن طريق الفطرة من مذهب خاص شاذ ، قبال هذه الأمم والمدارس الميتافيزيقية سواء اليوم أو الأدوار السابقة نقضاً لفطرية معرفة الله ، إذ ما من عام إلا وقد خصّ ، وفي كل شيء استثناء .

ويستفاد من التأريخ أن المذهب المادي الفلسفي أسّس في القرن السادس والسابع قبل الميلاد ، وحماة المذهب المادي في ذلك العهد كانوا على الترتيب عبارة عن :

(طاليس) من فلاسفة اليونان ، المولود عام ٦٢٢ والمتوفى في ٥٦٠ أو ٥٦٧ ق . م .

و (هراكليت) : ٥٣٥ ـ ٤٧٥ ق . م .

و (دموكريت) : ٥٤٠ ق . م .

و (أبيكور) : ٣٤٦ ق . م .

وليست نسبة المادية إلى هؤلاء قطعية ، إذ كتب بعض العلماء مثل (بانكون) في كتابه : (تأريخ الفلسفة) بشأن (طاليس) يقول : « كان يرى أن التغيرات المادية إنما تتكون تحت تأثير من العوامل غير المادية » ، وكتب

بشأن « دمو كريت » يقول : « دمو كريت لم يكن مادياً ، بل كان يعتقد بوجود الأرواح » .

وبدأ المذهب المادي في القرن الثامن عشر ، بالتقدم بين العلماء التجريبيين ، وإن اختلف في بعضهم : هل هو مادي أو لا ؟ ، فمثلاً عد بعض المؤرخين (جان جاك روسو) من حماة المذهب المادي بينما يراه آخرون إلهياً ، ويمكن أن يكون نسب إلى المادّية لمخالفاته للكنيسة وأربابها .

نقل الدكتور (فريد وجدي) صاحب كتاب (دائرة المعارف) عن (روسو) أنه كان يقول بشأن مبدأ الوجود : « كلما أمعن النظر وأتأمل الحوادث التي تتجدد على أيدي قوى الطبيعة ، وما يتلوها من ردود فعل طبيعية وتأثير بعضها في الآخر ، يثبت عندي من طريق الانتقال من نتيجة إلى أخرى ، أنه لا بدّ في السبب الأول من الإرادة والإدراك والشعور ، وعلى هذا فإني أعتقد أن إرادته « الله » هي التي حركت الوجود وأحيت الأموات ، ولكن قل لي : أين هو؟ وأقول : إنه موجود في السماوات التي يحرّكها والنجوم التي يضيئها ، وليس هو فيّ أيضاً فحسب بل هو موجود حتى في ذلك الغنم الذي يرعى والطير والحجر الذي يسقط والورقة الخضراء التي يرقصها الهواء وفي كل مكان ، وعلى هذا فكم بعيدة عن العقل تلك النظريات التي تظن : أن هذا النظام نتيجة حركة عمياء وجدت في المادة صدفة ! ليقولوا ما شاؤوا ! ولكني أرى نظاماً مستمراً ، على الموجودات ولا أدرك الحكمة المودعة في هذا النظام : أنا لست ممن يستطيع أن يعتقد أن المادة العمياء ، تنتج موجودات أحياء ، وأن الضرورة العمياء تخلق كائنات شاعرة ، وأن فاقد العقل يخلق موجودات عاقلة حكيمة » ؟! .

* * *

الله ومنطق العلوم التجريبية

لا شك في أن الأوضاع الاجتماعية والعوامل التأريخية والتربوية ونوعية مشاغل الإنسان لا يمكن أن تخلو من آثار في الاتّجاهات الفطرية ، والحالات الروحية والعاطفية ، وإن كانت هذه الأوضاع المختلفة لا توجب جبراً أو ضرورة في اتّجاهات الإنسان إلا أنها توجد جواً مساعداً له دوره الهام في نوعية اتّجاهه ونظرته إلى الكون والحياة ، بل إنها أحياناً تتجلّى بصورة موانع جادة أمام حرية االإنسان وقدرته على الاختيار والانتخاب .

إن القوى الدماغية في الإنسان كلما عملت في فرع خاص أصبحت أقوى وأكثر تمرّساً في ذلك الفرع ، وفقدت سائر المسائل أصالتها في فكره ، وأصبحت بالنسبة إلى موضوعه المتخصص هو فيه ، كموضوعات فرعية غير أصلية ، وأصبح هو يحكم على أي شيء من نظرته الخاصة ، إن من أشدّ عوامل تضليل الفكر حصره في منطق العلوم التجريبية وعدم درك حدود حجيّة هذا المنطق ، فبما أن الاختصاصيين في العلوم التجريبية يعملون بكل طاقاتهم الفكرية في العلوم الحسية تصبح أفكارهم أجنبية غريبة عن المسائل غير المحسوسة ، وتصل هذه الغربة والبعد عن غير المحسوسات والاعتماد المفرط بنتائج العلوم التجريبية إلى درجة ، أن تصبح التجربة هي المبنى والأساس الفكري لنظرتهم إلى الكون والحياة والأيديولوجية ، ويرون أنها هي

الوسيلة الوحيدة للمعرفة والمقياس الصحيح المقبول لها ، ويطلبون حل كل المسائل منها ، إن الغرض من العلوم التجريبية ـ المتكفلة ببيان العلاقات الطبيعية بين الحوادث والوقائع ـ هو أن تربط بين نفس الوقائع والأحداث لا بينها وبين الخالق ، والإنسان حينما يمارس العلوم التجريبية لا يريد أن يلاحظ وجود الخالق فيها ، ولا ينبغي أن نتوقع أن ندرك بمقاييس المحسوسات ، حقائق ما وراءها ، وأن نشاهد الخالق في المختبرات ، إن العلوم لا تستطيع أن تجري تجربة المختبر على وجود الله ثم الحكم له أو عليه من هذا السبيل والقول : إنه ما لم نشاهد شيئاً ولم نتمكن من معرفته في المختبر وبالحسابات الرياضية فلا حقيقة له ! .

لا يمكن أن نجري تجربة نصمم على أثرها على الإذعان بوجود موجود غير مادّي أو بعدم وجوده ، إذ ما يمكن أن نثبته بالتجربة يمكن نفيه بها ، إن العلم والميتافيزيقيا لا تثبت بالتجربة ولا تنفى بها ، وإن آلاف التجارب لا تكفي لإثبات نظرية : أن كل شيء مادّي ، بل إن وسائل هذه المختبرات بأشكالها المعقدة والمتطورة ، لم تتمكن من التطرق إلى العالم المظلم الواسع للعناصر غير المعروفة ، ولم تستطع أن تفهم جميع الواقعيات المكتومة في بطون الذرّات اللانهائية ، بل لم تطلع بعد على حقيقة المادة نفسها .

إن أسلوب التجربة ، وإن كان مفيداً جداً لتطور معرفة الإنسان بنظام الخلقة الدقيق ، بل يمكن أن نجعل أسلوب التجربة أساساً جديداً واضحاً للإيمان بالربّ الخالق عن طريق ملاحظة نظام الخلقة ، إذ إن لاكتشاف المسائل التجريبية نظاماً محكماً ودقيقاً وعلاقات منظمة بدقة ، تحكي عن خالق قادر ، إلّا أن هدف علماء الطبيعة من التحقيق في أسرار العالم والمسائل الطبيعية ، ليس هو التوصل إلى معرفة خالقها ، والعلوم بأيدي هؤلاء المحققين تتكفل دائماً بالعمل على كشف أسرار الوجود فقط ، من دون أن يخرج هؤلاء في ظل العلوم عن حدود معرفتهم المحدودة الضيقة ذات

البعد الواحد ، ودون ان يصلوا عن طريق العلاقات المنظمة لظواهر الطبيعة إلى مرحلة ثانية من المعرفة يشكل مرحلتها الأولى : تجميع كل ما يمكن الوقوف عليه من طريق الإحساس والتجارب ، ثم المرحلة الثانية التالية : تفسيرها والاستنتاج منها فكراً وعقلاً ، يجمعون بالتجارب نتائجها أولاً ، ويدرسون ثانياً بالفكر والعقل معطياتها ، نقول هذا إذ لا يمكن تفسير مجموعة نتائج العلوم المختلفة وارتباطاتها ، وعلاقاتها فيما بينها بصورة مقنعة بدون الاعتراف بوجود الربّ الحكيم .

إلّا أن أسلوب العمل العلمي والفكري أصبح هو دراسة القواعد والتحقيقات بغض النظر عن الله تعالى ، وهكذا يصبح أسلوب الفكر الفارغ عن الله هو أساس الأعمال العلمية ، ويصبح إنسان هذا الأسلوب غريباً أجنبياً عما سوى تلك المسائل العلمية التجريبية ! .

وبما أن حياة الناس العمليّة أصبحت مرتبطة بالعلوم هذه بصورة غير قابلة للتفكيك ، وأصبحت صادرات العلوم التجريبية محيطة بجميع جوانب الحياة المادية ، وحوصر الإنسان في إطارها الرصين بحيث يعسر العثور على الوسائل الطبيعية بين وسائل الحياة المعيشية اليوم ؛ كان من الطبيعي أن تجر هذه الحالة إلى زيادة اعتماد الأفراد بالنسبة إلى هذه العلوم ، وتؤثّر هذه العلوم حتى في أسلوب سيرتهم في الحياة ، وتوجد نوعاً من الترديد والتشكيك في وجود الخالق والغيبيات ، وحينما سكب المنطق العلمي جميع الأفكار والأيديولوجيات في صياغته الخاصة تلوّنت نظرة الناس إلى الكون والحياة أيضاً بلون هذا المنطق ، إلى درجة أن اعتقدوا أنه لا يمكن الإذعان بواقع إلّا على أساس المعرفة العلمية فقط ، وأن لا سبيل إلى معرفة أي شيء لا يتطرّق إليه الإحساس والتجربة ، ولا سبيل إلى إثبات وجوده أيضاً ! .

يقول (بول كلارنس) الفيزيائي المعروف :

« كنت في بداية دراساتي العلمية مغرماً بالأساليب العلمية إلى درجة

أني كنت متيقناً بأن العلم سيكشف يوماً كل شيء ، وكل أسرار ظواهر الطبيعة حتى أصل الحياة ومظاهرها من الفكر الإنساني وغيره ، إلاّ أني كلما طالعت ودرست أكثر فأكثر ولاحظت بنظرة عابرة كل شيء من الذرّة إلى المجرّة ، ومن الميكروب حتى الإنسان ، علمت أن المجهولات هي أكثر بكثير .

إن العلم يتوفق إلى أن يشرح جزئيات الذرّة أو أن يبيّن خواص الموجودات الطبيعية ، إلاّ أنه لا يقدر على تعريف الروح والعقل البشري ، إن العلماء يعلّمون أنهم يتمكنون من مطالعة وبيان كيفية وكمية كل شيء ، إلاّ أنهم لا يقدرون على بيان علّة وجود الأشياء ، وعلة اشتمالها على خصائصها ، إن العلوم والعقول البشرية ، تستطيع أن تكتشف وتقول لنا : من أين جاءت هذه الذرّات والمجرّات والروح ، والإنسان مع ما أوتي من طاقات ، واستعدادات معجبة ، إن العلوم بإمكانها أن تبين فرضية الانفجار الكوني ، وأن هذه الذرّات والنجوم والمجرّات إنما ولدت ووجدت نتيجة انفجار في المادّة الأولى ، إلاّ أنهم لا يقولون ما هي المادّة الأولى ومن أين أتت ومن الذي فجرّها ؟ وللإجابة عن هذا السؤال يعترف كل عاقل بوجود الخالق »[1] .

إن العالم التجريبي الغريب عن أسلوب تفكير الإلهيين إنما يقبل كل ما وافق المنطق العلمي في هذه الحياة ، ويراه مما ينبغي ويكون ، ويرى من حقه أن ينكر اعتبار كل ما لا يلائم أسلوبه العلمي ، إن الأسلوب هنا هو الاعتماد على التجربة وجعلها دليلاً ، فهو يقيس صحة كل استدلال بما يعتمد هو عليه من التجربة فحسب .

إن العالم التجريبي الذي أصبح فكره الديني مغفولاً عنه ولا سيما الأحكام والمسائل الدينية الفرعية المسبوكة في صياغة الأوامر والنواهي ، وهو لا يجد في أبحاثه العلمية أصولاً تفسّر له هذه الأحكام والمسائل بينما هو

---

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٦٦ (بالفارسية) .

منشدّ بأسلوبه العلمي المتخذ ، وحساس بالنسبة إليه بسبب اعتياده على لسان العلم والقوانين الرياضية ، إن هذا العالم يرى الأحكام العامة الساذجة والطبيعية غير المتكلفة في الدين فارغة من المحتوى وفاقدة للقيمة العلمية .

إن هذا التفكير غلط، إن هذه العلوم مع ما لها من قوانين معقدة ودقيقة للغاية ، والتي لمعرفتها يجب على طالبها أن يتعمق في مباحثها الصعبة والعميقة ، مع ذلك نجد علماءها حينما يدخلون الحياة العملية يخرجون من قوالب هذه العلوم وينفصلون عن اللسان العلمي الخاص بهم ، وإلّا فعليهم أن يحصروا أنفسهم في المراكز العلمية والصناعية والمكتبات وسائر المختبرات التحقيقية .

بإمكان جميع الناس أن يستفيدوا من الوسائل العلمية كالتليفون والراديو ، وهكذا سائر الوسائل العلمية هي مما يمكن أن تتمتع بها العامة بأقل دلالة من الاختصاصيين فيها ، والاختصاصي والخبير لا يعطي المعلومات الفنية والميكانيكية لمن يشرون الوسائل العلمية ، بل إنما يلخص نتائج الأتعاب المضنية للمخترعين في جملات قليلة لبيان كيفية استفادة الناس منها .

وعلى هذا فليس من الإنصاف بل بعيد عن منطق العلوم أيضاً أن نسكب الأحكام الدينية التي لم تأتنا في صياغة قوانين علمية بل ساذجة عامة ، في قوالب من أحكامنا السابقة لأوانها وتصوراتنا وسوابقنا الفكرية غير الصحيحة ثم نعدها فاقدة للأهمية والقيمة العلمية ، ونغفل بذلك عن دورها المصيري وآثارها العميقة في حياتنا اليومية ، إن الأحكام العلمية إنما تكون بليغة فيما إذا كانت بلسان العامة ، وكانت مورداً لإحساس الناس في حياتهم الفردية والاجتماعية .

على أنه لو كان على الأحكام الدينية أن تكون في حدود معرفتنا وتمييزنا وذوقنا ، لما كنا بحاجة إلى النبوّة والأديان ، بل كنا نصنعها ونصوغها بأيدينا .

إن الإنسان يغضّ النظر عمّا يعجز عنه أمام ما يقدر عليه ، وعلماء الطبيعة ومتعلموها اليوم قد اغتروا بمعلوماتهم نتيجة ما حصلوا عليه من تقدم في صعيد العلوم التجريبية حتى أنهم يتصورون أنفسهم أنهم قد سخروا عالم الحقائق وتملكوها ، بينما ليس من المستطاع لأحد في أي زمان أن يدعي الإحاطة بجميع أسرار العالم وكشف أستار عالم الطبيعة أبداً .

يجب النظر إلى الواقعيات بنظرة أوسع ، وأن ندرك أن علومنا إنما هي قطرة لا شيء أمام محيط الأسرار الخفية ، وأن وراء كل اكتشاف علمي يتبدى لنا كثيراً من المجهولات، وأن البشر قد سخّر كل إمكاناته في سبيل الحصول على معرفة أكثر وأكمل لعالم المادّة هذه ، وكان ما حصل عليه من كل ذلك السعي الحثيث الظفر بعدد من الرموز من الأسرار الكثيرة لهذا العالم ، وخطوات يسيرة في هذا السبيل ، وأن جبالاً من المجهولات (إن صح التعبير) تحيط بالمعلومات البشرية .

يقول البروفيسور (رووايه) : « إن جميع الاكتشافات التي كانت غير ممكنة التصوّر وخارقة للعادة بالنظر إلى الفكر البشري ، إنما حصلت في مدة قصيرة مرّت على اتّساع نطاق التكنولوجيا لا تصل إلى مائتي سنة على الأكثر ، لا تعدّ هذه المائتا سنة بالنسبة إلى أعمار الأجسام والموجودات حتى لحظة واحدة ، فكيف يمكن للإنسان أن يدّعي أنه في هذه المدة القليلة من عمر الاختراعات البشرية قد توصّل إلى أسرار الطبيعة أو أنه سخرّها ؟! . أليس من الأصح للحكم بشأن الاكتشافات البشرية المتزايدة ، أن نصبر أكثر من هذا ولا أقل من مرور ألف عام على عمر التقدّم في التكنولوجيا ؟ والتي لا تعدّ هذه الألف سنة بالنسبة إلى الكائنات حتى لحظة واحدة »[1]

وإن كلمة (آينشتاين) تأكيد على قلة البضاعة العلمية البشرية أمام أسرار العالم اللانهائية ، إنه يقول : « إن التصوير العلمي للعالم تصوير

---

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٢٣٢ . (بالفارسية) .

ناقص وليس صورة حقيقية للعالم ، إذ إن الوصول إلى هكذا صورة حقيقية غير ميسّر عملاً بالنظر إلى ضعف أجهزة الإدراك لدى الإنسان ، وأما الاكتفاء بهذه الصورة الناقصة للعالم فلا ترتبط بالعالم وإنما ترتبط بأنفسنا »(١) .

وعلى هذا فيجب إعادة النظر والتقييم بصورة واقعية لمدى فاعلية المعرفة العلمية الحسية ، وأن نحلل ذلك بعيدين عن كل سوابقنا الذهنية التي هي موانع في سبيل الوصول إلى الحقيقة .

لا شك أن العلوم التجريبية لا تستطيع أن تخبرنا إلّا عن ظواهر المظاهر الطبيعية ، وإن المادة والظواهر المادّية هي التي تدخل في حدود التحقيقات والمطالعات العلمية ، ويمكن ملاحظتها في المختبرات وأن أسلوب العلوم اليوم للوصول إلى أهدافها هو المشاهدة والتجربة ، وبما أن عمل العلوم التجريبية هو ملاحظة العالم الخارجي ، فإذا أردنا أن نثق بصحة قضية أو حكم علمي أو نطمئن إلى عدم صحته كان علينا أن نطبقه على العالم الخارجي فنجرّبها ، فإذا طابقت القضية العلمية العالم الخارجي قبلناها وإلا فلا ، فمع الالتفات إلى موضوع وأسلوب العلوم التجريبية علينا أن نتساءل : هل أن الحقائق الميتافيزيقية قابلة للتجربة الحسية أم لا ؟ولأيّ نوع من التحقيق التجريبي يحق أن يتدخل في شؤون الإيمان والعقيدة ؟ وما هي العلاقة بين الله والعلوم التجريبية ؟ .

إن العلوم التجريبية مصباح ينير شطراً من المجهولات حوله ، فلماذا لا يستطيع أن يرفع كل ظلام ؟ أجل ، إن المعرفة بحاجة إلى الإحاطة والشمول ، بحيث يستطيع نظام تلك المعرفة أن يحيط بجميع أجزاء المتعرف عليه وأن يحيط به ، فينتج نظرة شاملة ، وإن سجن المعرفة البشرية في حصار العلوم المحدودة الحسية لا يؤدّي إلى النظرة العامة الشاملة ، بل إنماهو توقف في معطيات التجربة وجهل بأعماق الوجود .

---

(١) مقالات آينشتاين العلمية : ص ٢٢ (بالفارسية) .

إن إيماننا أو عدم الإيمان بالله لا يدخل في مباحث العلوم التجريبية ، إذ لو كان موضوع البحث فيها المادّة فلو فرض عليها أمر غير مادّي لم يحق لها أن تبدي نظراً بشأنه إثباتاً أو نفياً ، إذ إن الدين يعتقد أن الله ليس بجسم مادّي وأنه لا يدرك بالحواس الظاهرة ، ولا يحيط به زمان ولا مكان ، بل هو موجود لا يرتبط وجوده بالأوضاع والأحوال وهو غني عنها عالم بها ، وهو في أعلى مراتب الكمال كل الكمال وأسمى من كل تصوّر يتصوره الإنسان ، وأن عدم دركنا لكنه ذاته وحقيقتها إنما هو لقصور فينا وفي قوانا وطاقاتنا وإمكاناتنا واستعداداتنا .

ولهذا لو طالعنا جميع كتب العلوم التجريبية لما وجدنا مورداً يبحث فيه عن تجربة تتعلق بوجود الله ، وحكماً له أو عليه بالإثبات أو النفي ، إذ أننا حتى لو فرضنا أن الحواس الظاهرة هي الوسيلة الوحيدة لاكتشاف الواقعيات مع ذلك لم نتمكن من نفي شيء عن خارج عالمنا المحسوس ، فإن هكذا دعوى هي غير تجريبية ولا تستند إلى أي دليل حسّي تجريبي .

لو فرضنا أنه لم يكن لأتباع المدرسة الإلهية أي دليل لإثبات دعواهم ، مع ذلك كان إظهار النظر بالحكم بالعدم على كل ما هو وراء المحسوسات اختياراً غير علمي بل مبنياً على الخيال والوهم ، إن هكذا إنكار بلا أساس ليس من شأن العلم ولا الفلسفة ، بل إنه ينافي منطق التجربة .

يقول (جورج بوليستر) في كتابه[1] : « إن من غير الممكن تصوّر شيء لا يشغل الزمان والمكان ويكون مصوناً عن التحول والتغيير » ! .

إن هذه الكلمات تبدي نوعاً من التفكير ، لا يدري ماذا يريد وعن ماذا يفتش ، إذ لو كان يعلم أنه عماذا يفتش لكان يدرك كيف يجب أن يفتش عنه ، إن (بوليستر) الذي كانت الطبيعة والمحسوسات ميدان عمله الوحيد ، من الطبيعي أن يتلقى بالاستحالة ما كان خارجاً عن عملياته العلمية

---

(١) أصول مقدمات الفلسفة (بالفارسية) .

بعيداً عنها غير ممكن الإثبات بالتجربة الحسّية ، وأن يرى الاعتقاد به منافياً للأسلوب الفكري العلمي ، بينما الحق الوحيد الذي يمكن الاعتراف به لعالم طبيعي ، ولا سيما مع النظر إلى كثرة المجهولات البشرية بشأن هذه الكرة الأرضية والمادة الملموسة غير الحية التي هي مورد مزاولته دائماً . ومع العلم بأن عالم المادة بجميع رموزها وأسرارها لا تتلخص في هذه الكرة التي نعيش عليها ، الحق الوحيد هو أن يقول : إن ما وراء الطبيعة خارج عن حدود وسائلي العلمية فأنا ساكت عنه ، لا أن ينكره ، إذ كيف يبيح لنفسه أن يدعي دعوى يلازمها معرفة عامة بجميع نظام الوجود ، بينما لا يصل علمه بالنظام العام إلّا إلى حدّ الصفر .

فأي دليل يمكن أن نثبت بمساعدته أن الوجود يساوي المادة فقط ، وأن عالم الوجود يتلخص في الماديات فحسب ؟ وأي عالم للميتافيزيقا استطاع لحد الآن أن يبني إنكاره على أساس علمي ودليل منطقي ؟ وأن يجد برهاناً على عدم وجود شيء خارج حدود الحسّ والتجربة غير العدم المحض ؟ .

إن العلم وإن كان لا يتمكن من نفي كل مجهول بمحض عدم وجود وسيلة للتوصل إليه ، بل إنما يبقى بانتظار اكتشافه يوماً ما ، مع ذلك نرى أن الماديين لا يتكلمون حول وجود الله حتّى بالشك والترديد ، بل يعلن هؤلاء حكمهم العاجل الخاطىء بنفي الخالق بصورة قطعية وصريحة ! .

إن هؤلاء يضعون مقاييس لأشياء خاصة ثم لا يقبلون باستعمال ذلك المقياس الخاص بشيء في مورد شيء آخر ، فمثلاً لا يجوزون استعمال مقياس السطح في خصوص معرفة الحجم ، لكنهم حينما يصلون إلى تقدير عالم المعنى والروح يريدون أن يقيسوا الله والروح والوحي بنفس الوسائل المادّية ، وحينما يعجزون عن معرفة هذه الأمور بتلك المقاييس ينكرونها بلا هوادة ! .

وإذا أراد الإنسان المحصور في حدود المنطق التجريبي أن لا يقبل من

عالم الوجود إلاّ ما أثبتت له التجارب المحسوسة وينكر ما وراءها فليعلم أن هذا طريق اختياره هو وليس نتيجة تحقيقات أو اختيارات للعلوم التجريبية، وأن هذه الثقافة غير الحقيقية إنما هي نوع من أنواع الطغيان الفكري والخروج على الطبيعة والفطرة ، أما الإلهيون فيرون أن الله الذي يريد العالم الطبيعي إثباته بوسائله العلمية وأسبابه الطبيعية فليس هو بالله الخالق ، وأن العلوم المادّية عاجزة عن درك توفيق للوصول إلى الهدف .

يقول الدكتور (ايوى) العالم الفيزيولوجي الشهير : « إن المنطق يثبت وجود الله ولكنه يعجز عن نفيه ، ولعل أناساً ينكرون وجوده كما كان سابقاً إلاّ أنهم لا يستطيعون أن يأتوا بدليل معقول لإثبات دعواهم ، وإذا كان هناك دليل عقلي على الإنكار أو الترديد في وجود شيء كان له أن ينكر أو يشكك ، أمّا أنا فلم أجد حتى اليوم في مطالعاتي أحداً له برهان صحيح على إنكار وجود الخالق ، بل إني عثرت على دلائل معقولة لا تحصى لإثبات الله »[1] .

* * *

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٢٦٦ (بالفارسية) .

إن الاعتقاد بالموجود غير المرئي لا يختص بالله

إن من خصائص الله الواحد الذي دعانا الأنبياء وقادة الدين إلى معرفته وعبادته ، هو أنه غير محسوس بصورة مطلقة ، أزلي أبدي ، في كل شيء لا بمقارنة ولا في شيء لا بمفارقة ، له مظاهر متجسدة في جميع المحسوسات من عالم الطبيعة ، إرادته ظاهرة متجلية في أي نقطة من عالم الوجود ، وإن ظواهر الطبيعة مرآة لتلك القوة والذات العالمية ، ليس غير مرئي فحسب بل إن حواسنا عاجزة عن دركه ، إذ كل ما يمكن أن يجول في أذهاننا إنما هو في إطار المحدودية بينما الله مطلق لا نهاية له .

لا شك في صعوبة تصوّر هكذا موجود لا يدركه الإنسان بحواسه ولا لون ولا سمة له من الماديات ولا يلائم ما جربّناه من المشاهدات العادية ، وإذا صعب تصوّر شيء على الإنسان هان عليه إنكاره .

والذين يريدون حل مسألة وجود الله في إطارهم الفكري المحدود ونظرتهم الضيقة المادية يقولون : كيف يمكن الاعتقاد بموجود لا نراه ؟ ولكنهم يغفلون أو يتغافلون عن حقيقة : أن الإنسان بمساعدة الحواس الطبيعية وبالنظر إلى محدوديتها إنما يتمكن من درك ظاهر من هذه الحياة الدنيا ، ولا يتمكن من معرفة سائر أبعاد الوجود ، وأنه لا يخطو خطوة خلف الظواهر بمساعدة الأجهزة الحسّية ، كما أن العلوم التجريبية إنما تستطيع أن

تتقدم بأفكار الإنسان حتى حدود الطبيعة دون ما وراءها .

إذا لم يستطع الإنسان أن يدرك شيئاً من طريق العلوم والوسائل والمقاييس العلمية فما لم يمتلك برهاناً على امتناعه واستحالته لا يملك ردّه وإنكاره بالاستناد إلى عدم انسجامه مع المقاييس المادية التي لديه .

وأما نحن فنكتشف القانون الغيبي من خلال مجموعة من الظواهر التي لايفسّرها إلاّ ذلك القانون الغيبي . ولو لم يمكن إثبات حقيقة علمية إلاّ بالإحساس المستقيم المباشر ، لخرج أكثر الحقائق العلمية عن كونها ثابتة علمية إذ لا يدخل كثير منها في الحس والتجربة .

لا يوجد عاقل يجعل أساس إنكاره للواقعيات المادية عدم رؤيته وإحساسه لها في مسائل حياته اليومية ، ولا يتّهم بالنفي كل ما لم يدخل في حوزة إحساسه من الماديات ، فكيف بالحقائق غير المادية .

إننا في التجارب العلمية فيما إذا لم نجد علة لمعلول خاص لا نحكم ببطلان قانون العلية ، وإنما نقول : نحن نجهل بالعلة الخاصة وهذا يعني استقلال قانون العلية عن التجارب العلمية ، وعدم صحّة نفي العلية بالتجربة .

هل أن وجود كل ما نقبله ونعتقد بوجوده مما رأيناه بأم أعيننا ؟ وهل نحن في هذه الدنيا المادية نرى كل شيء ونحسّ به ثم لا نحسّ بوجود الله ؟ بل يعلم جميع الماديين أن كثيراً من معلوماتنا هو من الحقائق والقضايا غير المحسوسة ولا المأنوسة من قبل ، وأن الموجودات الخفية كثيرة في عالم الوجود ولا سيما بالنظر إلى الحقائق الكثيرة التي اكتشفها التقدم العلمي في هذا العصر الحاضر ، وأن من أوسع الفصول التحقيقية العلمية لعلماء العالم الطبيعي اليوم هي مسألة تبدّل المادّة بالطاقة .

نفس هذه الموجودات والأجسام الطبيعية المرئية حينما تريد أن تبقي من نفسها طاقة كان عليها أن تبدّل صورتها الأولى حتى تتبدّل إلى الطاقة ،

فهل هذه الطاقة التي تدور على أساسها كثير من الانفعالات المادّية قابلة للرؤية أو اللمس ؟ .

نحن نعلم أن الطاقة ذات قدرة ، أما ما هي ماهيتها فهذا سر غير مكتشف، إن بعض النتائج العلمية حصيلة الاستدلال والبرهان لا المشاهدات العينية ، إن معرفة أوضاع الذرّات الغاية في الصغر إنما تحصل من طريق الاستنتاجات المستندة إلى المشاهدة والتجربة ، وإن الاطلاع على الحقائق العلمية المتعلقة بفيزياء الذرّة إنما يحصل من طريق الاستدلال ، ولو لم تكن الآثار الظاهرة لبقي الإنسان جاهلاً بما في بطن الذرّة من الواقعيات والحوادث .

هذه الكهرباء الجارية في بنائنا العلمي وحضارتنا وحياتنا لم يرها فيزياوي في المختبر ولا أي فرد يزاول الوسائل الكهربائية الالكترونية ، ولم يزنها ولم يحس بنعومتها أو خشونتها ولم يسمع حسيسها ولم يلمسها أبداً ، بل إن من غير الممكن أن يرى أحد عبور الكهرباء في السلك أبداً ، اللهم إلاّ عن طريق التجربة والوسائل الالكترونية .

إن الفيزياء الجديدة تقول : إن الأشياء التي نحسّ بها صعبة جامدة هامدة لا يرى أي أثر للحركة فيها ، ولكنها على الرغم من ظاهرها هذا هي مجموعة من ذرّات لا صعبة ولا جامدة ولا ثابتة ولا هامدة ، بل ليست إلاّ حركات متحوّلة متغيرة ، وإن ما تراه أجهزتنا البصرية والحسّية كأنها ثابتة غير متحركة هو غير ثابت ولا ساكن ولا هادىء ، بل يحيط بها السير والحركة والدوران ، من دون أن تكون مدركة لنا من طريق الإحساس المباشر .

إن للهواء الذي يحيط بنا وزناً ثقيلاً . والبدن دائماً تحت وطأة هذا الثقل ، يتحمّل كل شخص مقدار ستة عشر ألفاً من الكيلوغرامات من ثقله ، وحيث يبطل الثقل من أثر الضغط الداخلي للبدن فلا نحسّ بألم الثقل هذا ، هذه حقيقة ثابتة علمية لم يعلم أحد بها قبل (كاليلة) و (باسكال) ولم تدركه حواسنا أبداً .

بل حتى الصفات التي يعددها العلماء بالنسبة إلى العوامل الطبيعية على أساس التجارب الحسية والاستنباطات العقلية ليست مدركة بعقولنا مباشرة ، فأمواج الراديو موجودة في كل مكان وغير محسوسة ولا يخلو محل من قوة الجاذبية المادّية من دون أن يقل شيء من تلك المادة أو يزيد عليها .

إن الهدف من جميع التحقيقات العلمية والذي نحصل عليه منها هو مطالعة الآثار الجزئية المحسوسة من المادة للتوصل إلى العوامل الخفية والقوانين العامة فيها .

يخبروننا في علم الجيولوجيا عن تشكيل طبقات الأرض قبل ملايين السنين ، ويتكلمون لنا عن أشكال الانكماشات والطبقات والفسيلات وإحاطة المحيطات بكثير من الجبال والصحارى الجرداء اليوم ، بينما لم يكن أحدهم يشاهد هذه الماجريات .

والمفاهيم الذهنية كالعدالة والجمال والمحبة والعداوة والبغضاء والعلم ليس وجودها معيناً محدوداً قابلاً للرؤية ، وليس لها أي أثر فيزياوي ، ومع ذلك نحن نعدها من الواقعيات ، وأخيراً فماهية الكهرباء وأمواج اللاسلكيات والطاقة لا يعلم بها الإنسان ، وليس له علم بماهية الألكترون والنيوترون ولا يعلم بوجودها إلا عن طريق آثارها ونتائجها فقط .

ولا شك في وجود الحياة ولا يمكننا أن ننكرها ، ولكن كيف يمكننا أن نقدرها ونقيسها ؟ وبأي وسيلة نتمكن من تقدير وقياس سرعة سير الأفكار والأوهام والخيالات والظنون والتصوّرات ؟ .

يقول البروفيسور (ستانلي كونكدون) : « أنا كثيراً ما أطلب من تلامذتي أن يكتبوا لي بتطبيق القوانين الكيماوية على عملية تفكير فيكتبون لي عن طول العملية بالسانتيمتر ووزنها بالكيلوغرام ولونها وشكلها وحجمها ومدى الضغط والجاذبية الداخلية فيها وفاعليتها وحركتها وجهة الحركة وسرعتها . . ولكنهم لم يتمكنوا أن يبيّنوا عن العملية الفكرية بتعبير فيزياوي

أو معادلة رياضية ، اللهم إلاّ أن توجد لغة جديدة تفقد فيها كلمات الطول والوزن ونظائرهما معناها الخاص الذي كان لها في علم الفيزياء .

إن علوم المعرفة مجربة ولكنها أيضاً معرضة للخطأ والضلال والتيه والضياع ، ولا صحة ولا قانونية لها في الحياة إلاّ في حدودها الخاصة ، فإنها محصورة بحصار المعلومات الكمية ، وهي إنما تبدأ وتنتهي بالاحتمالات لا باليقين ، ونتائجها ولا سيما في التقديرات والارتباطات بين الظواهر المختلفة تقريبية معرضة لخطأ الحدس والتخمين وهي مؤقتة غير مقطوع بها ، ولا تلبث أن تتغير بالحصول على معلومات جديدة ، إذ لا نهاية للاستنتاجات العلمية ، والعالم يقول : إن الواقعيات حتى هذا الوقت الحاضر كذا وكيت ، وإن مدركاتنا الشخصية بالنسبة إلى ظواهر الطبيعة نسبية محدودة .

ولا واقعية في هذا العالم المتلاطم العجيب يمكنها أن تنفي آثار فعالية الله المطلق أو تثبت عدمه »[1] .

وعلى هذا فواضح جداً أن إنكار ما وراء المرئيات والمسموعات بعيد عن المنطق والأصول العقلية المتعارفة ، لماذا يستثني منكرو الله تطبيق الأصل المعمول به في جميع المسائل العلمية بشأن القوّة القاهرة للطبيعة ؟ .

لا ننسى أننا محبوسون في أبعاد المادة ، ولا يمكننا أن نتصوّر الموجود المطلق في أنظارنا كما نتوقع ، نحن إذا قلنا لقروي عادي : هناك مدينة في العالم كبيرة وسيعة مليئة بملايين البشر تسمى (لندن) تصوّر في ذهنه شكل معمورة كبيرة أكبر من قريته تلك بعشرات المرات بنفس الكيفية الخاصة في البناء والأزياء ونوعية العلاقات والمعاشرات ، ويتصور أن وضع الناس كأهل قريته في جميع الخصوصيات ! .

ولإصلاح فكره البعيد عن الواقع بالنسبة إلى لندن ، فالشيء الوحيد الذي نتمكن أن نقوله هو : إن لندن بلاد معمورة ولكنها ليست كبلادكم ولا

---

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٣٤ (بالفارسية) .

الوضع السائد هنا نفس الوضع هناك .

كذلك الذي نقوله بشأن الله الخالق : إنه موجود حي قادر عليم لا من نوع هذه الموجودات والعلوم والقدرات ، وبهذا نتمكن من أن نخرج شيئاً ما عن بلاء المحدودية ، وإن تصوّر حقيقة ذات المادّة الأولى غير ممكنة أيضاً .

إن المحسوسات وإن كانت من أوضح وأدق معلوماتنا في نظرنا لكننا لا يمكننا الاعتماد عليها فقط في المسائل العلمية والفلسفية ، بل يجب أن نعرف حقيقتها وماهيتها ومدى مساعدتها للإنسان على كشف الحقائق بعيدين عن النظرات المتعصبة ، فإن المحسوسات في غير هذه الصورة ستغشنا وتضللنا ، إذ إن الإدراكات الحسية إنما تتعلق بكيفيات معينة من ظواهر المحسوسات لا بجميعها ولا بغير المحسوسات من الجواهر والذوات ، وهي لا تتمكن من الإدراك إلاّ في حدود خاصة .

هذه العين التي هي أوثق وسيلة لدرك الواقعيات تصبح في كثير من الموارد عاجزة عن رؤية الواقعية ، فلا ترى من الأنوار إلاّ ما لم يكن طول موجته أقل من (٤٪) ميكرون ، وأكثر من (٨٪) ميكرون ، ولهذا فهي لا ترى أشعة ما وراء البنفسجية وما وراء الحمراء ! ، وقد خصصت كتب الدراسات العلمية النفسية وغيرها فصولاً هامة للتعرّض لأخطاء الحواس ، إن الألوان التي نعرفها في هذا العالم الخارجي هي ليست في الحقيقة ألواناً ، بل هي ارتعاشات بطول أمواج مختلفة ، فالعيون تحس بطول أمواج مختلفة من النور وبميكانيكية خاصة ، فالتي ندركها بحواسنا تتحدد بحدود قدرتها ، وبعض الحيوانات ترى بعض الواقعيات بألوان مختلفة .

ولم يتّضح في التحليل العلمي بعد كيفية درك حاسة البصر للألوان المختلفة ، ولم يخرج التحقيق المعمول به بهذا الصدد والنظريات المبررة عن صورة فرضيات ، والرؤية بعد مبهمة !

ولإدراك مدى تغرير حاسة اللمس بإمكانك أن تملأ ثلاث كؤوس من

الماء ، أولاها حارة جداً ، والثانية باردة جداً ، والثالثة فاترة ، فتدخل إحدى يديك في الحارة والأخرى في الباردة ثم تخرجهما فتدخلهما في الفاترة ، فإنك سترى ـ بكل عجب ـ أنك تحس بإحساسين متضادين ، فإحدى يديك تحسّ ببرودة الماء جداً ، وبالأخرى تحسّ حرارته الشديدة ، بينما الماء واحد وله درجة واحدة من الحرارة .

والعقل يقول : لا يمكن أن يكون الماء في لحظة واحدة بارداً وحاراً ، بحالتين متضادتين ، وأن هذا من خطأ اللامسة التي فقدت إدراكها بتأثير من المياه السابقة ، فما تحسه الآن يتنافى وحقيقة الأمر ، وإن العقل يؤكد خطأه .

وعلى هذا فكيف يمكننا أن نعتمد على الإحساس فحسب بدون قيادة عقلية ومقاييس فكرية ؟ وهل من سبيل للأمان من هذه الأخطاء الحسية غير الإدراكات العقلية ؟ أجل هو الذي يتكفل بإصلاح مدركات الحواس ، وهو فوق الحواس .

وعلى هذا نقول : إن المحسوسات تفقد قيمتها بعنوان مدركات واقعية ، وإنما لها قيمة علمية ، وإن الذين يحصرون اعتمادهم في مطالعاتهم على الحواس فلن يوفقوا إلى حل مسائل الوجود ولغز الحياة .

وما علمناه بخصوص إدراك الحواس للواقع يتج لنا : أن الحواس لا تقدر وحدها أن تصل بالإنسان إلى العلم اليقيني وأن تقوده إلى الحقيقة حتى في المحسوسات ، فضلاً عن المسائل التي لا سبيل للحواس إليها فكيف تبدي بشأنها النظر ؟ .

إن أتباع المدرسة الميتافيزيقية يعتقدون بأنه كما أن أسلوب التحقيق والمعرفة في العلوم الحسية هي التجربة ، كذلك في معرفة المسائل الميتافيزيقية يكون أسلوب التعقّل هو الوسيلة لاكتشاف الحقائق .

كتب المحقق الشهير : (كميل فلاماريون) في كتابه : (أسرار

الموت) يقول : « إن الناس يعيشون في صحراء من التيه والجهل والضلال والضياع ، ولا يعلمون أن هذا التركيب الجسماني للإنسان لا يقدر على قيادته إلى الحقائق ، وأن هذه الحواس الخمس تغشه وتخدعه وتغريه في كل شيء ، وأن الشيء الوحيد الذي يهدي الإنسان إلى الحقائق هو العقل والفكر والدقة العلمية .

إن العقل والعلم يحكمان اليوم بوجود ذرّات من الأشياء وفي الهواء والقوى والطاقات التي لا نراها ولا يمكننا إحساسها بأي واحد من حواسنا ، وعلى هذا فمن الممكن وجود أشياء وموجودات أحياء خارجة عن حدود حواسنا .

فإذا ثبت بالدليل العلمي عدم قدرة الحواس الظاهرة على معرفة جميع الموجودات ، وأنها قد تغشنا وتخدعنا وتغرينا بخلاف الواقع ، فلا ينبغي لنا أن نتصور حصر جميع الموجودات فيما ندركه بحواسنا ، بل علينا أن نذعن بخلافه ، وقبل اكتشاف الميكروب لم يكن أحد يتصوّر ملايين الميكروبات في أطراف الأجسام ، وأن حياة كل حي معرّضة لتجوال أنواع هذه الميكروبات ولذلك نحن نقول : إن الذي يقودنا إلى الواقعيات بصورة كاملة هو العقل والفكر » .

وبناء على ما سبق نكرر : أن لا قدرة كافية لحواسنا حتى على معرفة المحسوسات والمشهودات ، فإن الإدراكات الحسية صور عن ظواهر الحياة من دون الوصول إلى أعماقها ، ودون أن تقدر على رؤية مستقبل ومصير ظاهرة خاصة ، لكننا بالتحليل الفكري وتعمق النظر نستطيع الوصول إلى أعماق حقائق الأشياء » .

وخلاصة القول : إن المعرفة الموثوق بها هي التي تكون بعيدة عن قصر النظر والحكم بالظواهر ، بل قرينة للتحقيق الدقيق الفكري والعقلي .

أصل العليـة

إن أصل العلية قانون عام شامل ، وهو أساس لجميع المساعي العلمية أو العادية للبشرية ، إن مساعي العلماء للكشف عن علة أية حادثة طبيعية أو اجتماعية ، إنما هي لعدم قبولهم أن تتحقق ظاهرة طبيعية ، أو اجتماعية بدون تدخل العلل والعوامل .

إن تحقيقات العلماء والمتفكرين في العالم اليوم قد أقدرتهم على المعرفة الأكثر بالنظام القوي الحاكم على الطبيعة ، وإنهم كلما تقدّموا في طريق العلوم والصناعات أكثر فأكثر التزموا بهذا الأصل أكثر فأكثر ، إن علاقة العلية وعدم وجود ظاهرة أو حادثة بدون علة من أقوى الدلائل العقلية وأوضح الأفكار البشرية ضرورة ، والحاجة إلى العلة أمر فطري طبيعي لها أفعالها وردود أفعالها في أفكارنا بصورة أتوماتيكية عفوية .

إن الإنسان غير المتحضر أيضاً كان يحاول كشف علل الحوادث والظواهر ، إلاّ أنه لحرمانه من القدرة العلمية كان يفسر المسائل بالاستناد إلى الأرواح غير الطاهرة أو الطاهرة ، وإن الفلاسفة إنما أخذوا مفهوم العلية من ضمير الإنسانية وصاغوا لها المفاهيم الفلسفية .

نحن المحصورين بين جدران المادة لم نصادف في حياتنا الوقوف على صدفة كما يقولون ، بل لم يتفق لأحد في طول تأريخ العالم أن يقف

على صدفة لا علة لها كي يتشبث بها القائلون بالصدفة في خلقة الكائنات .

إن الدقة والحساب والمقايسة نتيجة للفكر والإرادة والقدرة في الفاعل الذي يطرح عمله على أساس برنامج وهدف خاص ، أما ما يحدث على يد عامل غير عاقل فترى الهرج والمرج واللانظامية تقطر من كل زاوية من زواياه ، فما هي هذه الصدفة التي تقود الحياة من مطلع فجرها حتى الآن بهذه الكيفية العجيبة من حيث الدقة والنظام ؟! فهل أن هذا النظام وليد الصدفة والاتفاق العفوي ؟! .

من رأى ومن ادّعى حدوث ظاهرة بدون سبب وعلة في أيّ من العلوم المادية والإنسانية ؟ ، إنّ استدامة سلسلة العلل والمعاليل حتى اللانهائية والقصور عن معرفة العلة الأولى لا يبرر إنكار العلة والوقوف على المدرجة الأولى من العلل بعنوان أنها هي النهاية ، إن العالم إن لم يكن وليد حكمة عميقة بليغة وإرادة عالمة وتدبير هندسي منظم يحفظه عن كل تحريفة وطغيان عن نظم الطبيعة وقوانينها الحاكمة عليه ، لكان معرضاً لخطر الانهدام في كل لحظة ، إذ لو وجدت ظاهرة على أساس الصدفة والاتفاق الأعمى في إحدى مراحل الحياة المنظمة لكان وجود هذه الصدفة عاملاً مساعداً على فناء العالم ، حيث إن أصغر خلل في النظام وتوازن عناصره وأبسط اختلال في قوانين العالم كان كافياً لاصطدام الأجرام السماوية وتفجرها وبالتالي انعدام العالم .

لو كانت خلقة العالم على أساس الصدفة فلماذا نرى الماديين يفسرون وجوده على أساس نظام مدروس ومدبر لا مجال للصدفة فيه ؟!

لو كان العالم كله وليد الصدفة فكيف يكون ذلك الشيء الذي يوجد من غير صدفة ؟ وما هي مميزات وخصائص الموجود من غير سبيل الصدفة كي نلاحظ تطبيق التعريف فنرى هل هو ينطبق على مختلف الظواهر المتنوعة في هذا العالم ؟!

بينما لا تجد في نظام الوجود موجوداً على أساس الصـدفة والإهمـال والتحولات الاتفاقية ، بل ليس في مصنع الخلقة ظاهرة لا ترى فيها آثار الفكر والتدبير والدقة ، وإن خصائص الآثار هي التي تدلنا على خصائص المؤثر .

لو كانت الصدفة تولد النظام والتوازن للزم أن يكون ما وجـد بهندسـة ومحاسبات غير منسجم ولا متوازن ، إذ أن الهندسة والمحاسبات تتنافى مع الصدفة ، ولهذا نقول : إن فرض الصدفة أساساً لنظام العـالم لا يقوم على أي برهان منطقي أو دليل علمي ، ولا يمكن أن تفترضها كطريق حل مقبول لنظام الوجود .

إن استعمال كلمة الصدفة في بعض المسائل إنما هو عن عدم معرفـة دقيقة بمعناها لا مع التوجه إلى ذلك ، وإنما يستمسك بها أصحـابها مـا لم يتوصلوا إلى معرفـة بالقـوانين الحاكمـة على الظواهـر والحوادث ، وحينمـا تكتشف العلة الحقيقية للحوادث المعقدة ، أو يكتشف القانون الحاكم على ظاهرة خاصة في ظل التحقيقات العلمية المستمرة أودعت هـذه الكلمة إلى ملف الكلمات المتروكة ، وعلى هذا نقول : إن التعبير بالصدفة ليس حكماً علمياً نهائياً ، ولا يبقى له مجال بعد المعـرفة العلميـة واكتشاف رمـوز نظام العالم .

يقول (فرانس بيكن) إحدى شخصيات النهضـة العلمية الأوروبيـة : « يمكنني أن أؤمن بجميع الأساطير ، ولا يمكنني قبول أن يكون هذا العالم موجوداً بلا علم ولا شعور حاكم على خلقه ، نعم يمكن لفلسفة سطحية غير عميقـة أن تسبب إلحاد الإنسـان ، بينما الفلسفـة العميقـة تـوجب الإيمـان بالأديان ، أجل إذا نظر الناظر إلى العلة القريبة للأشياء ولم يتجاوزها أمكن أن لا يعتقد بوجود الخالق ، ولكنه لو نظر إلى جميع سلسلة المعلولات لآمـن في النهاية بالمشيئة الأزلية للإله الواحد »[1] .

---

(١) تاريخ فلسفة (ويل دورانت) ص ١٦٣ج ١ : بالفارسية .

ويناسب هنا أن نستمع إلى حوار بين « نيوتن » الرياضي والمنجم الإنكليزي المعروف مع أحد أصدقائه الماديين . .

أوصى (نيوتن) إلى رجل ميكانيكي ماهرفنان أن يصنع له صورة مصغرة عن المنظومة الشمسية ، فصنع له ما أراد ، وكانت هذه الصورة (الماكيت) ذات مركز وسيارات حولها ترتبط بعضها ببعض بأسلاك، وهي تدور بأسلاكها في مدارات خاصة حول ذلك المحور في مركز الدائرة .

ذات يوم كان (نيوتن) في مكتبه ، ومعه صديقه الميكانيكي صانع الصورة الفلكية ، إذ دخل عليه صديقه العالم الماديّ ، وما إن وقع بصره على الصورة الفلكية (الماكيت) للمنظومة الشمسية حتى بهر بجمالها وظرافتها ، ولما حرّك محرّك أسلاكها رأى أن السيارات المعدنية أخذت تتحرك حول محورها على الأسلاك ، صاح : شيء جميل ! من صنع هذا ؟ ، أجاب (نيوتن) : لا أحد ! إنما وجدت بالصدفة والاتفاق هكذا !

قال العالم الماديّ : لعلك لم تفهم ما أقول ، أنا سألتك : أيّ الميكانيكيين صنع هذا (الماكيت) ومن صمم له هندستها ؟

قال (نيوتن) : لقد التفت إلى سؤالك وكان كلامي جواباً لسؤالك حينما قلت لك : لا أحد ، وإنما وجدت بالصدفة وحدها أي أن موادها تجمعت وتشكلت بهذا الشكل بصورة اتفاقية عفوية .

قال العالم المادي ـ وهو ينظر إلى (نيوتن) بحيرة ومرارة ـ : صديقي (نيوتن) ! هل تتصور أني أحمق أنسب صنع هذا الماكيت إلى الصدفة ، وصانعها لا بدّ أن يكون أستاذاً ماهراً ذا ذوق ونبوغ ؟ .

حينئذٍ قام (نيوتن) من خلف منضدته ، وأغلق الكتاب ووضع يده على كتف صديقه المادي وقال : صديقي ! إن ما تراه وتسأل عن صانعه ليس إلاّ ماكيتاً صغيراً عن نظام واقعي عظيم للمنظومة الشمسية ، ومع ذلك لا تقبل أن يكون قد صنع لوحده وبالصدفة ، من دون أن يكون له صانع عالم

مستهـدف ، إذن فلماذا تصـرّ على عدم وجـود خالق عـالم لنفس المنظومـة الشمسية بما لها من عظمة وسعة وتعقيدات ، وتقول : إن الصدفة أو المادة غير الشاعرة هي التي صنعتها ؟! .

فخجل العالم الماديّ ، وسكت لا يحير جـواباً أمـام منطق (نيـوتن) القويّ والصريح .

وهكذا لام (نيوتن) صديقه العجول الذي كـان يعانـد ويكابـر وينكر الخالق ويجانب الحقيقة .

الأصالة في الحياة

يقول العلم اليوم : إن الحياة هي التي توجد الحياة ، وأن حياة الأحياء إنما تبقى وتستمر عن طريق التناسل والتوليد ، ولم ير لحد الآن أيّ خلية حية تولد من مادة غير حية ، حتى في الأحياء ذات الحياة الدنيئة كالزعانف والسلاحف والفطائر ، فما لم يكن مولدها متمتعاً هو بالحياة في محيط حيّ لا يمكن أن تولد حية وتنمو .

يقول العلم : قد مرّ على الكرة الأرضية زمان طويل لم يمكن الحياة عليها لحرارتها العالية ، وحينئذٍ لم يكن على وجه الأرض خضرة ولا أنهار ولا عيون ، بل كان فضاؤها مليئاً بالمعدنيات المذابة والبراكين المتفجرة ، وبعد أن برد ظهرها ، لم يكن يوجد عليها موجودات غير آلية حتى آلاف السنين ، وخلاصة القول : إنه لم يكن هناك أيّ أثر للحياة بين التحولات التي كانت تطرأ على سطح الأرض آنذاك ، إذن فكيف وجدت الحياة عليها ؟.

لا شك أن الحياة إنما وجدت على هذه الكرة بعد مدة من ظهورها أكثر من ثلاث ميليارات من السنين ! أما كيف كان ذلك فهذا أمر مجهول لدى العلم .

مرت قرون والعلماء المحققون يسعون وراء كشف سر الحياة هذه الظاهرة الغريبة في المختبرات العلمية ، ولكنهم لم يقتربوا حتى الآن من

اكتشاف هذا اللغز العجيب !.

كتب (بروتو بور كل) العالم والمحقق الألماني في كتابه : (العوالم البعيدة) يقول : « الحياة ! أي كلمة ساحرة ! هل وجدت الحياة من العدم ؟! هل يمكن أن توجد الآليات من غيرها ؟! أم أن هنا يدأ خالقة قادرة مطلقة ؟ قد يقال : لعل الحياة جاءت من الكرات الفلكية الأخرى إلى سيارتنا هذه ؟ إذ أن الميكروبات النباتية الحية التي تسبح في جوّ إحدى الكرات الفلكية ترتفع إلى حدّ كبير ، يمكن لأشعة الشمس أن تدفعها إلى فضاء كرات أخرى تصل إلى سطح تلك الكرة فتنمو وتتطور هناك .

ومع هذه الفرضية لم يتقدّموا في سبيل حلّ اللغز الكبير ، حتى بمقدار رأس إبرة ! إذ حتى في هذه الصورة تبقى كيفية ظهور الحياة ـ سواء في إحدى الكواكب التابعة للمنظومة الشمسية ، أو التابعة للشعرى اليمانية ـ مجهولة غير واضحة .

وكما أنه لا تتكون الساعة من تكديس اللوالب والنوابض كذلك هنا ما لم نجد القلب المحرّك ونداء : كن حياً ، فلا نجد الحياة » ! .

نحن نعلم أن المادة في ذاتها فاقدة للحياة ، وأن ليس لأيّ عنصر ماديّ لوحده خصوصية الحياة ، إذن فلا يمكن أن نفترض الحياة نتيجة تركيب منسجم لذرات متشكلة من المادة ، حيث نجد أمامنا هذا السؤال الملح : لماذا لا تتكرر ولا تكثر المادة الحية إلاّ عن طريق التناسل والتوليد ؟، إن التفاعلات الكيماوية مستمرة في الأجسام غير الحية ولا نجد فيها أيّ أثر للحياة ، وأما القول بأن المادة تميل إلى التركيب ، وأن الحياة نبعت فيها في تطوراتها المتكاملة ، فإنما هو وصف لمظاهر الظواهر الحية التي نحسها ، وليس بياناً لكيفية وجود الحياة ومعرفة سببها .

إن أجزاء المادة لم تكن تختلف فيما بينها بالأصالة ، فلماذا تركب بعضها مع بعض وتأخر كثير منها ، فتمتع بالتالي بعضها بالحياة وحرم البعض

الأخر ؟ من أين نشاهد الاختلاف وما هي علة هذا الاختلاف في الحياة بين موادها ؟ .

إنما الشيء الذي يحصل من تركيب عنصرين أو عناصر متعددة ، هو أن يهب العنصر ما فيه من خصائص للعنصر الأخر المتركب معه ، ولكنه كيف يهب ما لا يملك ؟ أجل إن العناصر تجد بفضل التركيب خاصة عامة غير خارجة عن إطار خواص آحادها ، إلاّ أنّ الحياة بما لها من خصائص منفردة لا شبه بينها وبين خواص المادة ، إذ للحياة تجليات ليست للمادة ، وهي تتحكم في المادة من كثير من النواحي ، وإن كانت هي تتبع المادة في الهيكل . ما أن تسطع أشعة الحياة على المادة حتى تتجلى فيها الحركة والإرادة والإدراك والمعرفة .

إذن فتفسير الحياة بردود فعل كيماوية غير وجيه ، يقول أحد العلماء : « ليست الحياة نظاماً جامداً لا روح فيه كالمعمل ، بل هي نظام فيه قدرة التجديد والتكرار لنفسه وكذلك التفوق والتسلّط ـ إن صحّ التعبير ـ على نفسه ، ومعه مرشد وهاد طبيعي فطريّ يهديه من الداخل والضمير ، فطرة مكدسة مكنوزة في نسيجه تتكفل بتجديد ما تحلل وتلف » .

ما هو هذا العامل الذي يصنع الخلايا أنواعاً مختلفة ومع برامج متنوعة تأخذ مكانها في جسم منظم ، يحضر الخلية الجنسية التي تنقل مميزات وخصائص الآباء إلى الأبناء بلا استثناء ، وبدون قصور أو خطأ في أداء المهام والوظائف والتكاليف والمسؤوليات ؟

نحن نرى أن للخلايا الحية خصائص في تركيبها ، فمن خصائصها ترميم الخسائر وتجديد ما يتلف واستعداد التنوع ، وحفظ النوعيات ، فكل خلية في جسد الإنسان تعمل في الزمن الذي ينبغي أن تعمل فيه بصورة متناسبة ، وأما توزيع العمل والوظائف فأمر محير ، تنقسم بمقدار الحاجة إلى تكوين الأجسام ، وتذهبّ كل خلية إلى مكانها من المخّ ، والرئة والكبد والقلب والكلى ، ولا يرى أيّ قصور في وظائف الخلايا الجائية المنتظمة في

مواضعها ، فهي تدفع المواد الزائدة غير المفيدة وتحفظ الحجم المناسب لكل شيء .

إن نسبة هذا التقسيم العجيب ـ الذي يوجد لتناسب وتوازن الأجزاء اللازمة في أجسام الموجودات ـ إلى العوامل الميكانيكية غير المدركة، تفسير قاصر جداً ، وأيّ إنسان حرّ التفكير يقبل هذا المنطق ؟! .

ولهذا نحن نقول : إن الحياة نور يشعّ على المواد المستعدة لقبولها من أفق أعلى من المادة ، فيجعلها تتحرك وتفكر ، إن هذه هي إرادة الرب القدير وقدرته وحكمته الجامعة البالغة التي تفيض بمعجزة الحياة بجميع خصائصها على المادة غير ذات الروح ، وإن الإنسان يرى بين هذه المواد المتحركة جوهرة الحياة السيالة كحقيقة شاعرة ، ويشاهد بها الله في خالقية مستمرة وإيجاد وتطوير دائم .

مظاهر قدرة الله في الطبيعة

إن عالم المادة والطبيعة كوحدة مصنوعة هي أحسن وأتمّ وأعمّ برهان لمعرفة الخالق ، وإن في هذه التحولات المادية ، ما يكشف عن الإرادة الحكيمة لذلك الناموس الأزلي ، وما يثبت أن شعاع وجوده الخالد هو الذي يمدّ الموجودات بالحياة ، وأن جميع الكائنات إنما تتلقى وجودها وتقدمها وتطورها وتكاملها منه سبحانه .

بإمكاننا أن نسلك لمعرفة الخالق سبيلين أساسيين : أحدهما طريق الدلائل العقلية ، والأخر طريق البراهين الفلسفية ، بهذين السبيلين نستطيع من التوصل إلى تلك الحقيقة المطلقة ، وأن نكمل معرفتنا ونثبت عقيدتنا بها ، لكن طرق الاستدلال معقدة إلى حدّ ما ، وإنما تلذّ للعلماء فقط ، بينما المطالعة في أسرار كتاب الخلقة والموجودات المختلفة ، الكتاب الذي تشهد جميع صفحاته بضرورة مدخلية العقل العالي في خلقته ، مطالعة هذا الكتاب وإن كانت أيضاً برهانية للإيمان بالخالق الحكيم الذي ليس مجموع نظام الكائنات بكل عظمته وسعته إلاّ جزءاً ضئيلاً من مظاهر قدرته ، إلاّ أنها برهان ساذج وبسيط ليس فيه ثقل وتعقيد البراهين الفلسفية ، وهو من ناحية أخرى طريق مفتوح لعامة الناس ، فبإمكان جميع الناس من المفكرين والعلماء والعوام البسطاء أن يفيدوا منه .

بإمكان كل أحد أن يرى ـ حسب رؤيته واستعداده ـ في مظاهر الخلقة آثار التركيب والتوازن والتدبير ، وأن يجد في كل ذرة دليلاً قوياً ثابتاً على وجود مبدأ للحياة .

فلو طالع العامل العادي في بدن حيوان لأدرك ـ من النظر إلى أعضاء وخصائص الهيكل العظمي المنظم له وجماله الظاهر ـ أن من المحال أن تتحقق هذه المحاسبات والتقادير والأنظمة الدقيقة بدون مدخلية قدرة كبيرة عالمة ، وأما العالم الفيزيولوجي فإنه يرى آثار العلم والقدرة اللانهائية لتلك الحقيقة المطلقة من طريق إمعان النظر في كيفية أعمال القلب والرئتين والكبد والمعدة ، ووصول الغذاء إلى خلايا جسم ذلك الحيوان .

ومع أن ما يدركه العالم الفيزيولوجي من النظام المعقد ، في بدن الحيوان ، لا يناسب القياس مع ما يتوصل إليه الشخص العادي من مطالعته السطحية الساذجة والبسيطة ، إذ أن الإنسان بعد تسخيره لقمم العلوم وافتتاحه لمغاليق أسرار الطبيعة قد تقدم في معرفة الأنظمة المحيرة خطوات كبرى ، إلاّ أن لكلا هذين نتيجة واحدة من مطالعتهما المختلفة في نوعيتها .

إن العلوم التجريبية لمطالعة الأسرار اللامنتهية لعالم الطبيعة بالإضافة إلى إمكان استفادة كل أحد منها لها ميزة أخرى هي : أن معرفة عجائب الخلقة والنظام الخاص السائد في الطبيعة ، تصل بالإنسان إلى معرفة خالق الطبيعة بالإضافة إلى شطر من صفاته الكمالية ، كالعلم والقدرة اللانهائية له سبحانه .

إن هذا النظام الدقيق الذي هو عبارة عن تقرير العلاقة المناسبة والمعقولة بين أمور مختلفة ، يحكي لنا عن حكمته الواسعة وهدفه في ذلك في الحياة ، في الحيوانات في النباتات ، في الأرضين ، في السماوات والكرات ، في الصخور والبحور والذرات ، علوم وقدرات وبدائع مصنوعات مودعات في صغراهنّ وكبراهنّ على السواء .

إن فرضية أن يكون العالم الماديّ في حالة تكوين نفسي أي أن يكون في حالة مستمرة من صناعة نفسه بنفسه، إن هذه الفرضية مستحيلة علمياً، وأن النظرية الماركسية التي تقول: إن العالم المادي في تحول وتطور وتقدم دائم، إن هذه النظرة تخالف المعطيات العلمية والواقعيات الطبيعية، إن جميع التحولات والحركات في الجمادات إنما يكون بسبب قوة خارجة أو تبادل داخلي بين أجسام مختلفة، وفي عالم النباتات إنما يتحقق النموّ والتوسع والتكاثر بالأمطار وأشعة الشمس والتغذية من التربة، وكذلك الوضع في عالم الحيوانات بالإضافة إلى حركات إرادية ضرورية ومفيدة.

إن انسجام الأشياء والموجودات مع الجو الخارجي لها في هذه الموارد المذكورة واضح بيّن، وليس لأيّ موجود أن يعصي على القوانين والمعادلات الرياضية المفروضة عليه حسب الخواص المودعة فيه والآثار المترتبة عليه.

ولما يدركه الإنسان من الواقعيات عن طريق حواسه خصائص مختلفة:

فنحن نحسّ جيداً ـ من هذه الخصائص ـ أن موجودات العالم متغيرة متحولة غير ثابتة، وأيّ موجود ماديّ إما أن يكون في طول عهد وجوده سائراً نحو التكامل أو إلى الانحطاط، ولا شيء في عالم الوجود ثابت على حالة واحدة.

ومن خصائص الموجود المحسوس: المحدودية، إن الموجود المحسوس من أصغر الذرات إلى أكبر المجرات بحاجة إلى الزمان والمكان، إلاّ أن بعضها يشغل مكاناً أكبر أو زماناً أطول، وبعضها زماناً أقصر ومكاناً أقلّ.

ومن خصائص الموجود المحسوس: النسبية في أصل الوجود والكمالات، وإن كل ما تنسبه إليه من الصفات كالقدرة والعظمة والجمال والعلم فإنما هي من باب المقارنة والمقايسة بسائر الأشياء.

ومن خصـائص الموجـود المحسوس أيضـاً : التعلق والاشتراط فـأيّ موجود نفترضه نجده متعلقاً ومشروطاً بأمور أخـرى ، ولهذا فهـو محتاج إلى تلك الشروط التي تتعلق به ، ولا تجد شيئاً مادياً في هذا العالم يستنـد إلى نفسـه ويستغني عن غيره ، فـالفقـر والحـاجـة محيط بجميـع المـوجـودات المادية .

إن العقل والفكر الإنساني الذي يعبر حجاب الظواهر وينفذ إلى أعماق بطونّ الوجود ـ على خلاف الحواس ـ لا يستطيع قبول حصر الوجود في أمور نسبية محدودة متغيرة محتاجة ، بل إن قوة الفكر الإنساني تحسّ جيداً ، ـ إن صحّ التعبير ـ بضرورة وجود حقيقة دائمة مطلقة غنيـة خلف ظواهـر الوجـود تكون مستنداً لجميع الوجودات المحدودة ، حقيقة حاضرة في جميع الأزمنة والأمكنة ، وإلّا فإن العالم بأجمعه لا يستطيع أن يقف على قدميه بنفسه ، بل حتى على اشتمال صفة الوجود .

فالعالم بحاجة إلى حقيقة مستقلة ، غير مقيـدة ، وغير معلقـة ، وغير مشـروطة بغيـرها ، هي تمسـك بزمام الوجـود في جميع الأمـور المحدودة والمشروطة والنسبية ، وإن كل شيء يحتاج إلى أن تملأ هذه الحقيقة المطلقة كيانه بالوجود والحياة ، وفي كـل موجـود ظاهـرة من الحياة والعلم والقـدرة والحكمة المطلقـة لتلك الحقيقة ، وبهـذه الظواهـر وفي حدودهـا نستطيـع الحصول على معلومات قيمة عن تلك الحقيقة ، ولكل إنسان ذكيّ مستطلع أن يجد الدليل من هذا الطريق على وجود الخالق .

* * *

المادة وقوانين الوجود

إن التلازم المتقابل بين المادة وقوانين الوجود ، لا يمكن أن يكون دليلاً على غنى المادة ، بل إن تنوع المنشآت من المادة ، وارتباطها الشديد بعضها ببعض يثبت أن المادة في وجودها ، لا بدّ لها من تبعية سنن وقوانين تسلك بها سبيل النظم والانسجام ، فإن الوجود يستند إلى عنصرين أساسيين هما : المادة والنظام ، ولا بدّ بينهما من الارتباط الوثيق ، وإن العلم المنسجم والمتوازن إنما هو وليد هذه العلاقة الوثيقة بين المادة والنظام .

إن الذين يرون أن المادة غنية ، ويظنون أنها هي التي وجدت لنفسها هذا النظام والغنى كيف يقبلون أن تكون ذرات الهيدروجين والأوكسجين والالكترون ، والبروتون ، وجدت نفسها بنفسها ثم أصبحت منبعاً لوجود الموجودات الأخرى ، ثم صدّرت لنفسها القوانين التي تحكمها وجميع العالم الماديّ ؟.

إن المادية ترى أن الموجودات البسيطة الدانية تصبح منابع للوجودات العالية المعقدة ، دون أن تتوجه إلى أن المادة التي تعجز في أوج كمالها أي في حالة التفكير العلمي ، عن إيجاد نفسها أو العصيان على قانون من القوانين الحاكمة عليه ، فهي قطعاً أعجز عن إيجاد نفسها أو النظام الوجودي حال كونها بسيطة دنيئة ، فكيف يمكن القول بأن المادة الدنيئة تخلق

الموجودات العالية ، وأن يكون لها القدرة على إعطاء الحياة لظواهر أكمل ؟ .

وقد تحقق في علم الأنظمة الجديد : أن الأنظمة المركبة من عناصر حية ذات هدف ، أو الأجهزة المنظمة على أساس برنامج معين ، يمكن أن يكون لها تحوّل متكامل ، إلاّ أنه لا بدّ لها من إمداد خارجي ولا قدرة لها على تطوير نفسها بنفسها ، وأن مواد العالم ما لم تتصف هي بالإرادة والقدرة والشعور ، فلا قدرة لها على إيجاد وإدارة جهاز منظّم متحرّك متطوّر .

إن قانون حساب الاحتمالات و(الانتروبي) يقرر : أن الحركة الجماعية غير المنظمة ، لا يمكن أن تزيد إلاّ تفرقاً وتشتتاً وتقدّماً نحو الهلاك والدمار .

إن قانون الاحتمالات يردّ وجود العالم بالصدفة ، بصورة قاطعة ويرى ذلك من غير المعقول ، وغير الممكن ، إن قانون الاحتمالات الرياضي يؤكد على لزوم قيادة صحيحة للعالم وضرورة برنامج دقيق لإدارته .

إن قانون الاحتمالات يشكل في الواقع صفعة على أفواه القائلين بالصدفة الوجودية ، إذ لو فكرنا في وقوع الصدفة لنظام ساذج بعدد قليل ، لم تكن من غير الممكن ، وإن كانت بعيدة عن الواقع ، ولكنه لا يمكن القول بالوصول إلى صدفة هندسية منظمة تحكي عن انسجام وتوازن متين لهذا النظام العالمي المعقد ، وأن التغييرات الجزئية والساذجة لنظام الوجود لا يمكن أن تكون دليلاً على تغييرات العالم ، وتركيب الذرات فيه لتشكيل هذا التركيب المنسجم المتوازن .

لو كانت الطبيعة في تطوّر وتكامل وتركيب متجدد فلماذا لا تبدي من نفسها اليوم جديداً في التغيير والتطوّر ؟ ولماذا هي متوقفة اليوم عن التحولات الأوتوماتيكية العميقة ؟ .

إن الحوادث الساذجة البسيطة والجزئية منها تؤدي إلى إيجاد صور

محيرة منسجمة ومتناسبة مع أهداف الخلقة ، وهذا بنفسه يدلنا على أن هناك خلف هذه التطوّرات المحيرة قوّة عالمة قادرة هي التي أبدعت هذا النظام المعجب للكائنات ، وهي وراء هذا التطوّر العجيب لعالم الطبيعة ، وهي التي ترسم هذا النظام للوجود .

إن هذا الانسجام والترابط الوثيق بين الملايين من ظواهر الطبيعة والعلاقة بينها وبين ظاهرة الحياة في الأحياء ، لا يمكن أن يفسر تفسيراً معقولاً إلّا بصورة واحدة ، هي : أن نفترض لهذا النظام العظيم خالقاً هو الذي قرر هذه العناصر المختلفة في هذه الكرة الترابية ، بقدرته غير المحدودة واللامنتهية ، ونظم برنامج كل عنصر من هذه العناصر ، وهذه الفرضية تطابق كل ما في ظواهر هذه الطبيعة من ارتباط وانسجام وتوازن .

أما إذا لم نقبل هذه الفرضية ، فهل يمكن لنا أن نحتمل ظهور هذا الانسجام بين أنواع الظواهر البديعة بصورة صدفة غير مستهدفة ؟ وكيف يمكن القول بتساوي هذا الافتراض مع افتراض خالق مستهدف مدبّر عالم مطلق ؟

لو لم يكن وجود لهذا العالم بما فيه من عجائب تحيّر العقول ويعجز العلم البشري عن درك أوضاعه المحيّرة ، وكانت الدنيا تتلخص في موجود ذي خلية واحدة ، حينئذٍ كان احتمال وجود هذا الموجود الحقير ونظمه صدفة على أساس حساب الاحتمالات طبقاً لمحاسبات (شارل أوزن كوى) يعطي رقماً رياضياً لا يقدر الفكر الإنساني على استيعابه .

يقول (باشميل) . « أنتم الماديّين تعترفون بحركات ودوران الشمس ، والأرض وسائر المجموعة الشمسية ، وتعترفون أيضاً بالدقة الرياضية غير المتخللة في هذه الحركات ، وتذعنون ـ كما تزعمون ـ بعدم وجود يد مدبّرة خلف هذه الحركات والمتحركات الكبيرة ، والعظيمة ، والدقيقة المحكمة والمنظمة ، فلا بدّ لكم من أن تقولوا بأن المجموعة الشمسية هي التي أوجدت نفسها بنفسها وجعلت لها هذا النظام المعقد الذي

تتحـرّك هي على أساسـه ، ثم هي التي جعلت لنفسها جهـاز سيـطرة دقيق يحجزها عن الاصطدام أو الانحراف عن مسيرتها وعن عروض مانعٍ أو رادع لها في خلال حركتها بهذه السرعة المذهلة في الفضاء ! أنا شخصياً لا أقبل أن يدعي إنسان هذه الدعوى ، وهو يدّعي لنفسه الحرمة والكرامة » .

توازن وانسجام في الطرفين

إن جميع أجزاء الوجود والموجودات ، تتبع في تركيبها الداخلي وفي علاقاتها بعضها مع بعض نظاماً متيناً ، فإن تركيبها وعلاقاتها منظمة بحيث تساعد كل منها الأخرى في أهدافها وغاياتها وخطوطها ، وبذلك يتمكن كل موجود من السير نحو الهدف والمقصد المعين له بالإفادة من علاقته بسائر الموجودات ، وبتأثيره وتأثره المركوز في تركيبه الخاص .

إن أهم ما تقوم به العلوم المادية هو التعرف على ظواهر وكيفية تركيب هذا العالم ، أما التعرّف على ماهية وحقيقة المخلوقات والظواهر فذلك خارج عن متناول هذه العلوم .

فمثلاً غاية ما لعالم فلكي من الفنّ العلمي هي أن يعرف الكرات الكثيرة في الفضاء الثابت بعضها نسبياً، والدائر المتحرّك بعضها الآخر ، ويعرف كيف أن قوة الجاذبية تمنعها من اصطدام بعضها بالآخر ، وتصون توازنها فيما بينها . ويقيس الفواصل بينها وبين الأرض وسرعة حركتها ومقدار حجمها بالمقاييس العلمية ، إلاّ أن نتائج هذه المعرفة والتجارب لا تتجاوز تفسير ظواهر الخلقة ، فإن التجربة تعجز عن درك حقيقة قوة الجاذبية وماهية الجاذبية المركزية وكيفية حدوثها وخلقة هذا الجهاز العظيم .

إن العلماء الطبيعيين ، يفسرون السيارة أو الماكنة من دون أن يعرفوا

تفسير القوّة المحرّكة لهذه السيارة أو الماكنة ، ولهذا فإن العلوم الطبيعية لا تستطيع أن تفسّر وتحلّل ملايين الحقائق ، المودعة في الطبيعة والنفس الإنسانية ، إن هذا الإنسان الذي توصل حتى إلى باطن الذرّة بقي متحيراً أمام الأسرار المعقدة والغامضة لذرة حيوية ، وأخيراً عجز أبطال العلوم الطبيعية عن تسخير وفتح هذه الغوامض المعقدة .

* * *

إن من عجائب الخلقة ذلك الانسجام والتوازن المتبادل بين ظاهرتين من ظواهر الطبيعة غير متعاصرتين ، إن هذا الانسجام هو على نحو التطلع والتهيؤ في جهاز ظاهرة سابقة لحاجات ظاهرة قادمة بعدها .

وبإمكاننا أن نرى أحسن نماذج هذا الانسجام بين الأم وجنينها . إن الأم سواء في الحيوان أو الإنسان تبدأ هرمونات الحليب لديها بالعمل بمحض بدء الحمل لتحضير أعذب غذاء وأجمعه للطفل مجارية لنموّ الجنين في الرحم حتى يوم الميلاد ، فكلما ينمو الجنين تزداد كمية هذا الغذاء عند الأم ، حتى إذا تهيأ الجنين للدخول إلى هذا العالم الكبير كانت هذه المواد الغذائية المناسبة لجميع حاجات الجنين الجسمية محضرة تماماً .

إن هذا الإنتاج المحضر منسجم تماماً مع مدى قدرة جهاز الهضم لدى الطفل ، وهو مدّخر في مخزن مناسب مستور هو ثدي الأم الحنون ذلك المخزن المعبأ في وجود الأم ، قبل تركيب جسد الجنين في رحم الأم بأعوام عديدة ، ولتيسير أمر تغذية الوليد ثقب موضع الإفادة من هذا المخزن بثقوب صغيرة ظريفة ملائمة لفم الوليد كي لا يدخل الحليب إلى فمه بحيث لا قدرة له على استيعابه ، وكي يقدر الطفل على امتصاص ما يخرج منه .

وكلما نما الطفل حصلت في الحليب تغييرات مناسبة لسنّ الوليد ، ولهذا يرى علماء الطب والصحة أن رضاع الوليد الجديد من امرأة ولدت قبل مدة كثيرة ليس رضاعاً مناسباً .

وهنا يطرح هذا السؤال نفسه علينا : هذا التخطيط السابق على أوانه في جسد موجود لرفع حاجات موجود آخر في المستقبل ، ألا يعدّ عملاً معدّاً على أساس من الدقة والتدبير ؟ وأليس هذا التخطيط للمستقبل والظرافة في العمل ، والانسجام المحيّر بين موجودين من عمل قادر عالم على الإطلاق ؟ وأليس سمة بارزة على تأثير قدرة مطلقة في الكون من مخطط يهدف إلى استقرار الحياة واستمرارها وتطورها ؟ .

إن المحاسبات الدقيقة التي نراها في جميع الوحدات المكانيكية ، والصناعية نعلم بوضوح أنها إنما هي نتائج أفكار عملت في سبيل تنظيمها وتركيبها ، وبموجب نفس هذه المشاهدات العينية نستطيع الوصول إلى نتيجة كلية فلسفية هي : كلما وجد نظام تركيبي على أساس من الحساب والموازنات الدقيقة ، كان علينا أن نفتش خلفه عن عقل وفكر وإرادة .

إننا نجد في الموجودات الطبيعية تركيباً وتأليفاً أدّق وأعجب مما نراه من الدقة الخاصة في الوحدات الصناعية ، بل إن التدبير المشهود في الطبيعة على مستوى عال غير قابل للمقارنة والمقايسة بدقائق المصنوعات الإنسانية ومنتوجات الأفكار البشرية .

إننا حينما نجد ـ من دون شك أو ترديد ـ نظامنا الصناعي نتائج أفكار وإرادات ، ألا ينبغي لنا أن نرى العقل والإرادة والعلم اللانهائي من نافذة الهندسة والمحاسبات الدقيقة في الطبيعة ؟

* * *

ظاهرة طبيّة تستحق التقدير

إن علم الطبّ في العصر الحاضر بلغ مرحلة من التقدّم يتمكن فيها على إخراج كلية من جانب إنسان ، ووضعها في جانب إنسان آخر قد سقطت كليته عن العمل وهو في طريقه إلى الموت ! إن هذا التقدّم الطبّي ليس نتيجة عمل طبيب واحد لوحده ، بل إنما هو تراث طبي قد تعود أصوله إلى مئات بل آلاف السنين ! إذن فعملية إيصال الكلية الموضوعة إنما هي نقطة في الواقع في آخر جملة طويلة ، قدم لها العلماء السابقون المقدّمات ، والخلاصة : إن أفكار العلماء في مئات بل آلاف السنين لا بدّ أن تتراكم شيئاً فشيئاً كي تصل في النهاية إلى عملية جراحية ناجحة في الكلى

وهنا نطرح هذا السؤال : هل أن تبديل إطار مطّاطي معطوب لعجلات سيارة ركاب بإطار سالم يحتاج إلى مهارة وعلمية أكثر أم صنع نفس الإطارات المطاطيّة لعجلات السيارات ؟ وأكرر : هل أن صنع عجلة مطّاطية أهم أو تبديل مكانها أو معطوبها بسالمها ؟ .

إن تبديل كلية إنسان مهما كان مهماً في عالم الطبّ ، والعلاج والعمليات الجراحية ، لم يكن في المثل بأكثر من تبديل عجلات السيارات فليس لتبديل الكلية أمام صنعها وأسرارها ودقائقها ومحاسباتها العجيبة أيّ قيمة تذكر ! .

من هو ذلك العالم الواقعي الحق ، الذي يتمكن أن يقول : إن تبديل كلية بكلية نتيجة معرفة بشرية لآلاف الأطباء في طول قرون متمادية ، ولكن صنع نفس الكلية ليس مظهراً لذلك العقل الخلاّق ، بل هو من نتائج الطبيعة التي ليس لهـا من العلم والوعي حتى بمقـدار طفل في الابتـدائية ؟! أليس تصور وافتراض وجود عقل مدّبر لخلقـة الطبيعـة ونظامهـا أقرب إلى العقـل والمنطق من افتراض خالقية المادة الفاقدة للعقل والشعور والوعي ، والتي لا ابتداع لها ولا اختراع ؟! .

لا شكّ أن الإيمان والاعتقاد بحكمة الخالق أقرب إلى العقل والمنطق من الإيمان بالمادة غير المدركة وغير الواعية التي لا تستطيع أن تقدّر وتدّبر ، إذ لا نتمكن نحن أن نهب كـل تلك الخصـائص والأوصـاف العقليـة التي يحملها هذا العالم لخالقه وأهمها التدبير والإرادة ، نحن لا نتمكن أن نهب هذه الأوصاف للمادة .

كتب (آنشتاين) في كتابه[1] يقول : « إن العالم المصلح يعتقد بقانون العليّة لعالم الوجود ، ولكن ما هو مذهب هذا العالم ؟ إن مذهبه تحيّر غريب من النظام العجيب والدقيق لهـذه الكائنـات ، هذا النـظام الذي قـد ترتفـع الأستار عن بعض الأسرار بحيث لا يعـدّ جميع المسـاعي والأفكار البشـرية المنظمة إلا كصور باهتة لذلك النظام الدقيق » .

* * *

---

(١) الدنيا التي أراها (بالفارسية) .

الطبيعة وفنونها الجميلة

انظروا إلى حشرة الملاريا ، ولا يجب أن تمتلكوا لذلك الميكروسكوبات ، بل إنكم ستصلون إلى ذلك النظام الدقيق والمعقد الموجود في هذه الحشرة الصغيرة بنفس هذه النظرة العادية بالعين المجرّدة .

إنكم سوف تجدون الأجهزة والأدوات والوسائل اللازمة والظرافة العجيبة في بواطن وظواهر هذا الموجود الظريف الضعيف ، من جهاز الهضم والدورة الدموية والجهاز العصبي والتنفس ، ولديه مختبر جاهز سريع ودقيق ، والآن نسأل : كم هو حجم مختبركم الكبير ؟ وكم صرف في تكوينه من الطاقات الإنسانية والفكرية والاقتصادية ؟ .

والآن قايسوا بين مختبركم ومختبر هذه الحشرة الصغيرة ، إنه ليس لمختبركم ما لمختبر هذه الحشرة من الدقة والسرعة والظرافة ، وكم تصرفون أنتم في مختبركم من الزمان والأفكار والطاقات البشرية حتى تصنعوا عقاراً لعلاج لسعة هذه الحشرة ؟ .

حينما تحاولون أن تصنعوا شيئاً كم يجب عليكم أن تصرفوا له من الفكر والمراقبة ؟ أفحينما ترون في هذا العالم المصنوع هذا النظام الحكيم بهذه الدقة والظرافة ، ألا يكفي ما ترونه من الإبداع العقلي الخلّاق سنداً على الحكمة الإلهية البالغة ؟! .

أئذا ما حسبنا هذا العالم بكل ما فيه من هندسة ودقة وحركة منظمة وليد مادة جاهلة ، كان ذلك معرفة علمية ؟! بل إن هذه الظواهر إنما تفصح عن النظام والانضباط لا عن اللاهدفية العمياء .

إننا إذا ما رأينا أحياناً نقاطاً من الضعف في الطبيعة لم يكن ذلك دليلاً على النقص في كتاب الخلقة الإلهية ، بل إنما نحن نرى تلك النقاط لعجز إدراكنا وأفكارنا عن التوصّل إلى الغايات منها ، ولقصر في أفهامنا عن معرفة الأسرار ورموز عالم الوجود .

أئذا ما عجزنا عن معرفة وظيفة مسمار لولبي خاص في جهاز كبير هل يحق لنا أن نتهم مهندس ذلك الجهاز بالجهل ؟ أم أن ذلك من ضيق رؤيتنا حيث لا قدرة لنا على معرفة الهدف من تلك اللولبة ؟ .

أفيمكن للصدفة أن تعمل عمل العلم ؟ عملاً لا تشوبه أيّ شائبة من جهل أو ريب ، لو كان عالم الطبيعة مخلوقاً من غير إرادة عالمة ـ كما يزعم الماديّون ـ فلماذا الإنسان للتقدّم في مهامه يصرف طاقاته في سبيل الاستزادة من العلوم ، ولماذا لا يجاري الطبيعة فيستزيد جهلاً ؟! إن الحقيقة التي تقود وتهدي كل هذه الأفعال والانفعالات الكونية المنظمة اللانهائية لا يمكن أن ينكر منها الهدف والإرادة ، وأن يظن أن حدوث هذه الأفعال والانفعالات المتسلسلة يتحقق بدون أيّ تنظيم إراديّ إلهيّ .

سنون من المساعي المتعبة من قبل علماء الكيمياء وآلاف البرامج العلمية الدقيقة إنما استطاعت أن تصل بهم إلى تركيب عدد من المواد الكيمياوية الآلية التجريبية الساذجة البدائية التي لم يكن فيها أيّ أثر من الحياة بالمعنى المعروف .

ومع ذلك عدّ هذا انتصاراً علمياً موفقاً وقيماً لهؤلاء العلماء واستحق تحسين وتقدير المحافل العلمية ، ولم يدّع أحد منهم أن هذه التركيبات البدائية الناقصة التجريبية إنما حدثت على أساس الصدفة من دون برنامج

دقيق موجه ، في حين أن جماعة من نفس هؤلاء العلماء ـ الماديين ـ ينسبون جميع الموجودات والأجهزة المعقدة فيها وأسرارها إلى عوامل عمياء مادية ! الحقيقة والواقع أن هكذا أسلوب من الفكر ليس إلاّ ظلماً للعقل والمنطق والفكر وعداء للحقيقة .

أمعنوا النظر في عمل مرتبي الحروف في المطابع كيف يجيدون النظر في ترتيب حروف صفحة من كتاب ثم يعثرون على أغلاط جزئية نسبياً حينما يجدّدون النظر فيها للتصحيح ، فلو كان مرتّب الحروف بدل أن يرتب الحروف بالترتيب الدقيق يأخذ حفنة منها فينثرها على الصفحة ، أفهل يمكن أن تظهر لنا من هذا العمل صفحة منظمة من حيث الحروف والكلمات والمعاني بدون أيّ غلطة ؟! .

وأوهى من هذه الدعوى من يقول : خرج بالدفق مئة كيلو من الرصاص الذائب من فوهة حديدية وجدت منها حروف ،ثم ترتبت هذه الحروف على صفحة معدنية بترتيب خاص منظم على أثر عاصفة هوجاء ، وعلى أثر ذلك وجد لنا كتاب في ألف صفحة فيه مباحث علمية دقيقة بأسلوب عذب وجذاب من دون أي غلط ؟! .

أفهل يمكن لأحد أن يدافع عن هذه الفكرة ؟! .

فماذا يقول الماديون بشأن ظهور هذه الصور المختلفة والمتنوعة من حروف هذه الطبيعة ، وبشأن العلاقات المعقدة والدقيقة السائدة على الكرات السماوية والموجودات الطبيعية وجميع المواد السابحة ؟! .

يقول عالم الأحياء والبيئة المعروف : (رذر فورد) : « إن تحقق الصدفة لتجمع ذرات الكاربون والأوكسجين والأزوت والهيدروجين لتركيب وحدةٌ بروتينية غير قابل للتصور ، كما هو الشأن فيما إذا نشرنا في الفضاء رزمة من أوراق اللعب ثم قلنا إنها ترتب على الطاولة منتظمة من حيث النجوم والألوان ! هذا محال قطعاً ، وحتى لو تكرر هذا العمل لمرتين في طول تأريخ

البشرية في ثانية واحدة لم يكن من الممكن تحقيق الصدفة فيما مضى »[1] .

هل أن حروف التكوين (الذرات ومركباتها) أقلّ أهمية من حروف المطابع ؟ وهل يمكن الإذعان بأن هذه الحروف الطبيعية المنظمة والهادفة بهذه الهندسة الدقيقة وهذه الصور المحيِّرة لكتاب الطبيعة كلها وليدة مادة جاهلة غير هادفة ؟! وليس في هذا الوجود قدرة قاهرة حكيمة منظمة ؟! كلا بل إن جميع ظواهر الوجود إنما هي مصنوعة لتلك القدرة الشاعرة والواعية في الطبيعة الحية .

إن هذه القوة المودعة في باطن المادة لو لم تكن أثراً من ذلك العقل الحاكم على العالم فما الذي يهدي هذه المادة إلى الانضباط والانسجام المحيِّر ؟! .

لو كانت تلك القوة غير مريدة وغير واعية فلماذا لا تصل إلى مرحلة غير منظمة ؟ ولماذا لا تجر تركيب هذه المواد إلى الاصطدامات المحطمة ؟ .

إن الإيمان بالخالق يعطي المعنى لجميع هذه الموجودات ، ويهب المعنى لجميع هذا العالم ، وإن أولي الألباب والأفكار العميقة يدركون أن هناك قدرة مطلقة عظيمة للغاية تحكم هذا الوجود وتحفظ نظامه عن الانفراط .

* * *

(١) معارف دنيا العلم (بالفارسية) .

تصوّر الموجود المطلق

كان كل إنسان في القديم يقود مركوبه بنفسه ، وكان قد اعتاد في طول الأدوار المختلفة على أن يرى صاحب كل ملك أو مزرعة أو مؤسسة أو إدارة حاضراً مشتغلاً بعمله ، وقد تغيّر الوضع في هذا الزمان ، فقد توصل الإنسان اليوم إلى الأقمار والماكنات الالكترونية الأتوماتيكية والطائرات من دون طيار ، ويعلم كل أحد أنه بالإمكان اليوم صنع جهاز مجهّز يبرز ردود فعل متناسبة أمام الحوادث من دون أن يرى صانعه أو يعرف .

وعلى هذا فلا حقّ لنا أن ننكر الخالق لأننا لا نرى يده في الأمور والأشياء لقصر في أفكارنا ومعارفنا .

إن صانع القمر المصنوعي أو الصواريخ يهدي وينظم سيرها من داخل المحطّات الأرضية المجهزة بوسائل الأجهزة الجوية المعقدة ، إن يد الله في الطبيعة وإن كنا لا نراها بأعيننا الظاهرة ، لكن مع ما نشاهده من الظواهر والآيات البيّنات التي هي من آثار عظمة خالق العالم وصانع الإنسان ، هل بإمكاننا أن ننكر مدبّر هذا العالم الذي له القدرة والإرادة المطلقة والمنظم لجميع حركات هذا العالم ؟! .

صحيح أن إمكاناتنا لمعرفة وجود لا مثال له في عالم الحسّ والشعور والذي تقصر التعبيرات البشرية عن وصفه الدقيق ، إمكاناتنا محدودة ،

ومصباحنا لإضاءة هذا الطريق باهت ، وتتراجع أضواؤه مصطدمة بجدران المحدوديات المادية .

إن علاقاتنا نحن إنما هي بظواهر الحياة ، والذي يرتسم في أذهاننا هو عين من أعيان هذا العالم ، إلاّ أننا لسنا عاجزين عن معرفته وتصوره بصورة من الصور ، وليس بيننا وبين المعرفة اللازمة سدود وموانع .

إن بعض المشككين المعرضين عن التفكير السالم النابع عن الفطرة السليمة والمتعودين على الآثار الطبيعية ، ينتظرون كل حين وقوع المعاجز من جانب الله تعالى فاطر هذا النظام الجاري ، لكي تهب المعجزة إيماناً لهؤلاء ، ولكي يذعنوا بوجود الله .

ويغفل هؤلاء عن حقيقة : أن الآثار الجديدة التي تبدو من قبل الله سبحانه تصبح بعد مدة قصيرة عادية طبيعية بحيث لا تجلب أيّ انتباه أو دقة ، إن جميع الظواهر وإن كانت أجزاء من نظام الطبيعة إلا أنها كانت في بدايتها من خوارق نظام الطبيعة ، ولكنها حيث تكررت كثيراً في صعيد العالم أصبحت عادية طبيعية .

بينما الوجود غير المرئي وغير المحسوس المليء بصفات الجلال والجمال والقداسة والعظمة ، هكذا وجود يجعل النفوس دائماً تحت تأثيره ويجذب إلى نفسه كل اهتمام وتوجّه ، ويجعل الإنسان دائماً ينظر إليه ويأمل منه كل شيء ، إن تسلط روح اللجاج والحكم غير المنطقي هو الذي يقيد الإنسان بسلاسل المحدودية ، وإلاّ فإن أيّ موجود في نظام الوجود كافٍ لإقناع أولئك الذين يفرغون عقولهم من فكرة اللجاج والمكابرة والإنكار غير المبرهن .

يقول الدكتور (المرو مورد) المحقق والكيمياوي المعروف : « أنا كرجل كيمياويّ أعتقد أن الله يراقب ويحافظ على العالم دائماً ، وأن دوام وثبات القوانين الطبيعية نتيجة لهذه المراقبة الإلهية ، أنا حينما أدخل إلى

المختبر أعلم من دون أيّ شكّ أو ترديد أن القوانين التي كانت ثابتة يوم أمس ، لا تزال ثابتة اليوم وبعد اليوم إلى يوم القيامة ، وإلاّ فإن حياتي في المختبر لا تكون إلاّ حياة حيرة وشكّ وقلق واضطراب ، ولم نحصل على أيّ نتيجة أبداً ، فمثلاً لو ملأت إناء ماء قراحاً وجعلته على النار وفار علمت أن حرارته بلغت المئة درجة (سانتيغراد) ولا حاجة في ذلك إلى المقياس ، إذ أعلم أن ضغط الجو إذا بلغ (٧٦) سانتيمتراً بالنسبة إلى الزئبق فار الماء بدرجة مئة (سانتيغراد) وإذا لم يبلغ ضغط الجو (٧٦) سانتيمتراً على الزئبق كانت الحاجة إلى حرارة أقل لغليان الماء وتبدله بالبخار ، وكانت درجة الحرارة للغليان أقل من المئة ، وإذا كان ضغط الجو أكثر من (٧٦) سانتيمتراً على الزئبق صعدت درجة الحرارة أكثر من مئة درجة .

ولي أن أكرر هذه التجربة كلما أردت ، وإن علماء الكيمياء حينما يجرون هذه المقايسة بين الضغط والحرارة بذكائهم في أعمالهم اليومية تزيد في حيرتهم .

وكذلك الأمر بالنسبة إلى سائر القوانين الطبيعية ، والمنطق المستقيم يقتضي أن يكون هناك وجود مدبّر أوجد هذه القوانين وهو الله سبحانه ، إن الاعتقاد بوجود خالق للعالم هو الجواب الصحيح الوحيد على خلقة هذه الطبيعة ونظامها الثابت والمستمر »[1] .

* * *

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٢٣٩ (بالفارسية) .

أما مبدأ الوجود فهو غني عن علة لوجوده

إن أتباع المذهب المادي يبدون حساسية خاصة بـالنسبة إلى غنى الله عن العلة الوجودية ، ويقولون : إذا نحن أذعنّا أن يكون الله هو واجب الوجود في العالم وأن الموجودات تستمد وجودها منه سبحانـه ، فما هي العلة التي أغنته عن الخالق ؟ وبالتالي ما هي علة وجوده .

قال (برتراند راسل) في إحدى خطاباته في جلسة لجمعية وطنية لندنية غير دينية : « في سنّ الثامنة عشرة كنت أقرأ حياة (استوارت ميل) المكتوبة بقلمه ، جلبت انتباهي جملة لميل يقول فيها : « لم يجبني أبي على سؤالي إذ ذاك : من الذي خلقني ؟ » ، لأنه كـان قد طـرح سؤالاً آخر هـو : « من الذي أوجد الله » . ثم أضاف راسل يقول : كذلك اليوم أنـا أفكر في هـذه الجملة الساذجة ، وأراها أنها أبدت السفسطة في بيـان العلة الأولى ، فكما أن لكل شيء علة وسبباً ، لا بدّ لوجود الله أيضاً من علة ودليـل ، ولو أمكن لشيء أن يكون بلا دليل ولا علة لأمكن أن يكون هـو الله أو العالم ، وعلى هذا فالبحث عن الله يفقد اعتباره »[1]

---

(١) لماذا لست مسيحياً /ص ١٩ (بالفارسية) .

وقد عجز حتى بعض الفلاسفة الإلهيين الغربيين عن حلّ هذا المعضل ، يقول (هربرت اسبنسر) الفيلسوف الانجليزي : « المشكلة هي أن العقل البشري يفتش لكل أمر عن علة وهو يرى استحالة الدور والتسلسل ، ولا يرى علة بلا علة ولا يفهمها ، كما يقول القسيس للأطفال : إن الله هو الذي خلق هذه الحياة الدنيا ، فيسأل الطفل : فمن خلق الله ؟ »[1] .

وكتب في مكان آخر يقول : « إن الدهريين يحاولون أن يقولوا بأن العالم قائم بذاته بلا علة ، ولكننا لا نتمكن من الإيمان بشيء بلا علة وبلا أول ، والموحد يخطو في هذا خطوة واحدة إلى الوراء ويقول : إن الله هو الذي خلق العالم ، والطفل يسأل سؤالاً آخر لا جواب له ، هو : من الذي خلق الله ؟ »[2] .

ونحن نردّ هذا الإشكال إلى نفس الماديين ونسألهم : لو تتبعنا سلسلة العلل وصلنا إلى العلة الأولى ، ولا نقول : هي الله تعالى ، بل هي المادة كما تقولون ، فقولوا : من الذي خلق المادة الأولى ؟ .

أنتم المذعنون بقانون العلية أجيبونا : كل شيء من المادة الأولى ، وهي من أين ؟ .

تقولون : إن مبدأ الحوادث يرجع إلى المادة والطاقة الأولى .

ونسأل : ما هي علة وجود تلك المادة والطاقة الأولى ؟ ومع النظر إلى استحالة تسلسل العلل والمعاليل إلى ما لا نهاية لا جواب لهم إلاّ أن يقولوا : إن المادة موجود أزليّ أبديّ لا حاجة لها إلى علة ولا أول لها ولا آخر ، هي قديمة لا نهاية لها ، ووجودها من طبيعتها وماهيتها .

إذن فالماديون يذعنون بأصل الأزلية ، ويعتقدون بأن الأشياء كلها من

---

(١) سير الحكمة في أوربا : ص ١٦٢ (بالفارسية) .

(٢) تاريخ فلسفة ويل دورانت/ ص ٤٦٧ ـ ج ٢ . (بالفارسية) .

المادة الأزلية ، وأن الوجود من طبيعتها ، من دون أن تكون هي بحاجة إلى موجد خالق .

ويصرح (راسل) بهذا في خطابه الآنف الذكر ويقول : لا دليل لنا على أن يكون لهذا العالم مبتدأ وأول ، بل إن التفكير في أن يكون للأشياء مبتدأ إنما هو من نقص في قدرة تصوراتنا[1] .

كما أن (راسل) يرى أن المادة أزلية ، كذلك يقول الإلهيون بأزلية الله سبحانه ، إذن فالقول بوجود الأزلية نقطة مشتركة بين الفلاسفة الماديين والإلهيين ، وكلتا الطائفتين تذعنان بضرورة العلة الأولى ، إلاّ أن نقطة الخلاف هي أن الإلهيين يرون أن العلة الأولى حكيم مدبّر قادر ومريد هو الله سبحانه ، بينما يرى الماديون أن العلة الأولى لا عقل لها ولا وعي ولا إدراك ولا إرادة ، إذن فرفع اليد عن القول بالله لا يرفع الإشكال .

إن المادة متغيرة متحركة بحركة داخلية ذاتية ديناميكية ، والأزلي لا يمكن أن يكون كذلك ، إن المادة لا يمكن أن تجتمع ومعنى الثبوت الذاتي ، والثابت بالذات لا يمكن أن يكون متحركاً ومتحولاً .

إن الماركسيين المعترفين بأن المادة تنفي نفسها بنفسها (آنتى تز) كيف يجمعون بين هذا وبين أزليتها ؟ إن الأزلية تعني الثبوت الذاتي وامتناع الفناء في حين أن المادة في ذاتها ذات قوى واستعدادات نسبية تحيى وتموت ، إنّ الأزلية لا تلائم المادة في وجودها ولوازم ماهيتها ، أما الإلهيون فإنهم حينما يقولون بوجود أصل ثابت مطلق إنما يدّعون ذلك لوجود قابل للثبات والإطلاق بعيد عن خصائص المادة بالمرة ، لا للمادة غير القابلة بطبيعتها للبقاء والأزلية والدوام والتي لا تنفك عن الحركة والنسبية والمنافية بذاتها للكمال والإطلاق التام .

* * *

(١) لماذا لست مسيحياً : ص ٢٠ (بالفارسية) .

الموجود الفقير يحتاج إلى علّة

نحن حينما نقول : لا يمكن وجود موجود بدون علة ، إنما نعني ذلك الموجود الناقص الذي مصيره وبقاؤه بيد علته، لاكل موجود؛حتى ولو كان واجداً لواقعيته من نفسه ولم يكن فيه أيّ ظاهرة من ظواهر النقص والمحدودية .

إن العلة الأولى إنما كانت علة أولى من حيث إن وجودها كامل غير محدود ، وغير متأثر بأيّ عامل من العوامل ، بل هو وجود غير مشروط وغنيّ عن كل علاقة ورابطة ، ولا أثر فيه للتغيير والتحوّل .

وليس معنى كون الله علة أولى غنياً عن علة أن يكون مساوياً لسائر الموجودات من حيث الحاجة إلى العلة ، ولكنه خرج عن قانون العلية استثناء وتخصيصاً ، إذ ليس هو معلولاً كي يحتاج إلى علة ، وليس حادثاً حتى يحتاج إلى محدث ، بل إنّ جميع الصور والظواهر والحوادث هي من ذلك الموجد الأزلي ، إنّ قانون العلية إنما هو نافذ بالنسبة إلى الموجودات المسبوقة بالعدم .

وكذلك ليس معنى العلة الأولى أنها هي التي أوجدت نفسها بنفسها ، وأنها هي علة نفسها ، إن سبب حاجة المعلول إلى العلة إنما يتبع نوع وجوده وكيفيته ، إن الموجود لا يحتاج إلى علة لوجوده بل إنما يحتاج إلى علة لكون وجوده متعلقاً ومرتبطاً بغيره ، وإلاّ فإن الموجود غير المشروط وغير المرتبط

بغيره خارج عن شمول قانون العلية له .

إذن فلو كان هناك موجود غني عن العلة لكماله وغناه الذاتي ، فليست العلة هي التي جعلته في هذه المرتبة التي هو فيها ، وليس لأيّ علة أن تتدخل فيه ، إن العلة الأولى وجوده عين ذاته ، بخلاف ما وجوده إفاضة وعارية ، فإن التحول والخروج من العدم إلى الوجود هو الذي يحتاج إلى العلة .

وكيف لنا أن نتصوّر أن يكون الاعتقاد بوجود الله استسلاماً للتناقض ، بينما لا يكون تناقض في العقيدة بأن المعلول الماديّ بلا علة ؟! .

إننا نعيش في عالم كل شيء فيه في معرض التغيير والتحوّل والفناء ، والفناء والمقهورية مرتسمة على مظاهر جميع أجزاء هذا العالم ، إن الفقر والاستناد إلى الغير متأصل في أعماق أنفسنا وجميع موجودات الأرض والسماء ، وقد أحاط بجميع وجودنا ، إذ ليس وجودنا أزلياً ، ولم ينبع وجودنا من ذاتنا ، لم نكن ثم ألبسنا لباس الوجود فوجدنا ، ولا شك أن هكذا موجودات لا بدّ لها لتسلك سبيلها إلى الوجود أن تتعلق بأذيال واهب الوجود .

أما الأزلي الأبدي واجب الوجود الذي وجوده من نفسه لا من غيره ولا أول ولا آخر له فلا حاجة له إلى علة .

إن معنى العلة في الفلسفة هو الذي يأتي بشيء من العدم إلى الوجود ويهب الوجود لشيء بعد العدم ، والعلل المادية لا قدرة لها على هذا ، ولا دور للمادة سوى أن تلبس صورة جديدة بعد أن تفقد صورتها الأولى ، صحيح أن الموجود الماديّ حسب التحوّل الذاتي يجد في كل لحظة هوية جديدة مختلفة عن السابقة ، إلّا أن هذه الحركة الذاتية (الجوهرية) والحدوث والزوال المستمر على المادة تبين حاجتها الدائمة إلى يد محركة هي التي أثبتت سنابل الوجود وهي التي تسير بقوافل الوجود .

* * *

تتبع سلسلة العلل

لو أصرّ الماديون على إنكار الحقيقة ، ولجأوا إلى مغالطة أخرى وقالوا : نحن نختار أن لا نتوقف في سلسلة العلل ونتتبعها إلى ما لا نهاية ، وندافع عن تسلسل العلل .

للإجابة على هذه المغالطة نقول : إن تحليل وجود العالم بهذا الأسلوب ، هو الاستسلام لسلسلة العلل والتقدم معها إلى ما لا نهاية ، وكل معلول فاقد للوجود بحكم كونه معلولاً ولا وجود له بلا علة موجدة وهكذا . . .

إذن فكل جزء من أجزاء هذه السلسلة المحكومة بالحاجة والفقر كيف يخرج من العدم إلى الوجود ، ومن أين جاء وجود هذه الأشياء التي هي مظاهر الحدوث والعجز ؟ وكيف وجد أكبر مجموعة من الموجودات على أثر اجتماع الأعدام المتسلسلة إلى ما لا نهاية ؟ ، فهل يمكن أن تولد الحياة من اجتماع عوامل الموت المتعددة إلى ما لا نهاية ؟ .

في حين أن هذه السلسلة اللامتناهية مهما تقدمت فهي بحكم كونها معلولات لا بدّ أن تتصف دائماً بصفات الفقر والحاجة والحدوث، وأن سلسلةً لا ينبع الاستقلال والغنى من نفس طبيعتها لا تلبس ثوب الوجود إلاّ أن تنتهي إلى الغني بالذات المطلق وهو الوجود الإلهي الذي هو علة ـ إن صحّ التعبير ـ

بلا أن يكون معلولاً ، وأن نظام الموجودات لا يجد التفسير الصحيح من دون الاعتراف بوجود غير مشروط هو علة العلل ـ إن صحّ التعبير ـ وهو أساس وجود لجميع الموجودات .

افترضوا جبهة عسكرية في ساحة قتال ، مع العدوّ ، ولكن تأبى كل وحدة من الجنود أن تبدأ الحملة وكلما يأمر القائد وحدة قالت : لا نبدأ ما لم تبدأ الوحدة كذا ، وهكذا الوحدة الثانية والثالثة والرابعة إلى آخر الوحدات ، كلها تكرر هذا العذر ولا نجد بينها واحدة تبدأ الحملة بدون أيّ قيد أو شرط .

فهل تتحقق الحملة هكذا ؟ كلاّ قطعاً ، إذ كل منهم قد قيد نفسه بالآخر ، وواضح أن الحملات المشروطة ، لا تتحقق بدون الشرط والشرط نفسه لا يتحقق أبداً ، فلا إقدام قطعاً .

نحن لو تتبعنا سلسلة العلل والمعلولات فهي لاشتراط كل واحدة منها بالأخرى ، كأنما يسمع هذا النداء من أعماق وجودها تقول : ما لم توجد الأخرى لا ألبس ثوب الوجود أيضاً ، فكل هذه الوحدات مشروطات لم تتحقق شروطها ، إذن فلا تتمتع أيّ واحدة منهنّ بالوجود .

ونحن حينما نرى العالم مليئاً بالموجودات فلا بدّ أن يكون في العالم وجود علة غير معلولة أو شرط غير مشروط .

إن تلك العلة الأولى غنيّ بالذات عن جميع صور الموجودات قادر على أعجب الحوادث والمبتدعات ، خلاق فاطر أراد فخلق ، وهو الذي يهب الحياة لجميع أجزاء الوجود ، ويستمر بنظام الخلقة العظيم في سبيل تحقيق أهدافها .

إن أتباع المذهب المادي يحاولون أن يجدوا جواباً لحاجة العالم إلى الخالق ، بالقول بقدم العالم ، وبذلك يهبون الاستقلال للعالم ، بينما هم لا يجدون نتيجة مرضية بهذه المحاولة وهذا الأسلوب ، هؤلاء يتصورون أن

العالم إنما يحتاج إلى الخالق في بدء الخلقة ، وإذا قضيت هذه الحاجة فلا حاجة إلى الخالق بعد ذلك ويقف الله والعالم مستقلان أحدهما عن الآخر بلا حاجة بينهما ، ولذلك فهم قطعوا أنظارهم عن حاجة اللحظة الأولى للعالم إلى الخالق ، ويظنون أنهم بإنكار بدء الخلقة يحلون مسألة الخلقة والخالق ، وينحلون الغنى للعالم عن الله الخالق .

كلّا ، بل إن كل لحظة هي بدء خلقة ، وكل ذرة من العالم في كل آن حادثة ، وإذا كانت الأجزاء في الحدوث في كل لحظة فالمجموع أيضاً حادث ، ولا صفة للمجموع مستقلة عن صفة الأجزاء .

إذن فنفس الحاجة التي كانت للعالم لحظة بدء الخلقة موجودة ومستمرة ودائمة حتى الآن وكل زمان ، ولا يمكن أن يستقل العالم عن الخالق بافتراض قدم العالم .

العلم يرد على أزلية العالم

كما أن الإنسـان يفتقـد قواه على مـرّ الزمـان وسينطفىء مصبـاح عمره يوماً ، كذلك العالم يسير نحو التحليل والفناء شيئاً فشيئاً .

لهذا لا يمكننا أن نحسب المـادة جوهـراً أزلياً بـل لا بدّ من الإذعـان بضرورة مخلوقية العالم ، بدليل أن الطاقات الموجودة في العالم تسيـر نحو الوحدة النوعية ، فالذرات تتبدل إلى طاقات ، والطاقات الفعالة إلى طاقات ساكنة غير فعالة ، وحينما تتبدل الطاقات إلى طاقات متساوية واحدة في النوع لا يبقى لها إلاّ أن تبيت في سكون وسكوت مطلق .

إن الأصل الثاني من أصول (ترمود ديناميك) والذي يعبر عنه باصطلاح (انتروبي الاستنزاف والبلى) يعلمنا أننا وإن لم نتمكن من تعيين تأريخ ظهور هذا العالم إلاّ أن من المقطوع به أنه لا بدّ له من بداية ، إذ أن الحرارة في العالم في حالة تقلل وتضاؤل ، والعالم في فقدانه للحرارة كقطعة حـديديـة متوقدة لا تـزال تفقد حـرارتها تـدريجياً في الفضـاء حتى يصل اليـوم الذي تتساوى فيه حرارة الحديد والفضاء والهواء والأجسام الأخرى المجاورة .

فلو لم يكن للعالم نقطة بـداية لكـانت الذرات المـوجودة جميعـاً قد تبدلت منذ سنين ممتدة في الأزل إلى طاقات ولكانت حرارة العالم قد انتهت منذ القديم جداً ، إذ أن المادة تتلاشى وتتبدّل إلى طاقات غير مرئية تالفة على

طول التحولات المستمرة والمتسلسلة ، بحيث لا يمكن بعد ذلك أن ترجع هذه الطاقات التالفة فتتبدّل مرة أخرى ، إلى مواد وأجرام متناسبة منسجمة مع عالم الوجود هذا .

إن الأصل المذكور يقول : إن الطاقات إذا أفادت عملها فلا ترجع إلى تفاعلاتها الكيمياوية مؤثرة أو متأثرة ، ومع العلم باستدامة التفاعلات الكيمياوية واستمرار الحياة على ظهر هذه الكرة الأرضية ، واستمرار إشعاع الشمس الذي يصل في اليوم إلى ثلاثمئة ألف مليون من الأطنان من الأسعار الحرارية ، بهذا كله يتضح حدوث العالم ويتبين .

إن موت السيارات والنجوم وانعدام الكواكب والنجوم والشموس ، كلّ ذلك دليل على ثبوت الحدوث والتحولات والولادة والموت للنظام الموجود ، ودليل على أن العالم يسير نحو الفناء والنهاية المحتومة .

وهكذا نرى أن العلوم الطبيعية تخرج المادة من خندق القدم ، وتثبت حدوث العالم، بل وتشهد بحدوث العالم في بداية معينة؛ ولا بدّ للعالم في بداية ولادته من قدرة خارقة مما وراء الطبيعة ، إذ في البداية حيث كان كل شيء بلا تفاوت فلا بدّ من إشعاع الحياة على العالم من خارجه ، وإلاّ فكيف يمكن لمحيط فاقد لكل طاقة فعالة والذي يسوده السكوت والسكون المطلق ، أن يصبح منشأ النشاط والحركة ؟

يقول البروفسور (روايه) :

« لو كانت خلقة الكائنات نابعة من انفجار مهيب أولي ـ كما يدعي العلم البشري اليوم ـ فلا بدّ من القول بوجود وقود الانفجار وفضاء مطلق تحققت فيه مثل هذه الحادثة العجيبة ، وبعبارة أخرى يجب أن نفترض وجود المادة الأولى لجميع الظواهر في العالم من الطاقات والأنوار ومليارات الكواكب والسيارات والمجرات ، وهذه حقيقة غير قابلة للإنكار من الناحية العلمية والفكرية والروحية والمحاسبات الرياضية .

ولكن كيف قد أودع مصير هذه الظواهر المتناثرة في الفضاء على أثر ذلك الانفجار ، في دخيلة الجرم المعين ؟ ومن أين أتى ذلك الجرم وكيف تراكم بعضه على بعض ؟ فالذين يدعون المعرفة الكاملة بالعالم يعتقدون : بعدم ثبات أيّ شيء في العالم ، وأن كل شيء هو في حالة تغيير وتحول وصيرورة وخلقة ، وأن لا معنى للمادة بدون الروح ، وأن كل حركة حياتية في الأرض ـ مهما كانت صغيرة ـ فهي مقدرة تقديراً دقيقاً وظريفاً بحكمة مقتدرة عالية بحيث لا يمكن أن تحسب من باب الصدف قطعاً .

ولا يمكن تفسير هذه التقديرات الدقيقة تفسيراً معقولاً إلّا كما يقول (آنشتاين) : بالقول بوجود الإله العظيم ، فقط »[1] .

والميكانيك يقول لنا : إن الجسم الساكن ساكن دائماً ، وإذا أراد أن يتحرك فلا بدّ أن يكون متأثراً بقوة خارجة عن نفس ذلك الجسم ، وهذا قانون معتبر أصيل في عالمنا المادي ، ولذلك فنحن لا يمكننا أن نعتقد باحتمال الصدفة ، إذ لم يكن أبداً أن يتحرك أيّ جسم ساكن من دون تأثير قوة خارجة عنه ، فعلى أساس هذا الأصل الميكانيكي يجب أن تكون هناك قوة غير عالم المادة أوجدت المادة ومنحتها القوة والحركة ، فتشكلت وتنوعت وتفاوتت صورها .

ولأستاذ الفيزياء الاجتماعية (فرانك آلن) الشخصية العلمية البارزة استدلال جميل على وجود الله سبحانه حيث يقول : « حاول كثير أن يتظاهروا بعدم حاجة العالم المادي إلى خالق . والذي لا نشك فيه هو وجود هذا العالم وبإمكاننا أن نتصور لمنشأ هذا العالم أربعة فروض وحلول .

الأول : أن لا نحسب العالم ـ على الرغم مما سبق ـ إلّا طبقاً من الأحلام أو الخيال .

والثاني : أن يكون العالم وجد بنفسه من العدم بلا خالق .

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ١٥ (بالفارسية) .

والثالث : أن لا يكون للعالم بداية وأن يكون أزلياً .

والرابع : أن يكون مخلوقاً حادثاً مبتدعاً .

أما الفرض الأول فهو يستلزم افتراض عدم وجود أيّ مسألة للحل إلاّ مسألة ميتافيزيقية هي الضمير ووعي الإنسان ، والتي هي أيضاً على هذا الافتراض مسألة خيالية ووهمية .

وعلى هذا الفرض يمكننا أن نفترض القطارات الخيالية مليئة بمسافرين وهميين تعبر فوق جسور غير مادية مبنية من مفاهيم ذهنية على أنهر ووديان غير واقعية ! .

وأما الفرض الثاني يعني أن تكون المادة والطاقة منبعثة من العدم فهو أيضاً كالفرض الأول محال لا معنى له بحيث لا يستحق الملاحظة والعناية .

وأما الفرض الثالث يعني أن يكون العالم موجوداً من الأزل فهو يشترك مع افتراض الخلقة في نقطة هي : أن تكون المادة الميتة والطاقة المنبعثة منها أو الخالق موجودين من الأزل .

ولا يرى في أيّ واحد من هذين التصورين إشكال أكثر من نفسه في التصور الأخر ، إلا أن قانون (الترمو ديناميك) أثبت أن العالم لا يزال سائراً نحو حالة تصل فيها جميع الأجسام إلى درجة حرارية متشابهة ، ولا تبقى حينئذٍ طاقة تصرف ، وحينئذٍ تمتنع الحياة على هذه الكرة .

ولو لم يكن للعالم بداية وكان موجوداً من الأزل للزم أن يكون هذا الموت حادثاً قبل هذا ، في حين أن الشمس الساطعة والنجوم المضيئة والأرض النابضة بالحياة خير شهود على أن للعالم بداية زمنية حادثة بعد العدم ، وأن بداية ظهوره ، كانت لحظة خاصة من الزمان ، وعلى هذا فلا يمكن إلاّ أن يكون مخلوقاً ، ولا بدّ أن تكون هناك علة كبرى أولى أو خالق أبديّ عالم قادر أوجد هذا العالم »[1] .

(١) اثبات وجود الخالق : ص ١٧ (بالفارسية) .

محدودية الإنسان وعجزه

لو أمعن الإنسان النظر وعمق الفكر وأبصر الواقعيات بنظرة أوسع ، أدرك أنه لا ينبغي أن يحسب لقدراته وطاقاته وقواه حساباً أمام جغرافيا الوجود العظيمة ، وأن المعلومات التي حصل عليها الإنسان عن نظام الخلقة بمساعيه المتواصلة ليست إلاّ في حدّ الصفر ، فإن العلوم وإن كانت قد تقدمت خطوات وسيعة إلاّ أنه لا يمكن قياس ما لا نعلم بالذي تعلمناه بأيّ نسبة من مقدار أو عدد ، من يدري ـ مثلاً ـ لعل آلافاً بل ملايين من أنواع البشر أو أسمى منه جاءت إلى هذه الدنيا ومضت ، ولعل في المستقبل يكون هكذا .

إن الذي يسميه هواة العلوم اليوم علوماً ومعارف ويحسبونه مرآة لجميع الواقعيات ، إنما هو مجموعة قوانين تتعلق بناحية من نواحي هذا العالم ، ونتيجة كل هذا السعي والتجارب معلومات تلقي الضوء على نقطة معينة كشمعة صغيرة ضئيلة في ليلة ظلماء في وسط صحراء مترامية الأطراف لا يعلم منتهاها .

لو رجعنا ملايين السنين إلى الوراء لكان غبار الأوهام يغطي فضاء ذلك القديم ممّا يؤكّد الضعف البشري أمام عظمة جهاز الطبيعة .

ولعل ملايين السنين لا تشكل بالنسبة إلى مجموع عمر عالم الوجود إلاّ

لحظة واحدة ، ومع ذلك فنحن بهذه المدّة نرد محيط العدم بالنسبة إلى الإنسان ، فإنه محيط مظلم لم يكن فيه من الإنسان أيّ عين أو أثر .

وعلى أيّ حال فلا علم لنا عن بداية مسيرتنا هذه ولا عن مستقبلها ، ومن جانب آخر لا يمكننا أن نصدق أن تكون شروط الحياة محصورة في هذه الكرة الترابية الأرضية ، في حين يرى كثير من العلماء اليوم أن منطقة الحياة أوسع بكثير ، وأن ملايين الكرات غير المعدودة التي يمكننا أن نراها ولو بالعين المسلحة هي في الشبه كنملة صغيرة .

يقول (كاميل فلا ماريون) العالم المعروف في كتابه في الهيئة الفضائية بعد افتراضه سفرة فرضية خيالية إلى العالم اللانهائي :

« ونتقدّم أيضاً بنفس هذه السرعة وبدون تقليل سرعة الوسيلة الناقلة ألف سنة ، أحد عشر ألف عام ، مئة ألف سنة ، بسرعة ثلاثمئة ألف كيلو متر في الثانية ، مدة مليون سنة ، فهل نصل إلى حدود هذا العالم المرئي ؟ . . كلا ، فإن هناك فضاءً عظيماً مظلماً يجب أن نعبره ، وهناك أيضاً نجوم جديدة تضيء في نهاية السماء الأخرى ، نسير إليها فهل نصل إليها ؟ . . ثم مئات أخرى من ملايين السنين ، واكتشافات جديدة وعظمات جديدة ، وعوالم جديدة ، وكرات وأراضٍ جديدة وموجودات وأشياء جديدة ، ثم ماذا ؟ . . إن الأفق لا يغلق ولا سماء تمنعنا ، ففضاء دائماً ، ثم أين نحن ؟ وأي طريق نكون قد قطعناه ؟ كلاّ نحن بعد في بداية الطريق بل في نفس نقطة البداية ، فكل مكان مركز هذه الموجودات ، وليس لدائرتها محيط متوسط .

أجل ، هذا هو العالم اللانهائي المفتوح أمامنا والذي لم نبدأ النظر فيه ، بل لم نره أبداً ! بل نتقهقر عنه خوفاً ونرجع من هذه السفرة بلا نتيجة متعبين ، أين نقع للاستراحة ؟ بإمكاننا أن نقع في مدة أبدية في دوامة غير منتهية لا نصل إلى قعرها ، كما لم نصل إلى قمم الجبال .

أينما نظرنا فالعالم إلى ما لا نهاية ، شرقاً وغرباً جنوباً وشمالاً ، إن دنيانا في هذه المجموعة اللانهائية كجزيرة في مجموعة كبيرة من الجزائر وسط محيط لا نهاية له ، وإن عمر البشرية جميعها بكل ما لها من زهو بتأريخها السياسي والديني ، بل وحتى عمر هذه الأرض بكل عظمتها لا تقابل إلاّ لحظة من حلم عابر » .

إذا أردنا أن نعيد كتابة جميع العلوم والآثار التحقيقية البشرية التي كتبها ملايين العلماء في ملايين الكتب ، كفى لذلك أقل من ظرفية ناقلة نفط صغيرة من الدوّاة والحبر ، في حين أنه قد لا يكفي كل البحار لتنظيم صورة عن جميع الموجودات في الأرضين والسماوات فيما مضى ويأتي وجميع أسرار الوجود .

وكما يقول البروفيسور (روايه) : « من أجل أن تتكون لديكم صورة كاملة عن هذا العالم يكفيكم أن تعلموا أن عدد المجرات في هذا الوجود اللانهائي أكثر من مجموع الأتربة الساحلية في جميع سواحل هذه الأرض »[1] .

* * *

(١) الفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ١٣ (بالفارسية) .

الخداع العلمي

يدعي الماديون أن ظهور المدرسة المادية في القرن الثامن عشر والتاسع عشر له علاقة مباشرة بالتطورات العلمية ، وأن الديالكتيك ثمرة مقطوفة من شجرة العلوم .

إنهم يعدون كل فلسفة سوى الفلسفة المادية ، فلسفة وهمية غير علمية ، ويرون مدرستهم مدرسة علمية متطورة ، إنهم يرون أن الواقعية هي الإعراض عن حقائق الميتافيزيقا ، والبناء على أساس المنطق الحسي والتجريبي والفلسفة المادية .

إلّا أن هذه الدعوى ظنون متعصبة مبنية على نظريات لا دليل عليها ولا ثبات لها ، وأن مصطلحات من هذا القبيل نتائج أفكار أصبحت المادية مركز التفكير لها ، بحيث لا تنظر إلى شيء إلّا بقياسه إلى المادية .

لا شك أن الاعتقاد بوجود المعبود أحد المنابع العظيمة للثقافة والمعارف البشرية ، وأن معرفة الله كنظرة شمولية إلى العالم ، أوجدت تطوراً عميقاً في الأصول الاجتماعية ، وتغييراً أساسياً في أفكار الإنسانية في مختلف الأدوار ، ولا زالت طبقة وسيعة من العلماء يعتقدون بالأديان في عصر العلم والتكنولوجيا والفضاء ، وقد توصلوا إلى وجود الخالق ، ومبدأ الوجود من طريق المنطق والبرهان بعد القلب والوجدان .

ولو كان تفسير الماديين صحيحاً واقعياً ، ولم يكن عن فقر وضعف في معرفة تاريخ الفكر المادي ، للزم أن يكون بين العلم والمادية علاقة خاصة ، ولا تظهر في المحيط العلمي إلاّ العقائد المادية ، فهل أن الفلاسفة والعلماء في كل عصر كانوا ذوي نظرة إلحادية ومن أنصار المادية ؟ بل لو نظرنا في آثار وأحوال المفكرين محققين لظهر لنا أن معسكر الأديان لم يخل ، ولا يخلو من المفكرين الواقعيين والحقيقيين ، بل إن كثيراً من المفكرين وذوي الأصوات العلمية ومؤسسي كثير من العلوم والمعارف المعاصرة كانوا من حملة رايات التوحيد .

إن العقيدة المادية الإلحادية لا تتعلق بدور تطور العلوم وتقدمها وتكاملها ، بل إن الماديين كانوا يظهرون بإلحادهم أمام صفوف أهل الإيمان المتحدة من العهد الأول وفي طول التأريخ .

أصبح العلم اليوم عند الماركسيين العوام وسيلة للتضليل أكثر من أيّ شيء آخر وأكثر من أيّ جماعة أخرى ، هؤلاء الذين كان ينبغي لهم أن يجدوا السبيل بمساعدة الأضواء العلمية ، ويحققوا المسائل لينالوا فهم الحقائق بعيداً عن غبار العصبية والأحكام المسبقة المستعجلة وبإدراك عميق منطقي في طريق التحقيق فقط . . هؤلاء مصابون بالجمود والتقليد العقيدي ، وينكرون بكل غرور كل القيم الأسمى من العقل والتفكير ، ثم هم يباهون بإنكارهم هذا ! .

يقولون : جاء العلم فنسخ وجود الله ! وهذا الكلام أشبه بالشعار وهتافات المظاهرات الحماسية منه إلى المنطق ، إذ لا يكفي آلاف التجارب العلمية لإثبات عدم وجود أيّ عامل غير مادي للوجود ، بل إن العقيدة المادية عقيدة ميتافيزيقية ، إذ لا تثبت ولا تنفي إلاّ بالطرق الفلسفية ، إذن فلا يمكن بقبول المادية أن ننفي الميتافيزيقا ، وفي النهاية لا معنى لهكذا تحليل للمدرسة المادية ، فليس لها أيّ أساس علمي ، بل إن هذه العقيدة الظنية

ليست إلّا تحريفاً للحقائق، وليس وصف هذه المدرسة بالعلمية إلّا خيانة للعلم والحقيقة .

صحيح أن البشر لم يكن يعرف العلل والعوامل الطبيعية حتى يوم أمس ، ولم يكن يعرف كثيراً من أسرار الحوادث حوله ، إلّا أن إيمانه لم يكن نابعاً من الجهل ، إذ كان من اللازم على هذا أن ينهار أساس معرفة الله مع كشف كثير من حقائق العالم ، بينما نرى اليوم أن الاعتقاد بالمعبود أصبح يتجلى كثيراً بعد كشف كثير من أسرار الوجود .

إن العلم لا يضيء إلّا فضاء محدوداً ، وإن النظرة العلمية إلى العالم معرفة جزئية لا كلية ، فإن العلم يعجز عن رؤية الصورة الكاملة للعالم ، ولكن المعرفة العلمية دقيقة وقوية ، ولذلك فإن معرفة الله كلما توسعت العلوم تكتسب صورة أكثر علمية ومنطقية ، حيث يزداد وعي الإنسان عن طريق معرفة الأسباب والعلل والمعاليل والحوادث ، فهو عند ذلك لا يتغاضى عن دور العامل الأصيل والعلة الأولى وراء هذه العلل والعوامل .

بل كما يقول البروفيسور (روايه) : « إن العلم البشري يعلن لأول مرة ـ لا عن عجز أو ضعف بل على أساس طريقته الدائمة يعني التجربة والتحقيق ـ أن لا وظيفة له سوى معرفة ذات الباري وتجلياته في عرصة الوجود ، ويجب أن يصرف كل تلك المساعي في سبيل تربية الإيمان العلمي والمعرفة المنطقية الصحيحة عن الصانع الكبير لهذا العالم ، وليس صحيحاً أن نقول إن العلم يصالح الإيمان أو العكس ، إذ أن جميع الكتب الدينية والأنبياء والمفكرين الدينيين يرون أن العقل أولى وأفخر موهبة إنسانية ، وقد دعوا البشر إلى الاستفادة الأكمل من معطياته .

هذه الدعوة هي التي عاق جهل الأكثرية والعصبيات غير الصحيحة والحساسيات الجوفاء طوال قرون مديدة عن ظهور تجليات استجابتها ، والآن حينما يرد الإنسان عصر العلم والعقل ويوسع مهما أمكن وسائله وإمكاناته في حياته ، يجب عليه أن يعتني بتربية الألباب والأفكار ، ويعنى

بالعلم الذي يقع مورد الاستفادة بالطريقة الصحيحة »[1] .

إن إنسان الأمس كان يرى لنفسه جسداً موزوناً ومتناسباً منسجماً ، ولكنه كان لا يعي من الأسرار المعقدة المودعة فيه ، ولكنه اليوم اكتشف معلومات محيّرة ووسيعة عن جسمه هذا الصغير ، وأنه قد اشترك في بناء جسمه هذا عشرة مليارات من الخلايا ، بحيث لا يمكن قياس العظمة المدركة عن هذه الصناعة العجيبة بهذه المواد الغريبة .

هل من المعقول أن نقول إن الاعتقاد بالله يخص غير الواعين لكيفية خلقة الإنسان ، أما العالم الخبير بالعلل والعوامل الطبيعية للخلقة وتطور الإنسان ، والذي يعلم بسيادة القانون والمحاسبات الدقيقة في جميع مراحل الوجود ، أما هذا فيجب أن يعتقد بأن منشأ قوى الطبيعة المحيرة إنما هي المادة غير الشاعرة وغير المدركة ؟ .

فهل أن هذه الاكتشافات والثقافات هي التي بلغت بهذا العالم مرحلة من التفكير يرى فيها خالقه وجميع الموجودات مادة غير عالمة وغير مدركة ؟ إن الثقافة المادية التي لا تنظر إلى العالم إلا بعين غير مبصرة تبقي لنا كثيراً من السؤالات بلا أجوبة .

إن العلماء الإلهيين أبدوا أن الوجود أوسع من دائرة المادة ، وأن عالم الموجودات غير المادية أغنى وأوسع بكثير من دنيا الماديات ، إن هؤلاء بينما هم يذعنون لنظام الطبيعة يعتقدون بالتالي بصورة من الوجود المجرد عن المادة لا يعرف بالعلوم التجريبية وإنما تحكي قوى وظواهر وحوادث الطبيعة عن حقيقة ذاته ، فهل أن هذه الفكرة التوحيدية دليل على فقدان هذه المدرسة للجانب العلمي ؟! .

إن العلم لا إجابة له على مسائل من قبيل : هل أن العالم ينقسم إلى المادة والمعنى ؟ أو هل أن للعالم هدفاً ؟ إذ ليست هذه الأسئلة علمية

---

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٢٢٩ (بالفارسية) .

بالمعنى المصطلح ، ثم إن المعرفة العلمية إنما تخبرنا عن بعض ما هو موجود ؟ ولا يمكنها أن توجهنا وجهتنا الصحيحة في الحياة ولا قدرة لها على إلهامنا بالطريق الأصوب الذي يجب علينا أن نختاره .

ويقول (برتراند راسل) : « لو كانت الحضارة العلمية حضارة مفيدة للزم أن يزيد عقل البشر مع زيادة العلم وتقدمه ، وأعني من العقل إدراك غايات الحياة ، وهذه ثمرة لا تأتي بها الحضارة الحديثة، إذن فتقدم وزيادة العلوم وإن كانت ضرورة لتقدم الإنسان ، إلاّ أن العلوم نفسها لا تضمن التقدم الصحيح للإنسان »[1] .

إذن فالمعرفة العلمية لا تستطيع أن تصبح مستنداً لأيديولوجية إنسانية ، إذ المعرفة العلمية لها قيمة علمية أكثر من أن يكون لها قيمة عملية أيديولوجية ، وهي تسلط الإنسان على الطبيعة وتمكنه منها ، في حين أن الذي يمكنه أن يكون مستنداً للإيمان والعقيدة هي القيمة النظرية الواقعية لا العلمية فقط .

إن العلوم مبنية على التجارب والملاحظات والتحقيقات ، والقوانين المستندة على التجربة متزلزلة متغيرة وغير ثابتة ، في حين أن الإيمان بحاجة إلى مستند له صفة الدوام والخلود بعيد عن التزلزل والتغيير ، ويكون بإمكانه أن يجيب على الأسئلة المطروحة عند التفتيش عن النظرة الشمولية للعالم والتي تتعلق بماهية وصورة مجموع العالم ، إجابة خالدة معتمدة ، تقضي حاجة الإنسان إلى التفسير العام للوجود .

إن الإنسان الكامل ، يحتاج إلى الاعتدال الفكري والروحي ، وإذا لم يكن له هدف معين ضاع وهلك ، إنه إن لم يجد الهدف من طريق المذهب والدين ذهب ليختار لنفسه هدفاً من صنع نفسه ، وهذا خروج على نظام الطبيعة ويؤدي إلى جمود في الفكر .

---

(١) رؤية علمية للكون (بالفارسية) .

إن الاكتشافات العلمية في العصر الحاضر جعلت الإنسان يعتقد بالقوانين والأنظمة الحاكمة على العالم ، ثم أفرط في هذا حتى أذعن للعنصر المادي نفسه بالأصالة والحاكمية ، ورآها أنها هي الأزلية واعترف عملاً بألوهية وقاهرية الطبيعة أو التأريخ ، ووصف الإنسان بأنه مكتوف الأيدي أمام جبر الديالكتيك ، ولا اختيار له أمام ذلك .

والآن ومع التقدم التدريجي للعلوم تتجه المعرفة والنظرة العلمية الشمولية للعالم نحو الوحدة التوحيدية ، وتتقارب الظواهر والحوادث التي كانت تبدو للنظر غير مرتبطة ،وترتبط برباط واحد وترجع إلى منشأ واحد ، وبالتالي تعقد العلاقة بين الظواهر المختلفة والمتناثرة. وحينما تلاحظ الفاعلية من منبع واحد تفسر جميع الظواهر بالإرجاع إلى ذلك المبدأ ، وحينذاك تنتهي جميع الظواهر مجتمعة حول ذلك المحور والمركز وترتوي في وجودها منه .

✸

دوافع الإنكار واللادينية

يحاولون في كتب تأريخ الأديان أن يتعرفوا على العوامل التي دفعت الناس إلى الأديان ، إلّا أنها محاولة ناقصة قاصرة عن الوصول بأصحابها إلى الواقعية من هذا الطريق ، إذ مع النظر إلى الفطرة التوحيدية ، أي الصفة الوجودية المميزة لنوع الإنسان التي لها المكانة الخاصة بين سائر الصفات الإنسانية من الفكر والإرادة ، والاستعدادات المتقابلة ، مع النظر إلى هذه الفطرة يجب التوصل إلى العوامل التي سببت أن يسحق الإنسان فطرته بقدمه وينقطع عن الأديان .

إن العلاقة الدينية مسألة طبيعية ، والمادية هي المخالفة للفطرة ، وإن كان الإنسان إذا لم يتوصل إلى الإله الحق ، فلا بدّ أن ينحت لنفسه إلهاً حتى ولو كانت هي الطبيعة غير العاقلة أو جبر التأريخ ، وبالتدريج يملأ هذا الإله الباطل مكان الإله الحق في شمول ونفوذ الأحكام والقضاء والهداية وإراءة الطريق .

هذه هي معاملة بيع الإله الحق والخضوع لعبادة الأصنام والأوثان القديمة أو الحديثة ، فيضحي الإنسان بالإله الحق أمام أقدام آلهة التأريخ مثلاً بكل قسوة ، ويبدل الجوهر بالعرض أو الزخرف ، ومع الأسف نرى أن جماعة من الحقراء يخضعون أمام عتبة الوثن المنحوت بيده بوصفه بالأوصاف

الإلهية ، ويعرضون بوجوههم عن الخالق الذي لا شريك له ، ويشترون لأنفسهم عار هذه العبودية المصطنعة .

وحينما نتفرغ لملاحظة المسألة بدقة نرى أن ظهور المادية في أوروبا كمدرسة وقطع علاقة الإنسان بالحقيقة المطلقة وإطلاق العنان للمادة واختيار العلم بدلاً عن الدين ، كل ذلك كان على أثر دوافع تأريخية واجتماعية ، وهو نتيجة لتلك الدوافع تحقق في الغرب .

إن من العوامل التي أوجدت ردود فعل وسيعة في أوروبا سببت إعلانها الحرية عن الدين والدعاية ضده ، هو الضغط المحطم الذي أبداه علماء المسيحيين في مطلع النهضة الصناعية الحديثة ، على العلماء الصناعيين الذين أبدوا عقائد وآراء علمية حديثة مخالفة لآراء علماء المسيحية .

إن الكنيسة كانت تتقيد ـ بالإضافة إلى العقائد الدينية الخاصة ـ بسلسلة من الأصول الموروثة عن الفلاسفة القدماء اليونانيين وغير اليونانيين بالنسبة إلى الإنسان والعالم إلى جانب أصول عقائدهم الدينية ، فإذا رأت نظرية غير منسجمة مع الكتاب المقدس والأصول الأخرى المسلمة والمقبولة ، كانت ترى صاحبها مرتداً عن الدين وكانت تعاقب صاحبها بشدّة .

ومن هذه المضادة الظاهرة بين العلم والدين في المحافل العلمية والدينية ، ظهرت مخاصمة بين الطرفين ، فكانت طبقة العلماء والمثقفين ترى أن الكنيسة تأسر الفكر والعقل وتمنع الفكر الحرّ عن الحرية في الفكر ، وبالتالي خلق النظام الفكري الجامد ضدّ العقل جوّاً مسموماً لإنسان العصر الحديث ، وطرد أصحاب الفكر إلى زاوية الخمول والأفول ، هذا الضغط المتراكم جرّ في النتيجة ردود فعل شديدة شملت كل أرجاء أوروبا ، وحينما زالت سلطة الكنيسة وارتفع الظلم وتقشع السحاب أجاب العقل الغربي على تلك المضايقات الماضية بردّ فعل عنيف ، بعد أن استعاد حريته المفقودة في عهد الاختناق ، فقد فك المثقفون ربقة الدين القديم عن أعناقهم وأعرضوا

عنه ، وتبلورت العصبيات والأتعاب المضنية إلى أمواج عظيمة من مكافحة الأديان وبدأت أزمة دينية حادة وانجرت إلى المفارقة بين العلم والإيمان !

هذه المحاولات الانتقامية غير المنطقية سببت أن يصل التشكيك حتى إلى المسائل السماوية الأصيلة وحتى حقيقة وجود الله ! .

صحيح أن بعض التعليمات المنسوب إلى الدين كان غير منطقي بل لا أساس له ولا صلة بالمعارف الدينية الأصيلة ، إلاّ أن الانتقام من الكنيسة شيء والحكم المستعجل الخاطىء بشأن الأديان بصورة عامة شيء آخر ، وقد سقطت المحاسبات العلمية في هذه العمليات الانتقامية والجوّ السائد إنما كانت العواطف والأحاسيس الجياشة فحسب .

وهكذا ازداد الفقر المعنوي لدى الإنسان بنسبة متعاكسة مع تقدم العلوم والتكنولوجيا،وكلما تقدم الإنسان في صعيد الصناعات تقهقر في ساحة الأخلاق والمعنويات ، ولم يتمكن من أن يكتسب المعنوية اللازمة من نفس هذه العلوم والمعارف .

إن العلوم بنفسها ليست ذات جبهة خاصة بالنسبة إلى القيم والمعنويات ، فلا يمكننا أن نعين وظيفة الأفراد المسؤولين بالمراجعة إلى العلوم الصناعية ، إن العلوم مهما تقدمت لا تضيء حتى قدماً واحداً أمامها .

إن المعارف البشرية لا تستطيع أن تصل إلى حقيقة هذا العالم ، ولا تتمكن من التنبؤ بمصير الإنسانية في المستقبل .

هذه هي المعرفة التوحيدية التي لا تقتصر في جوانب حياة الإنسان على الحياة المادية فقط ، بل تعين لحياة الإنسان مبدأ وغاية سامية ، وإذا وضع الإنسان نفسه على صراط التوحيد ، توصل إلى إطار في النظرة الشمولية إلى العالم ، يجيب على أسئلته الاستطلاعية والأساسية ، وتجد حياة الإنسان لونها وصبغتها وقيمها الأصيلة بكامل تجلياتها بهذه العقيدة الشاملة .

هذا عامل من عوامل الإنكار واللادينية .

وجماعة آخرون استقالوا من الأديان ولجأوا إلى أحضان المادية لأن الكنيسة كانت قد أبدت لهم مفاهيم غير صحيحة فاقدة لقيمها العالية بشأن الخالق ، بحيث كانت هذه المفاهيم وبهذه الأساليب غير مقبولة ولا مقنعة لدى الأذكياء ، إذ كانت الكنيسة تعرف الخالق في صيغ مادية إنسانية ، في حين أن الإنسان كان يفتش عن القيم المطلقة في الخالق ، وأن يصعد من هذه الآفاق المحدودة في نفسه .

ولا شك في أن الحقيقة المسلمة لو طرحت على الأذهان بصورة قصصية ناقصة ، وبلغ الإنسان إلى مستواه العالي من الفكر والعلم ، كان لتصوره عن تلك الحقيقة آثار سيئة .

إن المثقفين على أساس تصورهم الخالق والدين ، كما في الإلهيات المسيحية ، وأن الإيمان مقدم على العقل ، وأن على أتباع الأديان أن يؤمنوا قبل أن يتعقلوا ، كانوا يدركون أن هذه النظريات الدينية المحدودة والضيقة وحصر الحكمة والعلم في إطار الإلهيات المسيحية لا ينسجم مع العقل ، وحيث لم يكن لهم سوى جهاز الكنيسة والكتب المحرفة ملجأ واقعي وصحيح للتعرف على المعارف الإلهية والتحقيق حول هذه المسائل ، ولم يستطيعوا أن يتوصلوا إلى نظام أسمى ، يتمكن من أن يؤمّن حاجاتهم المعنوية بالإضافة إلى حاجاتهم المادية ، ويقدم لهم إطاراً متناسباً لجميع عناصر الحياة المادية والمعنوية ، العاطفية والفكرية .. حينذاك نشأت لهم النظرة المادية في أفكارهم ونمت وانتهت بهم إلى إنكار القيم السامية غير المادية مما وراء الطبيعة .

من دون أن يلاحظوا أن الدين إذا وقع في مسير الجهل لم يتقدم إلا إلى الخطأ والغلط ، في حين أن الدين الصحيح البريء عن شائبة الموهومات والخرافات والتحريفات بإمكانه أن يحرر الإنسان من قيود الخرافات والأساطير ، وأن يثبته على محور العقيدة والصورة والمفاهيم

الصحيحة من المعارف الإلهية ، بحيث يعطي الإجابات الصحيحة لأهل التحقيق، ويصحح الأفكار والأخطاء بدلائل مقنعة وكافية؛ إلا أن هؤلاء حينما لم يروا الصورة الخرافية للدين الباطل مبنيّة إلّا على أساس غير منطقي ، لم يترددوا في عبثية البرامج الدينية ، ولهذا وعلى أساس هذه المسبقات الذهنية السيئة التي كانت لديهم عن الدين جلسوا يحكمون على جميع الأديان والمذاهب ! في حين أن ردّ أساس الأديان والمذاهب على أساس هذه الأحكام المستعجلة غير الواقعية خطأ وبعيد عن العقل والمنطق أيضاً .

يقرر هذه الواقعية (والتر اسكار) العالم الفيزيولوجي والبيوكيميائي يقول : « إن عدم التفات بعض العلماء في مطالعاتهم العلمية إلى إدراك وجود الله ، له عوامل متعددة نذكر منها عاملين :

الأول : إن الأوضاع السياسية الاستبدادية ، أو الأحوال الاجتماعية ، أو الإجراءات الحكومية ، غالباً ما تقتضي إنكار وجود الصانع سبحانه .

الثاني : إن الفكر الإنساني يتأثر حتى بالأوهام ، وحتى لو لم يكن الشخص تحت وطأة عذاب جسمي أو روحي مع ذلك لا يكون حرّاً كامل الحرية في اختيار وانتخاب الطريق .

أكثر الأطفال في العوائل المسيحية في أوائل أعمارهم يؤمنون بوجود إله شبيه بالإنسان ، وكأن الإنسان مخلوق على صورة الله ، هؤلاء حينما يدخلون المحيط العلمي ، ويشتغلون بتحصيل المسائل العلمية والتمرين فيها، لاينسجم هذا المفهوم الإنساني الضعيف عن الله مع المفاهيم العلمية والدلائل المنطقية ، وبعد مدة حينما يفتقد أمله في أيّ انسجام يخرج فكرة الله عن ذهنه .

والعلة الأساسية هي أن الدلائل المنطقية والتعريفات العلمية لا تتمكن من أن تغير المعتقدات السابقة عند هؤلاء، ومن جانب آخر يدرك أنه أخطأ في إيمانه بالله ، بالإضافة إلى عوامل أخرى نفسية تجعل الشخص يستوحش من

نقص هذه المفاهيم الدينية فيعرض وينصرف عن معرفة الله »[1] .

ولهذا حاول العلماء الصناعيون من هذه الطبقة أن يجدوا الحلول العلمية كبديل لكل مورد من مسائل الوجود والخلقة التي يمكن أن يأتي فيها ذكر عن الله أو الدين ، بل لم يتركوا أيّ محل لذكر الله أو الدين ، وتصوروا أنهم بهذا يقطعون أمل الناس في الأديان ، ويخلعون الله ويجردونه عن أيّ تأثير في نظام الطبيعة أو دوران العالم .

وحينما يصلون إلى البوابات المغلقة يحاولون حلّ المشكلة بالفرضيات المختلفة أو يحيلون الحلّ القطعي على المستقبل والتحقيقات الآتية ، هكذا امتنعوا عن أن يستسلموا للخرافات والأمور غير العلمية ، وهكذا خرجوا من ظلمات الشرك ولكنهم دخلوا إلى خنادق الإلحاد والزندقة ! .

إن معرفة الله والعقيدة بالمبدأ ، وإن كانت مسألة فطرية طبيعية ، ولكن حيث إن ضرورتها ليست كضرورة لوازم الحياة المادية التي يسعى الإنسان دائماً في سبيل تحصيلها ، بل هي حاجة فكرية متمايزة عن الحياة المادية ، وتستلزم دقة وعمقاً في النظر ونفوذاً إلى جذور الأمور وتحقيقاً في مسائل الوجود ، ولكل إنسان أن يدرك ذلك في ظل التدبر في حقائق الأمور . . وبالتالي فلا تشابه من حيث الماهية بين هاتين الحاجتين : المادية والفكرية .

ومن ناحية أخرى : حيث إن إنكار فكرة الموجود غير المرئي الذي لا يمكن أن يوصف وصفاً مادياً بليغاً ، أيسر من الاعتراف به ، ولذلك فالذين لم تستعدّ أذهانهم لقبول هذه الفكرة ، ولا سيما حيث تخللت أرضية معرفة تلك الحقيقة غير المرئية بعلل مختلفة ، وبالأخص حينما يتكاسل الإنسان عن تحمل عناء طيّ الطريق الفكري إليها ، يلجأ إلى الطريق الآخر الأيسر سلوكاً والذي لا قلق فيه ولا اضطراب (بالنسبة إلى الاضطراب الفكري الديني المسيحي عن الله) فيتجه نحو الإنكار والإلحاد ، مسيرة لا يحسّ فيها

---

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٦٠ (بالفارسية)

بأيّ ضرر وخسران بحسب الظاهر ، وبالابتعاد عن مسألة فكرة الله يتجه نحو العناد والخصام والعصبية .

ويمكننا معرفة عمق هذا الاتجاه بالمطالعة في التفسيرات الكونية الحاقدة لهؤلاء المعرضين عن الدين . .

ولا يمكننا أن نغضّ الطرف عن أثر تلقينات الجهلاء المتنسكين اللامنطقيين في دفع جمع من الناس لاعتناق فكرة المادية .

إن الغرائز التي تبدأ مع الحياة الطبيعية للإنسان وهي معقودة مع موجوديته، ليست غير عبث فحسب، بل هي قوى مصيرية وعوامل حركة ونمو تدفع الإنسان نحو الهدف من خلقته ، والمهم أنه كما لا يصح للإنسان أن يصبح عبداً أعمى لغرائزه كأسير يتحكم السجّان بوجوده وحركاته واختياراته ، كذلك لا يصحّ له أن يحارب واقعه المتحكم فيه فيوقف كل حركة أو محاولة لغرائزه ، بل إن إنتاج الطبائع الإنسانية يتوقف على فعاليتها في الإنسان ، ولكنّنا يجب أن نعتدل ونتوازن في تراكيبها وأعمالها ، وإلاّ فإن كبت الغرائز يولد العقد ويحطم الشخصية البشرية .

إن النظرة العامة السائدة على الكنيسة في القرون الوسطى كانت هي الاتجاه المطلق إلى الآخرة وهذا يعني خواء العالم المادّي ، وانظر ما هي النتائج فيما إذا لم نحسب الغرائز غير أصيلة فحسب بل عقدنا العزم على إماتتها ، وقدّسنا الرهبنة والتجرد ، وحسبنا الزواج وتشكيل الأسرة ـ التي بدونها لا يبقى النسل ـ رجساً نجساً ، والفقر والإعوازسعادة ، كل ذلك باسم الله والدين ! ثم ما هو دور مثل هذا الدين في البناء والتعمير للإنسانية ؟! .

إن رسالة الدين ودوره هو الإصلاح وقيادة غرائز الإنسان ، وتحديد مساحتها ، وتنزيهها عن الاعوجاج والانحراف والإفراط ، وليست رسالة الدين كبت الغرائز ومحوها .

إن الإنسان بضبط غرائزه،والحركة المستمرة باتجاه التحرر من قيودها

تمكن الإنسان من أن يصنع مصيره الهادف بيده وإرادته واختياره ، وإلّا فإن شدة التنازع الغريزي في طبيعة الإنسان بدرجة لا يتوفق معها بسهولة ويسر لتسخيرها دون أن يتمتع بتربية شاملة .

إن الإنسان متأثر بالجاذبية الدينية من ناحية بحيث ينقاد باطنياً للدين ويمسك بأمره بأزمة قواه المختلفة ، ويسوقها باتجاه الخير والصلاح . . ولكنه من ناحية أخرى يتأثر بالغرائز أيضاً بشدة .

إن المجتمع الذي يلقن فيه الناس باسم الله والدين : أن سبيل سعادتكم إنما هو في الإعراض عن المواهب الدنيوية ، فمن الطبيعي أن يضغط الإنسان بطبعه فيفتح طريقه إلى المادية والقيم المادّية ، ويدع المفاهيم الدينية السامية بجميع أبعادها جانباً .

في حين أن منطق الدين ليس هذا ، بل إن الأديان الحقيقية تنجي الإنسان من أسر رقّيّة النفس وعبودية المادة ، وتوسع دائرة رؤيته إلى عالم الملكوت من طريق توجيه الإنسان إلى القيم المعنوية الأصيلة ، على أساس الإيمان بذات الخالق والتعاليم الشاملة للدين والدنيا ، والتي تبيح له في نفس الوقت سهماً وافراً معقولاً من اللذائذ المادية .

ويتصوّر البعض أن الحرية فيما منع في الدين سعادة ، وأن الدين قد حارب جميع اللذائذ ولم يتبسم لها أبداً ، وأن الله خيّر الإنسان في واحدة من اثنتين من اللذائذ : إما الدنيا وإما الآخرة .

في حين أن هذا التصوّر عن الدين تصوّر ضال مضل ، ولا يطابق الواقع .

إن السبب في تدخل الدين في تعيين اتجاهات الإنسان هو أن الحرية في اللذة والاستسلام للطبيعة والشهوات النفسية من دون أيّ قيد أو شرط ، والتحرك والسلوك وفقاً لأوامرها يسبب تعاسة الحياة وعبودية الإنسان من حيث لا يشعر، بحيث ينتهي إلى السقوط من مقامه الواقعي ويبتعد عن طريقة الحق

على الرغم من طبيعته الطاهرة ، ولو لم تكن هذه المحرمات موجبة لسقوط الإنسان وشقائه الأبديّ لم تحرم ، بهذه الرؤية يمكن إدراك حكمة المحرّمات ، وكذلك سر انسجام سعادة الدنيا مع الآخرة .

كذلك الأمر بالنسبة إلى تكاليف الواجبات ، فإن وجوب العبادات والمساعي المخلصة غير المرائية محاولة لتغيير الإنسان ، لا للتقليل من لذّة الإنسان وسعادته الدنيوية .

إن العبادة تموج في المياه الراكدة في قلب الإنسان ، فإنها تغير موازين القيم والطبائع الإنسانية ، بل هي حجر زاوية عليها يستقر أساس الدين ، وأعمال تمرينية تربوية مثمرة تنفذ إلى أعماق روح الإنسان ، وإن لها حدة تقطع جميع حبائل الفساد والدناءة الذاتية ، وتعرج بالإنسان إلى الرحاب الطاهرة الخالدة ، وتمكن الإنسان من النمو والتطور الروحي والمعنوي ، ولا تناقض بين المعنويات ومسائل الحياة ، بل يستتر في المعنويات وسائل الانسجام لحياة سعيدة .

ولعل التعاليم المسيحية الناقصة هي التي أثرت في اتجاه أمثال (راسل) المادي المضادّ لله حتى أنه يرى أن الدين والعقيدة بالله تسبب شقاء الإنسان وتعاسته ! حيث يقول :

« إن تعاليم الكنيسة تجعل الإنسان بين شقاءين وحرمانين : إما شقاء الدنيا والحرمان من نعيمها ، أو الشقاء والحرمان من الآخرة والحور والقصور ، إن الكنيسة ترى أنه لا بدّ للإنسان من أن يتحمل أحد الشقاءين : إما أن يرضخ لشقاء الدنيا والانزواء فيها والحرمان منها فيتمتع بإزائها بعالم الآخرة ولذائذها، وإن أراد أن يتمتع باللذات والنعم في الدنيا فعليه أن يتقبل الحرمان في الآخرة » .

إن شيوع هذه الأفكار التي تحكي عن عدم الوعي العميق في الرؤية الدينية ، تعين مصير الدين في هذا القرن .

إن الأثر الذي خلفه هذا التصوّر عن الدين على أعمال الإنسان وأفكاره أعمق بكثير من أن نتجاوزه بنظرة عابرة . هذه الرؤية سببت اتجاه الإنسان إلى الماديات من حيث يشعر أو لا يشعر ، وعلى أثر الاتجاه المطلق إلى اللذائذ انهارت أسس المعنويات والأخلاق .

وليس الإنسان في الدين محكوماً بتحمل أحد الشقاءين ، بل من الممكن له أن يجمع بين سعادة الدنيا وسعادة الآخرة ، ولماذا لا يريد الله ذو الرحمة الواسعة السعادة الكاملة الشاملة للدنيا والآخرة لعباده ؟ بل إنه يريد ذلك قطعاً .

والدافع الآخر لتوسعة التفكير المادي هي الشهوات والهوى فكما أن كل رؤية فكرية تصبح أساساً للعمل ، والنظرة العقائدية هي التي تشكل خط سيره في الحياة ، كذلك العمل والأخلاق يؤثران في التكييفات الذهنية بل تغيير أساس تفكيره .

إن الإنسان الشهوي يفقد بالتدريج أفكاره الإلهية السامية ، إنه حينما اختار لنفسه محوراً عملياً غير الله وأخذ يفكر في انطلاق ما في العالم ولم يتقبل بل لم يتفهم الهدف والغاية من الخلقة ، انطلق يستعمل كل فكره في سبيل اكتساب اللذات والشهوات ، وفي هذا السقوط المهين تجف جذور روحه المتجهة نحو الكمال أيضاً .

وكذلك العقيدة بالله كمثل بذرة تحتاج إلى أرضية مساعدة لنموها ، وإنما تتفتح البذرة في محيط طاهر ، محيط يتمكن فيه الإنسان أن ينال كماله السامي بسرعة وسهولة في إطار خاص ومع تعيين خطوط أصلية ، إن العقيدة بالله فيما إذا كانت في بيئة غير مساعدة يشمل فيها الفساد ويتسع ، لا تثمر شيئاً .

إن ضجيج الحياة وصخب الماكنات الصناعية ، ووفرة الثروات والقدرات والجمال والكمال الخلاب المغرر ، وتنوع الوسائل للشهوات ، قد

أغفل البشر حتى أنساه نفسه . . حتى جعل يحاول بكل قواه كي يبعد نفسه عن الدين والديانة ومسائلها ، وأخذ يأبى الرضوخ لأيّ منظم لحياته دون إرادته ، ولا سيما منظم باسم الدين يقف سداً منيعاً دون هواه ومقاصده التوسعية من دون أن يحمل معه لصاحبه مصلحة مادية ملموسة ظاهراً .

وعلى هذا فلا يبقى من الدين في محيط لا يخضع فيه الناس لأيّ ضوابط أو قيود دون الانغماس في المعاصي واللامبالاة والفساد ، إلاّ الأسامي والرسوم ، وإن الذين يسعون وراء اللذة المادية لا يوحدون الله ولا يعبدونه ، فإنه إذا شغلت إحدى هاتين الفكرتين المادية والإلهية فضاء التفكير في الإنسان أخلت الفكرة الثانية مكانها ومضت لشأنها ، فإما أن تطرد الأخلاقية المادية روح عبودية الله في الإنسان وإما أن تكون عبودية الله هي التي تحكم وجود الإنسان، ومع كبح هوى النفس والمساعي المستمرة للارتقاء إلى مستوى الأهداف الإلهية يطرد الإنسان اتجاهاته المادية ، وبذلك يحقق في نفسه النموذج الكامل لتحرر الإنسان من أسر الطبيعة .

وكلما كان هدف الإنسان أرفع وأبعد ، كان الصعود إليه أعلى والسعي أكثر وأطول ، فلو اخترنا الله هدفاً كان أعلى الأهداف وكان طريق الوصول إليه خالداً بيناً مستقيماً ، وكان بإمكان هكذا هدف أن يجيب على كثير من المسائل والمشكلات ، وتتحقق الحرية في ظل كبح النفس .

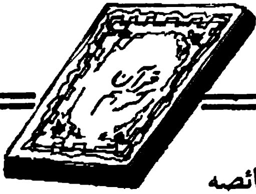
لو قبلنا الله هدفاً وجدنا الانسجام بين التكامل والحرية ، وتجد الأتعاب والمساعي التي يعملها البشر للوصول إلى الكمال معناها ومحتواها ومفهومها المعقول بعقيدة الحياة الأبدية والدوافع الإلهية ، إن التكامل في عبودية الله لا يناقض الحرية ولا يسبب أسراً أو رقيّة للإنسان .

وإنما نستطيع أن ندّعي التحرر فيما إذا تحققت مواكبتنا للسير التكاملي للعالم بإرادة وتصميم وتشخيص صلاحيتنا ، لا بجبر التأريخ أو الطبيعة ، إذ مواكبة الإنسان لأوامر الطبيعة ليست إلاّ أسراً له ، والتكامل الذي يتحقق بالتبعية الملزمة للطبيعة ليس إلاّ طاعة للطبيعة عمياء .

ولهذا فإننا نجد في المدرسة المادية ، التي ترى التكامل والسعادة في الحرية بمعنى الخروج عن أسر الطبيعة ، نجد في هذه المدرسة تناقضاً بين الحرية والتكامل ، فما هو معنى التكامل الذي يتابعه الإنسان كوظيفة تستغرق كل مساعيه ثم لا يحصل على حظ من ثمرات مستقبل هذه المساعي ؟ .

أليس السعي ـ وإن كان بدوافع إنسانية ـ لمن لا يعتقد بمبدأ للوجود لغواً ؟ مهما كان مثمراً للمجتمع ومفيداً ، لو كانت تضحيتي لكمال الإنسانية وتكامل النوع البشري ، ولكني لا أحصل على نتيجة من مفاداتي ولا أتمتع بشيء من ورائها ، كان هذا الهدف مخالفاً للحرية والعقل والمنطق .

إن زعماء المدرسة المادية الذين يرون أن المضادة بين التكامل والأسر مسألة مدهشة ، إنما هم ينظرون بهذا إلى التكامل المادي غير الإلهي والذي لا هدف له في الواقع .



صفات الخالق وخصائصه

القرآن كيف يصف الله ؟

عندما نريد أن نقيم شخصية علمية ومستوى معلومات مؤلف محقق ، نقبل على آثاره العلمية ونجعلها مورد التحقيق والتقييم ، ولكي نتوصل إلى مدى استعداد ومقدار قدرة فنان ما على خلق المبتكرات كان علينا أن نحقق في منتوجاته ومصنوعاته الفنية .

كذلك ندرك صفات الخالق وخصائصه من طريق التدبّر الدقيق في دقائق الموجودات وظرافتها ، ونتعرف على علم الخالق وحكمته وحياته وقدرته في حدود إدراكنا .

يجب علينا أن نقبل أن قوة معرفة الإنسان ليست بمستوى الحصول على معرفة جامعة شاملة عن الله سبحانه ، ولا يمكن التعرّف على خصائصه إلاّ في حدود قدرتنا على ذلك ، وإن كل قياس أو تمثيل بهذا الشأن من الخطأ الفاحش ، إذ كل ما هو مشهود في هذه الطبيعة إنما هو من مصنوعات الله سبحانه بأمره وإرادته ، وليس هو من الطبيعة في شيء ولا من سنخ مخلوقاته كي يكون إدراك ماهيته ممكناً من طريق القياس والتمثيل .

إنه وجود لا يوجد أيّ مقياس لمعرفة ذاته ، ولا أيّ إحصائية أو أرقام

لتعيين مدى قدرته أو مستوى علمه تعالى .

وعلى هذا ، أليس الإنسان أعجز وأحقر من أن يدرك ذات هكذا حقيقة عالية أو حتى صفاتها ؟! .

وفي نفس الوقت لا يستلزم الاعتراف بالعجز عن المعرفة الكاملة والوسيعة والعميقة ، أن نكون قاصرين عن أيّ معرفة نسبية ولو كانت قصيرة ، فإن نظام الوجود يصرخ بصفاته ، وبإمكاننا أن نرى قدرته وابتداعه الخلق من طريق النظر في مظاهر الطبيعة وجمالها وقيمها .

إن مشاهدة الإرادة والشعور والعلم والإدراك والانسجام والتوازن في النظام الموجود ، وظواهر الحياة المختلفة ، تمكننا من أن ندرك أن هذه المفاهيم المذكورة ، وكل ما يحكي عن هدف في النظام إنما هي نابعة عن إرادة خالق يتصف بجميع هذه الخصائص ، حتى يمكنه أن يعكس منها شيئاً على موجودات هذا العالم .

إن قوة الفكر الغريبة هي التي تتعرّف على الله وتلمس وجوده ، قوة الفكر التي هي بارقة من بوارق أوامره التي لا تزال تفيض على المادة؛ الأمر الذي وهب للفكر قوة إدراك المعنى والنفوذ إلى الحقيقة ، وإن معرفة الحق إنما تتجلى بهذه الموهبة العظيمة .

* * *

إن معرفة الخالق بنيت في الإسلام على أساس جديد بيّن ، فالقرآن الكريم يتابع هذه المسألة بأسلوب التساؤل بين النفي والإثبات، والقرآن هو المصدر الأساس لمعرفة رؤية الإسلام العامة .

إن القرآن ينفي الآلهة الباطلة ببراهين مضيئة ، إذ قبل التوصل إلى التوحيد يجب رفع جميع صور الشرك وعبودية ما سوى الله ، فهذه هي الخطوط المهمة الأولى التي تمهد السبيل إلى التوحيد .

يقول القرآن الكريم :

﴿ **أم اتخذوا من دونه آلهة ؟ قل : هاتوا برهانكم ، هذا ذكر من معي وذكر من قبلي ، بل أكثرهم لا يعلمون الحق فهم معرضون** ﴾[1] .

ويقــول :

﴿ **قل : أتعبدون من دون الله ما لا يملك لكم ضراً ولا نفعاً ؟! والله هو السميع العليم** ﴾[2] .

إن الذي تنقطع علاقته بالتوحيد ينسى علاقته وموقعيته في عالم الوجود بل ينسى حتى نفسه ويفقدها، فإن قطع العلاقة بالفطرة الإنسانية آخر مراحل فقدان الذات ، وإنما يصبح الإنسان أجنبياً مع ذاته وفطرته بتأثير من مختلف العوامل النفسية والخارجية ، وحينما يصبح الإنسان أجنبياً مع نفسه ينقطع عن خالقه ويدخل في عبودية غيره ويستبدل هذه العبودية عن التعقل والمنطق ، وهذا هو ارتداد إلى عبادة ظواهر الطبيعة ومظاهرها ، فسواء إن سجدنا للأوثان أو توهمنا أن الأصل في الوجود هو المادة ، فكلاهما ارتداد إلى الوراء ورجعية تسلب الإنسان ما يساعده على نموه الذاتي الإنساني .

إن التوحيد هو القوة الوحيدة التي تيسر للإنسان أن يكون مع نفسه وذاته وفطرته وقيمه الإنسانية ، وإنما يجد الإنسان نفسه في ظل قيمه الإنسانية ، ويكملها بالانسجام مع طبيعته الإنسانية وماهية وجوده .

ولقد كانت النبوّات والرسالات السماوية الإلهية تبدأ بالنهضة لإعلان الدعوة إلى التوحيد ، بمعنى ربوبية الإله الواحد ، ولا نجد في اللغات البشرية كلمة أغنى من كلمة التوحيد ، وأثرى بالمفاهيم البناءة التي تستوعب النواحي المختلفة لحياة الإنسان وتحجزه عن التحريفات .

---

(١) سورة الأنبياء : الآية ٢٤ .

(٢) سورة المائدة : الآية ٧٦ .

ونجد القرآن يرينا طريق معرفة الله بدلائل بينة منها قوله سبحانه :

﴿ أم خلقوا من غير شيء ؟ أم هم الخالقون * أم خلقوا السموات والأرض ؟ بل لا يوقنون ﴾[١] .

ويترك القرآن الحكم ببطلان افتراض أن يكون الإنسان مخلوقاً من لا شيء وبدون خالق ، وكذلك افتراض أن يكون هو خالق نفسه ، يترك حكمهما إلى العقل الفطري للإنسان السليم ، كي يذهب الإنسان بهذين الافتراضين إلى مختبر عقله فيحللهما ، وبالتفكير في آيات الله يتعرّف على منبع الوجود بصورة قطعية يقينية بالغة ، ويدرك بنفسه أن لا سبيل إلى تقييم عالم الوجود بدون وجود مدّبر منظم خلف هذه الظواهر والمظاهر ، وفي آيات أخرى يدعو القرآن الفكر الإنساني إلى التفكير في كيفية خلقته التدرجية، ثم ينتهي بهذه الخلقة البديعة بما فيها من عجائب الصنع والتدبير إلى أنها من آثار وآيات قدرة الله اللانهائية ، التي تداعب الكائنات بنفوذها وهيمنتها ، يقول :

﴿ ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة علقة فخلقنا العلقة مضغة فخلقنا المضغة عظاماً فكسونا العظام لحماً ثم أنشأناه خلقاً آخر فتبارك الله أحسن الخالقين ﴾[٢] .

ولعل الخلق الآخر إشارة إلى توظيف خلايا الأعضاء : العين والأذن والمخ وغيرها ، وبدئها حركتها الدائبة ، والقرآن في تصويره هذا يلفت الإنسان إلى التفكير : هل يمكن أن تعقل كل هذه التحوّلات العجيبة المدهشة مع افتراض عدم الخالق ؟ أم أن هذه الظواهر تؤكد لزوم وجود هندسة دقيقة وقيادة صحيحة وإرادة عالمة وبرنامج معين ، فهل يمكن أن تتعهد هذه الخلايا بوظائفها وتؤديها بكل دقة ونظام من دون إرادة مدبّر عالم

---

(١) سورة الطور : الأيتان ٣٥ ـ ٣٦ .

(٢) سورة المؤمنون : الآيات ١٢ ـ ١٣ ـ ١٤ .

حكيم ، ثم يتبلور هذا العالم بهذه الكيفية الموجودة ؟ ويجيب القرآن على هذا التساؤل يقول :

﴿ هو الله الخالق البارىء المصوّر ﴾[1] .

فهو الخالق للأجزاء الأصلية وهو البارىء لأجزاء كل عضو وهو المصوّر للصور المختلفة .

يقول الدكتور (كارل) : « إن تركيب الأعضاء أشبه بأساطير الجن التي تقصّ على الأطفال ، فهي من عمل الخلايا التي كأنما هي عالمة بالأشكال التي يجب أن تكون الأعضاء عليها ، وهي التي تعدّ التصاميم وكذلك المواد الإنشائية وتجعلها في متناول العمل والعمال »[2] .

إن القرآن يتناول كل محسوس يراه الإنسان حوله وينبه الإنسان إلى التفكير فيه بدقة واستنتاج النتائج ، ويقول :

﴿ وإلهكم إله واحد لا إله إلاّ هو الرحمن الرحيم * إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبثّ فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون ﴾[3] .

﴿ قل انظروا ماذا في السموات والأرض ؟ ﴾[4] .

إن القرآن الكريم يذكر تأريخ الإنسانية وتطوراته والسير في مصائر الأمم الماضية على أنه من المصادر الخاصة للمعرفة ، وهو يسترعي انتباه الإنسان لكشف الحقيقة إلى النظر في الانتصارات والانكسارات والهزائم

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢٤ .

(٢) الإنسان ذلك المجهول .

(٣) سورة البقرة : الآيتان ١٦٣ ـ ١٦٤ .

(٤) سورة يونس : الآية ١٠١ .

والمعـظمات والتعـاسة والسعـادات للأمم المختلفـة السابقـة ، كي يحـاول إخضاع تأريخه المعاصر لإرادته من خلال معرفته بقوانين التأريخ وحساباتـه الدقيقة والمنظمة، والاستفادة منها لنفسه ومجتمعه، ويقول القرآن الكريم .

﴿ قد خلت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾[1] .

﴿ لقد أنزلنا إليكم كتاباً فيه ذكركم أفلا تعقلون * وكم قصمنا من قرية كانت ظالمة وأنشأنا بعدها قوماً آخرين ﴾[2] .

إن القرآن الكريم يرى النفس الإنسانية ، أيضاً منبعاً آخر للفكر المفيد لكشف الحقيقة ، ويوليها أهمية خاصة ، فيقول :

﴿ سنـريهم آيـاتنـا في الآفـاق وفي أنفسهم حتى يتبين لـهم أنـه الحق ﴾[3] .

﴿ وفي الأرض آيات للموقنين *وفي أنفسكم أفلا تبصرون ﴾[4] .

يعني القرآن نفس هذا الجهاز البدني ، وجمال صورته المتناسبة بما له من أجهزة وعمليات وأفعال وردود أفعال،وبما فيه من تقنية دقيقة وظريفة ، وبما أودع فيه من القوى والغرائـز والإدراكات والعـواطف وأنواع الإحسـاس الإنساني والحيواني ، ولا سيما قوة الفكر المحيِّرة ، ومـا دام البشر لم يخط كثيراً في طريق معرفة القوى المعنويـة والطاقـات غير المحسـوسة ، وكيفيـة علاقاتها بأعضاء الجسم المادي ، فإنه يبقى منبعاً فياضاً للمعرفة .

إن القـرآن يعلن كفايـة الفكرة والتحقيق في النفس الإنسـانية لهـداية

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٣٧ .

(٢) سورة الأنبياء : الآيتان ١٠ ـ ١١

(٣) سورة فصلت · الآية ٥٣ .

(٤) سورة الذاريات الآيتان ٢٠ ـ ٢١ .

الإنسان إلى منبع الوجود اللامحدود في علمه وقدرته وغناه وحكمته ، كي يعلم الإنسان أنه هو الذي ركب في الإنسان هذه المجموعة من الخصال والخلال المثمرة ووهب لها الوجود والحياة .

ثم يقول القرآن : أيها الإنسان ، بعد وجود هذه الآيات الحية والحجج القاطعة للتحقيق في معرفة الخالق، والتي ركبت في نفسك ، لا عذر لك للإنكار أو الانحراف عنه أبداً .

* * *

إن القرآن الكريم يصف الله سبحانه بصفات يثبتها له وأخرى ينفيها عنه ، صفات الله المثبتة كالعلم والقدرة والإرادة ، وأن وجوده لا يسبقه عدم ولا أوّل لوجوده ، وأن الكون يدور لا حول له إلاّ بأمره وإرادته وقدرته .

يقول القرآن الكريم :

﴿ هو الله الذي لا إله إلاّ هو عالم الغيب والشهادة هو الرحمان الرحيم * هو الله الذي لا إله إلاّ هو الملك القدّوس السلام المؤمن المهيمن العزيز الجبّار المتكبّر ، سبحان الله عمّا يشركون ﴾(١) .

﴿ سبحان ربك ربّ العزّة عمّا يصفون ﴾(٢) .

إن العقل البشري المحدود أقصر من أن يقضي بشيء في مقام ذات الله القادر ، ونحن نعترف بعجزنا عن درك كنه ذلك الوجود الذي لا مثيل له ولا نموذج في إحساسنا وأفكارنا ، فإنه مقام تبقى فيه أعمق المدارس الفكرية وأكبر أساليب المعرفة البشرية متحيرة لا تهتدي سبيلاً .

إن الذات الواحدة بتمام المعنى والمنزهة عن التركيب لا ريب

---

(١) سورة الحشر : الآيتان ٢٢ ـ ٢٣ .

(٢) سورة الصافات : الآية ١٨٠ .

تستجمع جميع الكمالات ، إذ لا كمال أعلى من الوجود المطلق اللامحدود ، فلو كان هناك كمال خارج عن هذا الوجود اللامحدود لزم أن يكون مطلقاً غير محدود .

وكما أن الموجودات لا بدّ من أن تنتهي إلى ذات واجبة الوجود ، بمعنى أن يكون وجودها من نفسها لا من غيرها بل تكون هي عين الوجود ، وتكون سائر الموجودات متعلقة في وجودها بتلك الذات وذلك الوجود المطلق ، كذلك ما يوجد في هذا العالم من صفات الكمال كالحياة والقدرة والعلم لا بدّ أن ترجع إلى حياة وقدرة وعلم مستقل مطلق ، تكون هذه الصفات من خصائص ذلك الوجود اللامحدود .

أوصاف المعبود الكامل المطلق

إن الله ربّ العالمين ـ كما يصفه القرآن الكريم ـ جامع لجميع شروط المعبود الكامل المطلق ، فهو خالق الحسن والجمال والكمال ، وموجد جميع القوى والقدرات ، وإن معرفته بحر لا يدركه غواص العقول والألباب ، هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا ، وإن وكل هذا العالم إلى نفسه وقطع عنه عنايته فإنه يتلاشى كأن لم يكن شيئاً مذكوراً ، فإن كل شيء يستند في وجوده وثباته إلى الله سبحانه .

هو واهب جميع النعم والسعادات ، وهو الذي بيده نواصينا ، وهو الذي إذا أراد شيئاً قال له : كن ، فيكون .

هو الحق وهو الحقيقة ، ومنه العدل والحرية وجميع الفضائل والكمالات ، والتقرب إليه يعني التقرّب إلى جميع الفضائل في حدّها الأعلى ، ومن أحبه فقد أحب حبيباً رحماناً رحيماً ، ومن توكّل عليه كان مؤملاً أملاً وطيداً متيناً حكيماً ، ومن اعتمد على سواه كان مبطلاً ومستنداً إلى الريح .

هو الذي بيده تقرير مصيرنا بالسعادة إذ هو الذي لا تخفى عليه خافية في السماوات والأرضين ، وهو الذي له أن يشرع شريعة الإنسان في الحياة

وعلاقاته بهذا الكون الرحيب ، إذ هو العالم بالمصالح الواقعية للإنسان ، وإن اختصاص هذا الحق بالله سبحانه نتيجة طبيعية ومنطقية لربوبيته سبحانه ، وإن العمل بالبرنامج الإلهي وحده هو الذي يكفل سموّ نفوسنا بشكل مؤكد . . وكيف يمكن لإنسان أن يحبَّ الحقيقة والعدالة إلى درجة أن يفدي نفسه في سبيلها وهو يعرض عن منبع العدل والحق ؟! .

لو كان هناك شيء يستحق الحمد والتسبيح والتعبد فليس هو إلاّ الله قطب رحى الوجود ، ثم لا شيء ولا أحد يستحق أن يكون في رتبة تؤهله إلى أن يستعبد الإنسان ، إذ الأوصاف الكمالية في سوى الله سبحانه ليست مطلقة ولا أصيلة في وجودها بل هي نسبية متحدة مع الغير .

إن الدليل الأصيل للعبودية للخالق هو إنعام الخالق علينا وعلمه بإمكاناتنا وحاجاتنا وذخائرنا واستعداداتنا وطاقاتنا المودعة في أجسامنا ، إذن فالعبودية لله وحده الذي إليه يستند كل موجود في وجوده وعليه يعتمد ، وإليه تسير قوافل الكائنات في حركة دائبة دائمة بمدده ، وأمره الماضي في كل نقطة نقطة من هذا العالم .

وعلى هذا فإن الانقياد والعبودية خاصة بذاته القدسية ، الذي لا يغيب حضوره عن أفئدة كل ذرة ذرة من الموجودات ، ولا يليق بالعبودية أيّ موجود مماثل لنا تستوعبه صفات العجز والفقر ، إنه لا ينبغي له أن يغتصب مجال حكم الله سبحانه في صعيد الحياة ، والعنصر الإنساني الكريم أكرم من أن يخضع لموجود مثله محتاج .

إن الوجود الذي ينبغي للإنسان أن يعبده هو الله وحده ، وهو الذي يجب على الإنسان أن يقدم مساعيه لطلب رضاه سبحانه على رضا كل محبوب وموجود سواه ، وهذا يعني تكريم الإنسان وتقييمه ، إن الإنسان قطرة لو لم تتصل بالبحر كانت في معرض التلف والفساد والجفاف ، وإنما يجد هويته الواقعية ويخلد مكرماً فيما إذا اتصل بذلك المنبع الفياض ، وأصبح ربه هو المعنى الصحيح لحياته وهو الذي يكمن وراء جميع حوادث الحياة ،

ومن هنا يمكننا أن نعرف سعة عوالم الأفراد وضيقها باختلافهم .

نحن إما أن نحسب العدل والشرف والفضل وكل خصلة من الخصال المحترمة والمستحسنة من الأوهام والخيالات ، أو أن نعدها من الواقعيات بحكم الوجدان والفطرة وضرورة الواقعية ، وعلى كلتا الحالتين لا بدّ لنا من الخضوع أمام تلك الحقيقة الكلية للوجود والكمال المطلق الفيّاض بالخير والحياة والقدرة وسائر القيم .

كيف يمكننا أن نعترف بأن طبائعنا بما فيها من حاجات وغرائز وعواطف نابعة من ضمائرنا وكل ما فيها من طاقات واستعدادات وروحيات ، غير قابلة للإنكار ، بينما نغضّ النظر عن ما يناسب هذه الطبيعة والفطرة الإنسانية ، وعن من أوصافه الغاية القصوى لمنتهى آمالنا المادية والمعنوية ، وهي تدفع بالإنسان إلى كل حركة مباركة ؟ .

إننا إذا ما أنعمنا النظر ، أدركنا أن جميع موجودات العالم غير المعدودة ، وجميع الحاجات المتجذرة في أعماق وجودنا ، كلها تنتهي إلى نقطة واحدة ومنبع واحد هو الله ، الذي لا واقعية ولا ماهية للعالم إلاّ بالإضافة والنسبة إليه والتعلق به سبحانه ، والوجود الذي بدأ من تلك النقطة يرجع إليها مرة أخرى ، إنه وحده الذي ينبغي أن يعبد ، وإذا وجده العبد وتعبده أحبه وأحب جلاله وكماله المطلق حباً ينسى معه ما سواه .

إننا نرى أن جميع الظواهر إنما وجدت من العدم ، وهي في مدة بقائها القصيرة أو المديدة محتاجة إلى إمداده واعتماده ، ومطبوعة على الحاجة والفاقة وعدم الاستقلال .

إن الإله المعبود الذي نطلبه كي نتقرّب إليه إن كان جاهلاً بآمالنا وآلامنا وحقائق العالم أو قاصراً عن حاجاتنا وأمانينا ، بل كان مثلنا قاصراً ضعيفاً ، فكيف نجعله هدفاً لنا وغاية ونصفه بالكمال المطلق ؟ والعبادة لو كانت

للحاجة فالخالق وحده هو القادر على قضائها دون سواه ، ويقول القرآن الكريم :

﴿ إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم ﴾[1] .

وعلى هذا فإن الخضوع أمام غيره والتوجه لسواه ليس له أيّ مبرر ، وليس له أيّ أثر في مصيرنا وعواقبنا ، إذ لو كان الإله مستحقاً للعبودية فلا بدّ أن يكون مبرّأً من كل عيب ونقيصة وقادراً على إيصال الإنسان إلى قمة السعادة العليا ، ممدّاً لحياة الموجودات بأشعته الخالدة الفياضة ، مذللاً بجماله الباهر قلب كل ذي ضمير ، صاحب قدرة غير محدودة ، قاضياً لجميع حاجات الإنسان الروحية والمعنوية ، وهو من ليس التوصل إلى معرفته سوى التوصل إلى المنبع الحقيقي للفطرة الإنسانية .

وإلّا ، فلو كان معبودنا الذي نختاره ممتازاً في جهات خاصة قاضياً لبعض حاجاتنا ، فإنه سيفقد صفة الألوهية لدينا فيما إذا توصلنا إلى مستوى رفع حاجاتنا به بحيث أصبح قاصراً عن كمال أسمى من ذلك المستوى، وإذا توقفنا عنده فسيكون سبباً لتوقفنا وركودنا ، وحينذاك فلا تشفي عبادتنا له غليلنا بل يمنعنا عن التفكير في أيّ كمال أسمى ويحبسنا في دائرة ضيقة محدودة ، ونفقد بذلك الدافع للرقيّ إلى المدارج العليا ، وإذا ما استوينا مع إلهنا ـ فضلاً عما إذا تقدمناه وسبقناه ـ فلن يكون سبباً لصلاحنا ولا دافعاً لرقينا ، بل إن اتجاهنا إليه ينتهي بنا إلى الانحطاط والنزول ، وحينذاك يصبح الإنسان كعقربة مغناطيسية أعرضت عن قطبها ووجهتها الطبيعية ودخلت في طيف مغناطيسي لعنصر غريب عنها ، والذي لا يورثها سوى الحيرة والضلال ، وحينئذٍ تصبح التعاسة والشقاء الأبدي للإنسان مما لا مفر عنه أبداً ! .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ١٩٤ .

الدعاء أعلى سمات الشاكرين

إنما المعبود والإله الذي يتمكن من أن يوجه حركة الإنسان إلى الوجهة الصحيحة ، والذي يستطيع أن يضيء بنوره متاهات السائرين هو ذلك الإله القادر على أن يهب الأمل للإنسان ، والذي يكون في أسمى درجات الوجود المؤثر والثابت والدائم ، كي يكون بذلك منشئاً للآثار المعنوية الخفية وهادياً للفكر والعمل ، وميسراً سبيل المسيرة التكاملية للإنسان الذي هو حصيلة حكمته العالية .

إن أيّ سعي أو حركة بدائية للإنسان نحو الأهداف المنحرفة ، وسيره في تلك المتاهات يجرّه إلى بعده عن شخصيته ومحتواه، ومسخه عن ماهيته الحقيقية .

لا يمكن للإنسان أن يعرف نفسه حينما هو بعيد عن معرفة خالقه ، وإن التغافل عن الله يلازمه أن ينسى الإنسان نفسه ويظل غافلاً عن الأهداف العامة لحياة الإنسان والعالم الذي يحويه ، وبالتالي عن الفكر في كل القيم السامية .

وبمقدار ما يجعل الاتجاه إلى غير الله الإنسان غريباً عن نفسه ويبدله إلى ماكنة متحركة بيولوجية ، فإن الاعتماد على الله وعبادته تنقذ الإنسان الغريق في أعماق بحار الغفلة والفاقد للحياة المعنوية ، وتجعله يصحو لنفسه

ويرجع إليها ، وفي ظل عبادة الحق المطلق تنمو الطاقات الملكوتية والروحية ، ويصل الإنسان بها إلى مدى حقارة آماله ومناه الرخيصة واللامحدودة بنفس الوقت ، ويصل كذلك إلى نقصه ونقاط ضعفه الذاتية ، وبكملة : يرى نفسه كما هي على حقيقتها « من عرف ربّه فقد عرف نفسه » .

إن ذكر الله والتقرّب إليه ينور القلب ويحيي الفؤاد ، وهو مليء باللذة ، لذة لا تقاس بلذائذ العالم المادّي . وبكلمة : إن الأفكار تسمو والقيم تتقدر حسب حقيقتها بالتوجه إلى تلك الحقيقة المعنوية المجردة .

وهكذا يتحدّث الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) عن الأثر العجيب لذكر الله في القلوب :

« إن الله سبحانه وتعالى جعل الذكر جلاء للقلوب ، تسمع به بعد الوقرة ، وتبصر به بعد العشوة ، وتنقاد بعد المعاندة »[1] .

ويقول (عليه السلام) أيضاً : «اللهم إنك آنس الأنسين لأوليائك ، وأحضرهم بالكفاية للمتوكلين عليك ، تشاهدهم في سرائرهم ، وتطلع عليهم في ضمائرهم ، وتعلم مبلغ بصائرهم ، فأسرارهم لك مكشوفة وقلوبهم إليك ملهوفة ، إن أوحشتهم الغربة آنسهم ذكرك ، وإن صبت عليهم المصائب لجأوا إلى الاستجارة بك ، علماً بأن أزمة الأمور بيدك ، ومصادرها عن قضائك »[2] .

ويقول عالم النفس المعروف (ويليام جيمز) : « إن دافع الإنسان إلى العبادة ، هو نتيجة ضرورية لهذا الأمر ، وهو أن الشعور الذاتي للإنسان وإن كان من أعمق أقسام الاختيارات الذاتية والعملية ، فهو ـ مع هذا ـ لا يجد صاحبه الكامل إلاّ في عالم الفكر ، وأكثر الناس يرجعون إليه إما بصورة

(١) الخطبة : ٢٢٠ من نهج البلاغة .

(٢) الخطبة : ٢٢٥ من نهج البلاغة .

مستمرة أو صدفة ، وهكذا وبهذا التوجه إلى الكامل يقيم ويقوم نفسه حتى أحقر من في الأرض ويجد نفسه حقيقة واقعية »[1] .

إن أعلى وأسمى صورة لشكر الإنسان على عتبة الإله الحق ، هي العبادة وإظهار حبّ ذلك الكمال المطلق ، وهي حركة مواكبة لجميع الموجودات التي تسبح كلها بحمده وتقدّس له :

﴿ تسبّح له السموات السبع والأرض ومن فيهنّ ، وإن من شيء إلاّ يسبّح بحمده ولكن لا تفقهون تسبيحهم ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾[2] .

ولا ريب أن هذه العبادة لا تنفع الخالق شيئاً ، إذ له الكمال بل هو الكمال المطلق ، ولا سبيل لشيء من النقص والزيادة إليه أبداً ، فكيف يتصوّر أن يكون قد خلق الإنسان لينتفع بعبادته ؟ أجل ، هذا هو الإنسان الذي يبلغ هدفه النهائي وهو كماله الواقعي بمعرفته الحقيقة المطلقة وعبادته لله سبحانه .

يقول البروفيسور (رايموند راويه) أستاذ الفلسفة والفيزيائي المعروف ، بشأن وجود الشعور لدى الكائنات :

« إن العلم الحديث يقول : إن الذرّات والكريات كلها تعلم بما تعمل ، وهي تشعر بأعمالها وحركة حياتها الدائبة ، وهي في شعورها هذا أعلم حتى من علماء الفيزياء ، فإن الذي يعلمه علماء الفيزياء هو أن هذه الذرّة لو لم تكن محسوسة يمكننا التعرّف عليها من كان يعلم بشأنها شيئاً ؟

إن الجسم والحركة والسرعة ، هنا وهناك ، والأشعة والتوازن والفضاء والفواصل وغيرها إنما وجدت ببركة هذه الذرّات ، فلو لم تكن هذه الذرّات من كان يوجد كل هذه الظواهر الغريبة في عالم الوجود ؟ وإن بين الشعور

---

(١) إحياء الفكر الديني ص ١٠٥ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ٤٤ .

والجسم من النسبة بمستوى ما بين الحركة والسكون والسلب والإيجاب في الحركة .

ولكن الفضاء ليس أعمى بنفسه ، لـو تتذكـرون ، فقد ثبت لـدينا أن العين هـو العنصـر الأصلي في المشـاهـدات ، ولكن حيث كـان محـدوداً بحدود قدرة البشر وهومشدود إلى الأرض وبين الموجـودات الأرضية ، فقـد تحـدّد صعيـد عمله الفيـزيـائي ، فبيـن الأرض والشـمس ، والشـمس والمجرّات ، والمجرّات والكواكب الكبرى القصوى ، لا فرصة لعضو كائن أرضيّ مثل العين كي يبرز ويثمر .

ولكن بنفس هـذا الـدليـل لا نستـطيـع أن نصـدّق أن يسـود العمى واللاشعور في ميدان تبادل القوى والقدرات العظيمة كالمجرّات التي تحكمها قـوانين الجاذبيـة والتوازن والحـركات والنـور والسرعـة والابتعاد عن مـركـز الدائرة ، بل لا عمى لهذه الموجودات العجيبة ، وحتى ذرّات النور ليست في حركاتها بريداً بليداً لإيصال الأخبار والإشارات »[1] .

* * *

(١)ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٦١ و٩٩ (بالفارسية) .

لا سبيل للقياس بصفاته

نحن وإن كنا في محاولتنا لوصف الخالق وصفاته نحتاج إلى مصطلحات تؤدي تلك المفاهيم ، إلاّ أن هذه المصطلحات التي نستعملها نحن هي أعجز عن الوصول بنا إلى هدف الوصف الواقعي له سبحانه ، إذ أن أفهامنا المحدودة لا تدرك كيفية أوصاف ذات الحق سبحانه ، وهو أعلى وأسمى من جميع هذه المفاهيم المصوغة في أذهاننا .

إن الإنسان المخلوق والمحدود لا ينبغي له أن يطمع في قياس الوجود غير المادي بالأوصاف والخصائص المادية ، أو أن يبين للناس ذلك الوجود بهذه الأوصاف .

إن البحث حول تلك الحقيقة التي هي غير هذه الموجودات الطبيعية الممكنة ، وعن قدرته وعلمه غير المحدود والمحيط بكل ما سواه ، وكما يقول القرآن الكريم : ﴿ ليس كمثله شيء ﴾[1] .

إن البحث لا ريب في أنه بحث علمي دقيق .

يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« ما وحّده من كيّفه ، ولا حقيقته أصاب من مثّله ، ولا إياه عنى من

(١) سورة الشورى : الآية ١١

شبهه ، ولا صمده من أشار إليه وتوهمه ، كل معروف بنفسه مصنوع وكل قائم في سواه معلول ، فاعل لا باضطراب آلة ، مقدر لا بجول فكرة ، غنيّ لا باستفادة ، لا تصحبه الأوقات ، ولا ترفده الأدوات ، سبق الأوقات كونه ، والعدم وجوده ، والابتداء أزله ، بتشعيره المشاعر عرف أن لا مشعر له ، وبمضادته بين الأمور عرف أن لا ضدّ له ، وبمقارنته بين الأشياء عرف أن لا قرين له ، ضادّ النور بالظلمة ، والوضوح بالبهمة ، والجمود بالبلل ، والحرور بالصرد ، مؤلف بين متعادياتها ، مقارن بين متبايناتها ، مقرب بين متباعداتها ، مفرق بين متدانياتها ، لا يشمل بحد ، ولا يحسب بعدّ ، وإنما تحدّ الأدوات أنفسها ، وتشير الآلات إلى نظائرها »[1] .

إن وجود الفارق بين صفات الله سبحانه وصفاتنا وعدم إمكان القياس بينهما ، بسبب تفاوت مفاهيم الصفات في منبع الوجود عن الصفات في سائر الموجودات .

فمثلاً : نحن قادرون على بعض الأعمال ، ولكن ليست هذه القدرة كقدرة الله عليها ، إذ أن صفة القدرة فينا شيء وموصوف هذه القدرة شيء آخر .

أو حينما نتكلم نحن عن علمنا بشيء لسنا نحن وهذا العلم شيئاً واحداً ، إذ لم يكن في وجودنا على عهد الطفولة أيّ أثر من هذه المعرفة العلمية ، ثم اكتسبنا هذه المعلومات بالتعلم وبالتدريج ، والعلم والقدرة يشكلان ناحيتين متمايزتين عن وجودنا نحن ، وليست هذه الصفات عين ذواتنا ، ولا متحدة مع وجودنا ، بل الصفات عارضة ووجودنا معروض لها ، ولكل منهما حساب خاص .

وليست القضية بالنسبة إلى الله بهذه الصورة ، فحينما نقول : إن الله عالم وقدير نقصد أنه سبحانه هو منبع العلم والقدرة ، وهنا ليست الصفة شيئاً

---

(١) الخطبة : ١٨١ نهج البلاغة .

غير نفس الموصوف وإن كانا متفاوتين من حيث المفهوم ، فصفاته في الواقع عين ذاته سبحانه ، إذ لا معروض هناك حتى يعرض عليه شيء ، بل هو وجود مطلق عين العلم والقدرة والحياة والثبوت والتحقق بحيث لا يصحبه أيّ قيد أو حدّ عقلي أو خارجي .

وحيث إن تربيتنا لا تكون إلاّ في حجر الطبيعة ، وإن لنا أنساً متواصلاً بهذا الجهاز الطبيعي ، وإن كل ما نراه له أبعاد وأشكال خاصة ، وزمان ومكان وخواص الأجسام ، فبسبب أنس أذهاننا بمفاهيم ظواهر هذه الطبيعة نحاول أن نقيس كل شيء بمقاييسها ، وحتى أن مفاهيمنا الفكرية والعقلية تنشأ من هنا منذ اليوم الأول حسب التحقيقات العلمية والفلسفية .

وعلى هذا فإن تصوّر وجود ليست له أيّ خاصة من خواص المادة بحيث إن كل ما يتصور في أذهاننا فهو غير تلك الصورة ، وإن درك صفات ذات لا تكون الصفات فيه منفكة عنه ـ بالإضافة إلى ما يستلزم من الدقة المتناهية ـ يوجب أن نفرغ أذهاننا بصورة كاملة عن تصوّر الموجودات المادية .

ولأمير المؤمنين عليّ (عليه السلام) بهذا الصدد بيان بليغ وغنيّ وعميق ، يؤكد فيه على عدم قدرة الإنسان على تحديد الله في قيود الأوصاف كما يتصوّر ، يقول :

« كمال توحيده نفي الصفات عنه ، لشهادة كل صفة أنها غير الموصوف ، فمن وصفه فقد قرنه ، ومن قرنه فقد جزّأه ، ومن جزّأه فقد جهله »[1] .

إن المفاهيم الذهنية ، لا تتمكن من أن تحدد الله في حدود الصفات أو تنطبق على وجوده سبحانه كالمفهوم على المصداق ، لأن كل واحدة من الصفات ، والمفاهيم من حيث مفهومها الخاص هي غير سائر الصفات ،

---

(١) الخطبة الأولى من نهج البلاغة .

فمثلاً مفهوم الحياة أجنبيّ عن مفهوم القدرة غير منطبق أحدهما على الآخر ، وإن كان من الممكن أن يستوعب مصداق خاص كل هذه الصفات ، ولكن لا ينطبق كل مصطلح من الكلمات إلاّ على معناه الخاص به .

حينما يريد الإنسان العاقل أن يصف شيئاً بوصف خاص ، فمع أن هدفه أن يقرر نوعاً من الوحدة من حيث المصداق بين الصفة والموصوف ، ولكن بما أن مفهوم الصفة غير الموصوف فهو يحكم بمغايرتهما بصورة تلقائية أراد أو لم يرد ، وحيث إن الوسيلة الوحيدة لمعرفة الأشياء وصفها بالمفاهيم الذهنية التي هي من حيث التصوّر متباينة عن الذات ، وهي ـ أي الأوصاف ـ تلازم المحدودية ، إذن تبقى المفاهيم الذهنية قاصرة عن معرفة أو تعريف تلك الحقيقة المتعالية ، وهو سبحانه أسمى من أن يعرف بالوصف ، ولهذا يقال : إن من يحدده بالوصف يعلم أنه لم يعرفه .

وبذكر مثال نستطيع ـ إلى حدّ ما ـ أن نطلع على مفهوم الصفات الزائدة على الذات : تصوّروا أن حرارة شعلة النار تهب الحرارة لكل شيء ، وأن الحرق والحرارة من صفات وكيفيات النار ، فهل أن هذه الخصوصية تشغل زاوية من وجود النار ؟ كلاّ ، بل إن النار كيفما كانت وبكل وجودها لها هذه الخصوصية : الحرق والحرارة .

قال الإمام الصادق (عليه السلام) في جواب من سأله عن حقيقة الله سبحانه :

« هو شيء بخلاف الأشياء ، أرجع بقولي إلى إثبات معنى وأنه شيء بحقيقة الشيئية ، غير أنه لا جسم ولا صورة ولا يحس ولا يجس ولا يدرك بالحواس الخمس ، لا تدركه الأوهام ولا تنقصه الدهور ، ولا تغيره الأزمان »[1] .

ويقول (بول كلارنس) العالم الفيزيائي الاجتماعي : « إن الكتب

---

(١) أصول الكافي / كتاب التوحيد ص ٨٣ .

المقدّسة (التوارة والإنجيل) حينما تعرف الله تستعمل الألفاظ التي تستعمل في مورد الإنسان ، ولا شك في أن هذا من ضيق في دائرة اللغات ، إذ أن مفهوم « الله » مفهوم روحي معنوي والإنسان المحصور فكره بين جدران المادة لا يجد طريقه إلى كنه ذات الله سبحانه »[1] .

ومع عدم قدرتنا على الإحاطة بذات وحتى صفات الله سبحانه بأيّ صورة من الصور ، علينا أن نحاول التقدّم في طريق معرفته خطوات إلى الأمام حسب إمكاناتنا .

(١) إثبات وجود الخالق : ص ٦٧ (بالفارسية) .

وحدانيـــة الله

عندما يكون الكلام في بحث العقائد الدينية عن التـوحيد فهـو بمعنى الاعتقاد بوحدانية الله في ذاته ، وفي خلقه وفي أفعاله وحاكميته على العالم ، وإدارة نظام العالم ، وفي العبودية والعبادة ، وجهات أخرى متعددة .

وكمـا لا يتصوّر التعـدد في توحيـد الذات كـذلك لا يصـح التـركيب واختلاف الذات والصفات ، فإن هذا الاختلاف من لوازم المحدودية ، وإنما التفكيـك الذي نقـول به بين صفـات الله وذاته إنمـا هو بـالنظر إلى أفكـارنا ومطالعاتنا ، وإلاّ فلا سبيل لتعدد الجهات والإضافات في ذاته سبحانه .

نحن لو نظرنا إلى شيء من الطبيعة من وراء زجاج ملوّن ظهر لنا ذلك الشيء في كل مرة بلون آخر ، وكذلك حينما ننظر بعقولنا إلى ذات الله الذي لا شريك له ، فبلحاظ حضور جميع المـوجودات لـديه ننسب إليـه صفة : العالم ونقول : هو العالم ، وتـارة ننظر إليـه من حيث قدرتـه على خلق كل شيء ، فنصفه بالقدرة ونقول : إنه قادر .

وعلى هذا نقول : بما أننا ننظر إلى الصفات المختلفة من زوايا مختلفة هي من خصائص وجودنا المحدود ، كذلك ننتزع هذه المفاهيم بالنسبة إلى تلك الـذات غيـر المحـدودة ، بينمـا هي من حيث التحقق فلجميــع هـذه المفاهيم وجود واحـد ، وكلها تخبـر عن حقيقة واحـدة ، هي تلك الحقيقة

المنزهة عن كل عيب ونقص ، والتي تتصف بكل كمال من القدرة والرحمة والعلم والبركة والحكمة والجلالة .

نحن إذا عرفنا أن وجود الله من نفسه ، فعلينا أن نعلم أن الوجود المطلق غير محدود من جميع الجهات ، إذ لو كان الوجود والعدم متساويين بالنسبة إليه كان عليه أن يحصل على الوجود من خارج ذاته ، فالوجود لا يحصل بنفسه ، إذن فالوجود المحض هو الذي له الوجود من نفسه ، وإذ يكون الذات عين الوجود كان غير محدود من حيث العلم والقدرة والأزلية والأبدية ، إذ العلم والقدرة نوع من الوجود ، والذات التي هي عين الوجود لها جميع هذه الكمالات بصورة غير محدودة .

إن وحدة الله من صفاته البارزة ، وقد دعت جميع الأديان الإلهية في تعاليمها الأصيلة غير المحرّفة ، جميع البشر إلى التوحيد الخالص عن كل شرك وشائبة ، إذ الشرك بكل صوره وأبعاده من أضرّ الضلال للبشر ، الضلال الناشىء في طول التأريخ من الجهل والانحراف عن هداية العقل والدين .

ولو كان الناس يصدّقون ويؤمنون بالله عن طريق الفكر الصحيح ودلالة العقل وهداية الرسل لما كانوا يتقبلون أيّ مصنوع ظاهر أو مستور إلهاً بدلاً عنه سبحانه ، أو أن يكون لأيّ موجود آخر شيء من الأمر والتقدير والتدبير معه تعالى .

ونحن إذ نقول: إن الله واحد لا نعني بذلك معنى الجسمية، إذ الجسم مركب من عدة عناصر وأجزاء ، ونحن ننفي التركيب والتجزئة والتوالد عنه إذ هي من صفات الممكنات ، وكل مركب متوّلد عن التركيب ليس بإله وليس شبيهاً بالله .

إنما يمكن أن نتصوّر له تعدد المصاديق فيما إذا أمكن أن تصدق عليه صفات من قبيل الكمية والكيفية والزمان والمكان ، والله لا يتصف بشيء من هذه الأوصاف والقيود ، إذن فطبيعي أن لا يتصوّر له أيّ مشابه أو مثيل .

ومثلاً نقول : نحن إذا تصوّرنا حقيقة الماء بلا أيّ قيد أو وصف خاص ، ثم كررنا هذا التصوّر مراراً ، لم يزد عندنا شيء على التصوّر الأول ، إذ قد تصوّرنا الماء للمرة الأولى بصورة مطلقة عن أيّ قيد أو شرط أو كمية أو كيفية ، فلا يمكن أن نفترض فردين لحقيقة الماء في التصوّر الثاني وهكذا ، أما إذا أضفنا قيوداً إلى حقيقة الماء من الخارج ، تكثرت أفراد هذه الحقيقة المقيدة الموصوفة وتعددت بتعدد منابعها ومواردها ؛ فماء المطر وماء العين وماء البحر في الأزمنة والأمكنة المختلفة هنا وهناك ، وإذا حذفنا هذه القيود ونظرنا إلى حقيقة الماء المجرّدة عن هذه القيود والأوصاف امتنع عليها التعدد ولم تبق إلاّ حقيقة واحدة فقط .

وعلينا أن ندرك أن الموجود إذا كان متحيزاً في مكان ما كان محتاجاً إلى ذلك المكان ، والموجود المتحيز في المكان رهين في وجوده للظروف الزمانية والمكانية الخاصة به ، وإنما يتحقق وجوده في زمان معين يشتمل على تلك الشروط الخاصة ، فإذا عرفنا موجوداً لم يخل ولا يخلو منه أيّ زمان أو مكان ، متصفاً بأسمى درجات الكمال ، كاملاً مطلقاً لا كامل مطلقاً سواه ، إذا عرفنا موجوداً هكذا كان تصوّر تعدده عين تصوّر المحدودية والقيود له .

إن الله ليس واحداً بالعدد كي يمكن تصوّر فرد ثان من سنخه له ، بل إنه واحد بحيث إذا فرضنا فرداً آخر له كان هو عين الفرض الأول ، كما في مثال حقيقة الماء . .

بما أن تعدد الأشياء رهين قيود تميزها عن غيرها ، فلو كان موجود مطلقاً عن أيّ قيد أو شرط ، كان افتراض وجود ثان له من غير المعقول ، إذ إن وجود الفرد الثاني مستلزم لوجود حدود متميزة، فلو انتفت الحدود في شيء لم يعد هناك شيئان ، بل كان تصوّر الفرد الثاني تكراراً لافتراض نفس الفرد الأول .

إن وحدة الله تعني أننا إذا تصوّرناه وحده مع قطع النظر ـ بعد فرض

وجـوده ـ عن جميع المـوجودات ممـا سواه ، كـان وجوده ثـابتاً من دون أيّ شـريك أو نـدّ أو ولد أو كفـوء ، وكذلـك إذا نظرنـا إلى وجـوده مـع سـائـر الموجودات أيضاً كان وجوده ثابتاً بلا شريك،في حين أننا لو نظرنا إلى سائر الموجودات ، مع قطع النظر عن وجود الله لم يمكن أن تبقى موجودة ، إذ إن وجودها منوط بوجود الله ، حدوثاً وبقـاء ، فلو تصوّرنا أيّ قيد أو شرط لوجود الله وتصوّرنا فقدان القيد أو الشرط انتفى وجود الخالق أيضاً عند انتفاء الشرط والقيد ، في حين أن وجود الله مطلق غير مشـروط لا يمكن افتراض التعـدد له ، فالعقل لا يقدر على افتراض فرد ثان له من سنخ وجوده المطلق .

لنضرب مثالاً : نقول : لو قبلنا أن لا حدّ ولا نهاية للعالم وأننا لو مشينا في أيّ طرف منه لم نصل إلى نقطة النهاية ، فمع افتراض هكذا صورة عن عالم الأجسام هل يمكننا أن نفتـرض معه عـالماً آخـر ؟ كلا إذ إن افتـراض العالم غير المحدود ينفي بنفسه افتراض عالم جسماني آخر معـه ، وكل مـا نتصوّره عالماً آخر فهو إما نفس هذا العالم أو جزء منه .

فمع العلم ، بأن الله هو الوجود المحض يكون افتراض وجود آخر مثله معه كافتراض عالم جسماني آخر ، إلى جـانب عالم لا محـدود ، وهذا من غير الممكن .

ومن هنا نعلم أن ليس معنى : الله واحد ، أنه لا ثاني له ، بل معناه أنه لا يمكن افتـراض وجود إلـه ثـانٍ معـه ، وأن نفس وجود الله مستلزم لكـونه واحداً فرداً ، وأن انفراده بذاته ، وبذلك يعرف ويميّز عن سائر الموجودات ، في حين أن سـائر المـوجودات لا تتميّـز بذواتهـا ، وإنما تميّـزت بما وهب الخالق لها من تميّز وتشخيص .

ولو كان المعنى الواقعي لكلمة « الله » متحققاً في ذهن الإنسان العاقل وعرفه بمعناه الصحيح ، تـوصل بصـورة طبيعية إلى منـافاة التعـدد مع ذاتـه سبحانه .

نحن نرى بوضـوح أن جميع أجـزاء العالم يسـودها نـوع من الوحـدة

والانسجام المستمر والممتدّ : فالإنسان يولد غاز الكاربون لتتنفس به النباتات ، وهي بدورها تولد غاز الأوكسيجين لتنفس الإنسان وبهذا الأخذ والعطاء المتبادل بين الإنسان والنبات تبقى نسبة معينة من الأوكسيجين في الحياة مستمرة ، وبدونها لم نكن نرى أيّ أثر من حياة الإنسان اليوم على وجه كرة الأرض .

وإن مقدار الحرارة التي تتلقاها الأرض من الشمس بقدر حاجة الموجودات الحية فيها ، فإن سرعة سير الأرض حول الشمس ، وبعدها عن هذا المنبع العظيم للطاقة والحرارة ، قد انتظم بحيث يمكن للإنسان الحياة على وجه الأرض، وكذلك بعد الأرض عن الشمس يتطابق مع مقدار الحرارة المناسبة للحياة على الأرض ، مثلاً لو أصبحت سرعة سير الأرض في كل ساعة مئة ميل بدلاً عن الألف ميل ، كانت الأيام والليالي تطول أكثر مما هي عليه الآن أكثر من عشر مرّات ، وكانت شدة الحرارة في الأيام ترتفع حتى تحرق جميع النباتات ، وكانت برودة الليالي في الشتاء تجمد جميع الأزهار والأعشاب .

ولو كانت أشعة الشمس تتضاءل إلى النصف مما هي عليه الآن ، كانت ذوات الأرواح تتجمد من شدة البرد ولا تقدر على أية حركة ، ولو كانت هذه الأشعة تتضاعف إلى ضعفي ما هي عليه الآن كانت تتوقف أنشطة الحياة في المراحل الأولى من تكوّنها .

ولو كان القمر أبعد من الأرض مما هو عليه اليوم كان مدّ البحار يشتدّ حتى يصل إلى درجة قلع الجبال من أصولها .

إن هذا العالم المتحرّك بهذه الرؤية هو قافلة قد شدّ كل من فيها بعضهم ببعض ، وهم كالأجزاء الكبار والصغار لجهاز واحد في وجهة واحدة على سعي وفعالية جاهدة ، وعلى كل شيء من أجزاء هذا الجهاز وظيفته وتكليفه بالنظر إلى موضع كل من هذه الأجزاء ، وكل هذا الجهاز يكمل

بعضه بعضاً ويساعده ، ويربط بين كل ذرّة مع سائر ذرّاته علاقة معنوية عميقة مترابطة .

كتب البروفيسور (روايه) المفكر الشهير ، يقول :

« إن بين جميع مخلوقات هذا العالم سلسلة حديدية أو خيط ربط أو علاقة سرية محكمة تقرر بينها التعادل التام ، حتى أن المخلوقات غير ذات الشعور والوعي ليست بعيدة عن بركات هذه العلاقة الخاصة ، إن مخلوقات هذا العالم كأنما هي في صف واحد متسلسل ، أو كأنما هي منتظمة في سلك كسبحة لا تنقطع ، وإن حركات حياة هذه المخلوقات إنما تتحقق طبق نفس هذه العلاقة القوية والسرّية .

ننظر إلى موجود حيّ ، نرى أن الدورة الدموية واللمفاوية والعصبية منسجمة بل مترابطة بل متحدة ، وهي تستمر في جسم الإنسان مثلاً بقدرة وشمول بحيث قد يفكر الشخص لأول مرة أنه يعيش في وسط طوفان من فقدان النظام ومن الهرج وعدم الانسجام ! .

العجيب أن الشكل العام لكل خلية حية كسلسلة نابضة بالحياة بين أمواج هائلة كأنها غير منتظمة فيما بينها ، بغضّ النظر عن جانبها الفيزيولوجي ، ويبهت فكر الإنسان ويعضّ أصبع الحيرة والدهشة حينما يرى أن جميع هذه الأمواج والاضطرابات بما فيها من توازن وانسجام إنما هي تحت إرشاد عامل موحد كبير وقدير ، وبإمكان الإنسان أن يرى هذا العامل القدير في كل وحدة وانسجام ، وكل صورة ترمز إلى نوع من الوحدة والانسجام في مجموعة غير منتظمة بظاهرها »[1] .

وهنا نقول : إن العالم المليء بالوحدة ، لا بدّ أن يكون مرتبطاً بحقيقة واحدة ومبدأ واحد ، ويجب أن يكون وجوده نابعاً من تلك النقطة الوجودية الواحدة ، إن الوجود لو كان واحداً لم يمكن أن يكون موجده متعدداً ، إن

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ٥٠ (بالفارسية) .

الذي أوجد الوحدة والانسجام في محيط الوجود المختلف والمتكاثر ، قد جعل من قدرته هذه برهاناً صادقاً على وحدته وعلمه وقدرته .

ويقول القرآن الكريم :

﴿ قل : أرأيتم شركاءكم الذين تدعون من دون الله أروني ماذا خلقوا من الأرض ؟ أم لهم شرك في السموات ؟ أم آتيناهم كتاباً فهم على بيّنة منه ، بل إن يعد الظّالمون بعضهم بعضاً إلاّ غروراً * إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ، ولئن زالتا إن أمسكهما من أحد من بعده ، إنه كان حليماً غفوراً ﴾[1] .

إن فطرتنا التي هي من الأبعاد الأساسية لوجودنا تؤيّد هذه الوحدة ، فإننا في الاضطرابات الشديدة والمصائب العظيمة تميل آمالنا إلى جهة واحدة ونتجه إلى نقطة معينة بقلوبنا وأفئدتنا .

سأل هشام بن الحكم أحد تلامذة الإمام الصادق منه (عليه السلام) :

ما الدليل على أن الله واحد ؟ قال (عليه السلام) :

« اتصال التدبير ، وتمام الصنع ، كما قال الله تعالى : **﴿ لو كان فيهما آلهة إلاّ الله لفسدتا ﴾**[2] .

إذن فاستقرار وشمول هذا النظام العالمي العام يكفيان لنفي فرضية تعدد الآلهة في منطقة واحدة ، أو مناطق متعددة من نظام هذا العالم .

يقول (المستر موريس مترلينك) : « عندما يفجرون أيّ ذرّة من ذرّات جميع الأجسام نصل إلى الذرّة (الذرّة العلمية = أتوم = ATOM) وعندما يفجرون هذه الذرّة نصل إلى ما نسميه نحن ـ من ضيق التعبير ـ بالطاقة الكهربائية ـ (الكتريسيتي) وهو الذي يتشكل بأشكال مختلفة ومنها جميع

---

(١) سورة فاطر : الآيتان ٤٠ ـ ٤١ .

(٢) كتاب أصول الكافي ـ باب التوحيد .

المواد الإنشائية في العالم ، ومن هنا نستنتج أن الذي خلق هذا العالم هو واحد ، فإن جميع أجزاء هذا العالم من المواد والقوانين إنما تتشكل من هذا الشيء الواحد الذي لم نعرفه بعد . . »[1] .

ومع أن القرآن الكريم يؤكد وحدة الله في الخلق وإدارة العالم ، مع ذلك يذكّر بدور العلل والأسباب التي هي عوامل مطيعة له سبحانه ، فيقول :

﴿ والله أنزل من السماء ماء فأحيا به الأرض بعد موتها ، إنّ في ذلك لآية لقوم يسمعون ﴾[2] .

وبعدما وصلنا إلى هذه النتيجة : وهي أن ليس في نظام الوجود أيّ أحد سوى الله عامل في الخلق والتدبير والإدارة ، وأن جميع منابع التأثير في العالم إنما هي تحت أمره وإرادته ، وأن أداء أيّ دور من جانب أيّ عامل ، أو أيّ علة أو سبب في هذا العالم ، إنما أوتيه من ناحية تلك الذات المقدّسة الخالقة والمقدرة . . بعد هذا كيف يمكننا أن نرى أيّ موجود سواه مساوياً له في ذلك ، أو أن نخضع له بالعبادة ؟! ويقول القرآن الكريم بهذا الصدد :

﴿ ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر ، لا تسجدوا للشمس ولا للقمر ، واسجدوا لله الذي خلقهنّ إن كنتم إياه تعبدون ﴾[3] .

* * *

(١) عالم آخر : ص ٤٩ (بالفارسية) .
(٢) سورة النحل : الآية ٦٥ .
(٣) (سجدة واجبة) . سورة فصلت : الآية ٣٧ .

القدرة الإلهيـة المطلقة

لا دليـل لإثبات القـدرة المطلقـة الإلهية أوضـح من ظواهـر الطبيعـة وصورها وأشكالها وألوانها الطبيعية التي تفوق حدّ الوصف والبيان .

إننا حينما نلقي نظرنا على مخلوقات الله نرى أنفسنا أمام قدرة عظيمة لا يتصور لها أيّ حدود أو قيود ، إن مراجعة هذه المخلوقات وملايين الحقائق المودعة في عجائب الطبيعة ، وأعماق نفوسنا ، بلغ بنا إلى أوضح البراهين على مدى قدرة خالقها ، ولا طريق سوى قدرة الله المطلقة لتعليل هذا النظام وتفسيره .

إن قدرته المطلقة هي التي تحمل العقل على الخضوع أمام خالق هذا النظام العظيم ، وليست لنا أية كلمة تحدد لنا أبعاد هذه القدرة المطلقة ، إن قدرة الله العظيمة تبلغ ما وصفه ذاته سبحانه في قوله : ﴿ إنمـا أمره إذا أراد شيئاً أن يقول له : كن ، فيكون ﴾[1] .

إن أبطال العلوم الطبيعية ورجال المختبـرات العلمية لم يتـوفقوا حتى اليـوم إلى كشف أسرار الخلقـة بصورة كـاملة حتى في جزء واحـد من هذه

---

(١) سورة يس : الآية ٨٢ .

الكثرة من المخلوقات الصغيرة والكبيرة والمختلفة .

ومع ذلك فإن المعلومات القليلة والناقصة والقصيرة التي حصل عليها الإنسان بالنسبة إلى قسم من موجودات نظام هـذا العالم ، تكفي لإدراك لا نهـائية تلك القـدرة العظيمـة في هذه المـوجودات المتنوعة ذات الأحجـام المختلفـة من الحيوانـات الصغـار والكبـار في أعمـاق البحـار والمحيطات بمختلف الأشكال والصور ، والطيور الجميلة ذات الألحان العذبة والأجنحة الملونة البديعة في بطون الغابات ، والنجـوم والكواكب وطلوعهـا وغروبهـا والشفق والأفق والشمس والقمر والكرات والمجرات والسحابيات بما فيها من ملايين النجوم العظيمة المشرقة ، مما يحير ذوي الألباب والعقول .

يحكي البروفيسور (روايه) جانباً من عظمة عالم الفضاء فيقول :

« إن في منظومتنا الشمسية مئة ألف من النجوم لم يعرف سوى خمسة آلاف منها ، ومنظومتنا الشمسية هذه جزء صغير من مجرتنا (درب التبانـة) ونحن لا نتمكن من أن نرى سوى جانب صغير منها ، هو من أكثـر أجزائهـا كثـافة ، ولكن نفس هـذه المجرة العـظيمة ليست أمـام مليارات المجـرات الأخرى سوى سحابة صغيرة فيها نجوم ، وتسمى مجموعة المجرات هذه في العلوم (ميتا كالاكسي) وهي التي تشكل مجموع العالم » .

وقد قدّر (آنشتاين) العالم الرياضي أبو نظريـة النسبية ، قدّر الشعاع النسبيّ لهـذا العالم بستمئة سنة ضوئية ، وكـان قد أقنـع العلماء بنـظريتـه القائلة : بما أن العالم في حدّه الأعلى لا نهاية له ، وبما أن وسائلنا العلمية وإمكاناتنا اليوم لا تظفر بالوقوف على نهايـة هذا العـالم ، إذن فالأحسن أن نحسب نسبة شعاع هذا العالم بستمئة سنة ضوئية والتي تعادل اللانهاية ، ثم نأخذ بالتحقيق في فضاء نسبي قطره ألف ومئتا سنة ضوئية .

وكان (آنشتاين) قد قام بهـذه الحسـابات بالاستنـاد إلى التحقيقات العلمية في مراصد جوية كمرصد (بالومار) الذي كان يعـدّ أقوى المـراصد

يومئذٍ ، وقد كسر الراديو هذه الحدود وتعداها وقلل من قيمة أعمال مرصد (بالومار) .

إن عدداً كبيراً من الصور الملونة بالألوان الأصيلة للمصورات الفضائية التي صورتها (بالومار) ولا سيما من مجرتنا هذه (درب التبانة) لا تزال منذ سنين مورداً لتحقيق علماء الفضاء في العالم ، وإن النظريات التي أبداها العلماء كانت مستندة إلى هذه الصور .

إن طول مجرتنا هذه مئة ألف سنة ضوئية ، والمنظومة الشمسية في أحد طرفيها ، وهي تسير في الفضاء بسرعة مئتين وخمسين كيلومتراً في الساعة منذ مليارات من السنين »[1] .

فهل الخليقة بهذه العظمة المحيّرة لا تعبّر عن القدرة المطلقة للخالق العظيم ؟ أفهل يمكن أن نغضّ عيوننا عن قدرة خالق وهب الحياة هذه الألوان المختلفة والمتنوعة ، والذي وضع الأصول الحيوية لها وصوّر صورها وعيّن حدودها ؟ .

نحن نعلم أن إبداع هذه الهندسة البديعة إنما تتحقق من ذرة صغيرة ، ولا يمكن تفسير هذه الموجودات إلّا مع الإذعان بقدرة مطلقة مريدة ومقدرة وهادية ، أجل هو الله ﴿ الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى ﴾ ، فهو القادر على الخلق والإبداع وهو المهندس الحكيم .

إن الصغر والكبر والمشكل والسهل من خواص الموجودات المحدودة ، وليس للقلة والكثرة والصغر والكبر أيّ طريق إلى ذات الله وصفاته ، ويمتنع تصوّر العجز ـ وهو من لوازم محدودية الفاعل أو لوجود المانع أو لفقدان الوسائل ـ بشأن الوجود اللانهائي الإلهي ، كما يقول القرآن الكريم : ﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السماوات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾[2] .

---

(١) ألفا عالم في البحث عن الخالق العظيم : ص ١٣ ـ ٢٩ ـ ٣٢ (بالفارسية) .

(٢) سورة فاطر : الآية ٤٤ .

ومع أن الله على كل شيء قدير ، فقد خلق هذا العالم بنظام خاص ، وأعطى كل شيء دوره المعين في إطار هذا النظام الدقيق ، والأشياء في واجباتها إنما هي جنود للرحمان مجندة سامعة مطيعة لا تعصي الله ما أمرها وإنما تفعل ما تؤمر ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ والشمسَ والقمرَ والنجومَ مسخَّراتٍ بأمره ، ألا له الخلق والأمر تبارك الله ربّ العالمين ﴾[1] .

وليس لأيّ موجود في نظام هذا العالم أن يكون منفرداً بشيء من القدرة ، أو ذا حظ في إرادته وحكمه ، فكما لا شريك لذات الله كذلك لا شريك له في فاعليته ، وكما لا استقلال لذوات موجودات هذا العالم فهي مستندة في وجودها إليه كذلك لا استقلال لها في الفاعلية والتأثير، فكل فاعل وسبب لا بدّ أن يكون وجوده منه سبحانه وكذلك فاعليته وتأثيره .

وإذا اقتضى الأمر وأراد الله أفقد نظام الوجود دوره المعتاد له ، وأصبح هذا النظام العظيم خاضعاً لإرادته سبحانه ، فإن الخالق الذي وهب لكل عامل وسبب أثره الخاص به قادر على أن يحبط أثره في أيّ لحظة ، وأن يسلب أثر الحوادث بأمره كما أوجد النظام فيها بإرادته وحكمه ، كما يقول القرآن الكريم :

﴿ قالوا : حرّقوه وانصروا آلهتكم إن كنتم فاعلين * قلنا يا نار كوني برداً وسلاماً على إبراهيم * وأرادوا به كيداً فجعلناهم الأخسرين ﴾[2] .

إن قوة الجاذبية في الأرض والشمس ، وإن كانت نافذة في رقعة وسيعة من هذا العالم ، إلا أنها خاضعة أمام إرادته سبحانه ، فما أن يهب الله قدرة الطيران لطائر صغير حتى يتمكن من مقاومة جاذبية الأرض طائراً في الجو :

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٥٤ .

(٢) سورة الأنبياء : الآيات ٦٨ ، ٦٩ ، ٧٠ .

﴿ ألم يروا إلى الطير مسخّرات في جو السماء ما يمسكهن إلاّ الله إن في ذلك لآيات لقوم يؤمنون ﴾[1] .

إن أيّ موجود يفترض في هذا النظام لا تقضى حاجاته في الوجود ودوام الحياة إلاّ بالله العظيم ، وإن أيّ قدرة في هذا النظام إنما تنتهي إلى القدرة المطلقة الإلهية ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) في خطبة له في نهج البلاغة :

« فلسنا نعلم كنه عظمتك إلاّ أنّا نعلم أنك حيّ قيّوم لا تأخذك سنة ولا نوم لم ينته إليك نظر ولم يدركك بصر أدركت الأبصار وأحصيت الأعمال وأخذت بالنواصي والأقدام ، وما الذي نرى من خلقك ونعجب له من قدرتك ونصفه من عظيم سلطانك وما تغيب عنا منه وقصرت أبصارنا عنه وانتهت عقولنا دونه وحالت ستور الغيوب بيننا وبينه أعظم »[2] .

إن الإنسان حينما يصمم على بناء مستشفى مثلاً فإنه يعدّ قسماً من الوسائل والأدوات اللازمة التي ليس بينها أيّ علاقة ذاتية ، وإنما هو يربط بعضها ببعض بروابط اصطناعية ، ولإيجاد هذه الروابط الاصطناعية يفيد من أشياء وإمكانات مختلفة، وليس عمله الذي يشكل جزءاً من معدّات هذا البناء فاعلية خالقة ، بل فاعلية حركة تصنع الشكل الخاص من الأشياء الموجودة ، بينما ليس صنع الله من نوع إيجاد علاقة مصطنعة بين أمور مختلفة ، بل إن الله خالق كل شيء بجميع خصائصه وقواه .

ونحن إذ نقول بأن الله على كل شيء قدير ، علينا أن نعلم بأن القدرة إنما تتعلق بالأمور الممكنة ، أما الأمور المستحيلة عقلاً فهي خارجة عن حيطة القدرة بصورة مطلقة ، بل لا معنى لاستعمال كلمة القدرة في المحالات .

---

(١) سورة النحل : الآية ٧٩ .

(٢) نهج البلاغة / الخطبة : ١٥٩ .

أجل ، وإن كانت قدرة الله غير محدودة ، ولكن لا يصح الغفلة عن شرط قابلية المحل لتعلق القدرة الإلهية ، فإن عدم استحالة الأمر والقابلية الذاتية شرط لازم في تعلق إرادة الله به ، وإن إرادة الله لا تتعلق بشيء إلّا مع قابليته الذاتية ، صحيح أن الفيض الإلهيّ دائم لا نهاية له ولكن المورد غير قابل لهذا الفيض ، البحر المحيط ممتلىء من الماء إلّا أن لكل شيء ظرفية خاصة ، ولا يستوعب أيّ ظرف أكثر من ظرفيته ، وليست المحدودية من قبل مياه المحيط بل في الظرف .

قيل لأمير المؤمنين (عليه السلام) : هل يقدر ربّك أن يدخل الدنيا في بيضة من غير أن تصغر الدنيا أوتكبر البيضة ؟ ، قال : إن الله تبارك وتعالى لا ينسب إلى العجز ، والذي سألتني لا يكون(1) .

فمع أنه لا سبيل للعجز إلى ذات الله المقدّسة ، إلّا أن التساؤل عن قدرة الله على فعل محال تساؤل غير معقول ولا معنى له .

إن المؤمن الممتلىء قلبه بالإيمان بالله وحبه لا يجد نفسه خائباً آيساً وحيداً ، بل لا يقدم على أيّ عمل إلّا مع وعي كامل وهو يرى نفسه تحت رعاية تلك القدرة العظيمة الإلهية التي تستطيع أن تنصره في كل المشاكل والأمور .

إن من عرف الله وعلم أنه يتمتع بتأييده يتصف بالصبر والمقاومة أمام الصعوبات ولا يرى المشاكل إلّا كزبد على سطح المياه يزول بسرعة ،وكل نار تتأجج حوله من المشاكل فإنه سيخرج منها كزبر الحديد أقوى وأصلب .

يحسّ بفضل الله وعنايته في جميع مراحل المشاكل ، وهذا الإحساس هو أساس سعيه ومحاولاته ، فلا يجد أيّ مانع في طريقه حتى خيبة بعض آماله فإنها لا تستتبع استسلامه للمشكلات ، بل يتابع هدفه حتى الظفر التام بمثابرة في العمل وإخلاص في النية .

---

(1) بحار الأنوار ج ٣ ص ١٤٣ .

إن المؤمن بالله يعلم جيداً أن: ﴿**وأن سعيه سوف يرى * ثم يجزاه الجزاء الأوفى**﴾ وأن النصر للمؤمنين ولعباد الله الصالحين ، وأن الله يأخذ بأيدي المظلومين الذين لا يجدون لهم ملجأ إلّا الله ، ويصل بهم إلى أوج العزة والعظمة ، وقد يرغم أنوف الأعزة الطغاة الظالمين الذين لا يفكرون في شيء سوى القدرة والسلطان ، والذين لا يعترفون للإنسان بأيّ ثمن .

ما أكثر من سقط من هؤلاء الجبابرة في هوة الظلام ، على مدى التأريخ البشري ، سقطوا في أمواج الذلة وهلكوا .

كلنا يعلم شيئاً عن قصص أنبياء الله الذين هم نماذج كاملة لكل القيم الإنسانية ، وكيف قاموا بوجه القوى المتحالفة أمامهم ، وذلك لإنقاذ الناس وإرشادهم وتجديد بناء المجتمع وسوقه نحو الأهداف السامية ، هؤلاء الذين كانوا أول من حمل مشعل الثورة على رؤوس أهل الشرك والضلال ، وقد كانت لدعوتهم آثار أثرت في صورة ومسيرة التأريخ ، وأسست أساس التوحيد والفضائل بجميع أبعادها وكل جوانبها .

فهل لأحد أن ينكر دور الإيمان والوحي في مساعيهم التي لم تكن تعرف الكلل والملل ؟! لنفكر إلى أي درجة يستطيع أن يصبر الإنسان ويبدي من نفسه قوة الإرادة ؟ .

بمرور عابر على تأريخهم الفاخر نلمس إخلاصهم وصفاء ضمائرهم ورأفتهم ورحمتهم بالإنسان والإنسانية ، وأن سر خلودهم هو أنهم لم يكونوا يفكرون في أنفسهم لحظة واحدة بل كانوا قد جعلوا حياتهم وقفاً لإرشاد الناس بكل إخلاص ، فوهب الله لهم بذلك صفة الأبدية والخلود .

* * *

مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

علم الله الشامل

إن الله الـذي لا يحويـه المكان ولا يخلو منـه مكان ، وليس لـه حـدّ محـدود ، طبيعيّ أن يكون عـالماً بكـل شيء ، وليس شيء في نـظام هـذا العـالم ، لا يحويـه علم الله الشامـل المحيط ، فالحـوادث التي تجري في أقصى نقاط هذا العالم ، والتي مضى عليها مليارات السنين أو التي تحدث بعد مليارات السنين ، لا تخرج عن إحاطة علم الله سبحانه ، وعلى هذا فلا سبيل إلى الوقوف على حدود علم الله ، إذ لا حدّ له .

لغاية إدراك سعة علم الله لو أمددنا أفكارنا بالتحقيق والتدبّر بعقولنا التي تستطيع أن تستوعب الطبيعـة في لحظات ، ومضينـا قدمـاً نحو هـذه الغايـة بـأجنحة أفكـارنا الحـرة ، فإن أفكـارنا لا تـزال تفقد الاستعـداد لدرك تلك الغاية .

لو كنا في كل مكان كما نحن في مكان ونقطة خاصة ، ولم يكن يخلو منا أيّ محل ، لم يكن ليخفى علينا أيّ شيء ، بل كنا ندرك كل شيء .

ينقسم العالم بالنسبـة إلينا إلى قسمين : « غيب وشهـود » وليس كون بعض الحقائق من الغيب عنا لعدم ماديتها أو لعدم كـونها من المحسـوسات بالحواس الظاهرة ، ولعـدم محدوديتهـا ، بل لا ينحصـر الوجـود في الأمور المحسوسة التي تدخل تحت التجربة .

إننا من أجل أن ندرك رموز وأسرار حقائق الوجود نحتاج إلى مدرجة للقفز إليها ، ومدى فعالية هذه القفزة يتوقف على قوة الفكر الفعّال عندنا ، فإذا أعدّت لنا هذه المدارج تمكّنا من معرفة كثير من الواقعيات .

إن القرآن الكريم يبدي رؤية واسعة عن الوجود تحت عنوان : « الغيب » والأنبياء حاولوا أن يصعدوا برؤية الإنسان عن عالم الخلقة إلى الإيمان بالغيب ، كي تتجاوز رؤيته المحدود إلى اللامحدود وتتعدّى الظاهر حتى آفاق الغيب الخفي .

أما الله فلا غيب بالنسبة إليه بل العالم كله شهود لديه كما يقول القرآن الكريم :

﴿ عالم الغيب والشهادة هو الرحمن الرحيم ﴾[1] .

إن المصنوعات البشرية تنبع من ذكاء وعلوم صانعيها ، وكلما كان المصنوع أدقّ وأكثر فنية ومهارة كان أكثر دلالة على مدى علمية الصانع ، وكان أدلّ على هندسة وهدف ذلك الصانع .

ومع أن عظمة هذا العالم لا يناسب القياس بمصنوعات الإنسان إلاّ أن عظمة هذا العالم وصور موجوداته المتناسبة وما تدل عليه من عظمة تلك الحكمة في هذا النظام العظيم ، وبهذه المناظر الجميلة والمحيّرة ، كلها تدلّ على العلم اللانهائي والمحيط لذلك الناظم والمدّبر الخلاّق ، بل هذه المظاهر من أقوى الأدلة على ذلك الوجود الفيّاض بالعلم والإرادة والحكمة ، ذلك الوجود الذي أبدع هذه العجائب على أساس برنامج دقيق ومنظم ، وبإمكاننا أن نتعرّف على مظاهر هذا العلم الواسع في كل جزء من أجزاء ظواهر هذا الوجود .

والذين يحاولون متابعة تجارب المختبرات ونظريات العلماء بإمكانهم

---

(١) سورة الحشر : الآية ٢٢ .

أن يشاهدوا عجائب كثيرة من مظاهر ذلك العلم اللانهائي في الحيوانات والحشرات والنباتات .

أجل ، إنه يعلم بمجاري النجوم والكواكب في فضاء السماوات وبعالم السحابيات ودوران المجرّات ، من الأزل وإلى الأبد ، وبعدد الذرّات في جميع الأجرام والأجسام والأحجام ، وبحركة مليارات الموجودات الدقيقة والخشنة على وجه الأرض ، وفي أعماق البحار والمحيطات ، وبجميع القوانين والسنن الطبيعية النافذة والمستمرة ، وبالظاهر والباطن لكل شيء ، وبما تضمر الصدور والضمائر بل هو أقرب إليها من أصحابها، ونستمع مرة أخرى هنا إلى نداء القرآن الكريم ، إذ يقول :

﴿ ألا يعلم من خلق ، وهو اللطيف الخبير ﴾(١) .

﴿ لا يخفى عليه شيء في الأرض ولا في السماء ﴾(٢) .

يقول (نيوتن) : « بالنظر في جهاز السمع في الأذن والبصر في العين نفهم أن صانع الأذن عالم بقوانين الأصوات بشكل كامل ، وصانع العين خبير بالقوانين المعقدة المتعلقة بالنور والرؤية . وبالنظر في نظام السماوات نتوصل إلى حقيقة كبرى تدبّر أمرها بهذا النظام الحكيم الخاص »(٣) .

ولهذا فإن علماء الطبيعة بفضل اطلاعهم على دقائق النظم في أعماق الوجود ، وبفضل خبرتهم وتجاربهم الكاشفة عن المحاسبات الدقيقة في الوجود الحيّ ، والميت ، وكريات الدم والخلايا ، وكيفية تأثيرها وتأثرها وأفعالها وردودها لديها ومختلف تحولاتها ، حسب تحقيقاتهم العلمية ، وبفضل مشاهداتهم التجريبية في مظاهر الحكمة المحيّرة والعلم الواسع اللانهائي في آفاق الطبيعة ، بفضل كل هذا تتجلى لهم سعة علم الله وكمال

---

(١) سورة الملك : الآية ١٤ .

(٢) سورة آل عمران : الآية ٥ .

(٣) دائرة المعارف لفريد وجدي ، ج ١٠ ص ٤٤٨ .

أوصافه ، وإن هم لم يتعمدوا إخفاء نداء الوجدان فهم يرون وجود الخالق أوضح وأجلى من غيرهم .

يقول أحد المفكرين : « إن عالمنا بمخ مفكر فعال أشبه منه بجهاز ميكانيكي كبير ، وكتعريف علميّ أقول : إن عالمنا مخلوق فكرة عظيمة هي أسمى من مظاهر الفكر فينا ، وأنا أرى أن الأفكار العلمية تسير إلى هذا الهدف » .

إن علم الله ليس قاصراً على الماضي ولا على الحوادث والموجودات الحاضرة ، بل إن علمه بالمستقبل كعلمه بالحاضر .

ولا يشبه علمه بعلم الإنسان في توقفه على وجود المعلوم في الخارج ، ولا يصح تصور أن علمه حاصل له من طريق التحقيق في المخلوقات ، إن علمه لا يناسب القياس بعلم الإنسان وليس باستطاعة المقاييس البشرية أن تعمل أي شيء لمعرفة كيفية علمه سبحانه ، إذ لا بد لعلم الإنسان من وجود المعلوم كي يتعلق به العلم ، وليس الأمر كذلك في علم الله سبحانه ، إن علم الله « علم حضوري » حسب المصطلح العلمي ، أي لا يجب فيه وجود المعلوم كي يتعلق به العلم ، بل الأمر مكشوف لديه ، وذات الله وإن كان غير موجوداته ولكنه ليس خارجاً عنها أيضاً كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) ، فالماضي والمستقبل حاضر لديه بدون أي واسطة ، يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) :

« فارق الأشياء لا على اختلاف الأماكن ، وتمكن منها لا على الممازجة ، وعلمها لا بأداة ، لا يكون العلم إلاّ بها ، وليس بينه وبين معلومه علم غيره »[1] .

يشير أمير المؤمنين (عليه السلام) في حديثه هذا إلى ما اصطلح عليه العلماء بالعلم « الحضوري » إذ لا حاجة لله في علمه بالحوادث إلى الصور

(١) كتاب التوحيد للشيخ الصدوق ص ٧٣ .

الذهنية التي هي أساس العلم « الحصولي » ، أجل ، لو كان تحقق علمه متوقفاً على تلك الطريقة الحصولية كان محتاجاً إلى تلك الصور الذهنية لتحقق العلم ، في حين أنه هو الغنيّ على الإطلاق .

إن الله الذي منه نشأ وجود العالم والعالمين ، وهو الذي يقضي كل حاجة مفترضة ، وهو الذي يجود بكل نعمة وكل كمال ، وهو مجمع جميع الكمالات والفضائل ، كيف يتصوّر أن يكون هو قاضي الحاجات وفي نفس الوقت محتاجاً ؟ .

إن الصور الذهنية تبقى في أذهاننا حسب ما نريد ، وإذا أهملناها فإنها ستختفي ، إذ أن الصور الذهنية إنما هي مخلوقة لنا .

ويسمى هذا العلم بالحضوريّ ، إذ يحصل من دون حاجة إلى الواسطة ، بخلاف العلم الحصوليّ الذي لا يحصل بدون واسطة ، بل هو انعكاس للطبيعة في حواس الإنسان .

والفارق بيننا وبين الله هو أن الله غنيّ على الإطلاق فلا حاجة له إلى الصور الذهنية .

إن تصوير الحوادث الماضية والآتية ، إنما يكون في آفاق أفكارنا المحدودة ووجودنا المحدود الذي يشغل محلاً من الزمان والمكان الخاص ، والذي لا وجود له خارج حدود هذا المقطع من الزمان والمكان ، إذ إن وجودنا وجود ماديّ ، والمادة في تغيراتها المستمرة وتدرّجها التكاملي تجري على أساس قوانين الفيزياء والنسبية محتاجة إلى الزمان والمكان ، أما الوجود الحاضر من الأزل حتى الأبد في كل زمان بعيداً عن أسر المواد ولوازمها فلا فرق لديه بين الماضي والحاضر والمستقبل .

وبما أن كل حادث يستند في وجوده وظهوره إلى وجود الله المطلق ، فلا يمكن أن يكون بين الله وهذا الموجود أيّ حجاب أو حائل فالله محيط بظاهر كل شيء وباطنه .

وكذلك القرب والبعد والفواصل المكانية ، إنما تنشأ من محدودية وجودنا ، يقول القرآن الكريم :

﴿ ويعلم ما في البرّ والبحر ، وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها ولا حبة في ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلّا في كتاب مبين ﴾[1]

نفترض أننا واقفون في غرفة مشرفة على الشارع العام ننظر من نافذة صغيرة إلى مجموعة السيارات التي تسير في الشارع على سرعتها، بديهيّ أننا لا نتمكن أن ننظر إلى مجموع السيارات مرة واحدة ، بل تمرّ السيارات أمام تلك النافذة الصغيرة واحدة فواحدة تظهر وتختفي ، فإذا كان الواقف خلف النافذة لا يعلم بحقيقة الحال تصوّر أنها توجد في ناحية وتعدم في أخرى .

والحقيقة أن نافذتنا هذه الصغيرة والمحدودة هي التي تصوّر لنا ماضي ومستقبل هذه السيارات ، بينما يرى الواقفون على جوانب الشارع كمية أكبر من السيارات من دون هذا التصوّر الخاطىء ، إن موقفنا بالنسبة إلى ماضي ومستقبل هذا العالم كهذا الواقف الناظر من النافذة الصغيرة إلى السيارات في الشارع .

يقول العلماء : « ذكر في علم الثيوبولوجيا أن للعالم جهات أربع ، ولكن هناك الكثير من الخواص الهندسية في العالم ليس لها سوى أبعاد ثلاثة مخالفة للصورة العامة » .

لو كان شخص خارج إطار شيء ما كان ذلك الشيء حاضراً أمامه ولم يكن أيّ فرق أن يكون ذلك الشيء أمامه أو خلفه ، كذلك لو تحكم شخص على بعد الزمان = البعد الرابع في العالم ، تمكن من النظر في الأبعاد الثلاثة الأخرى ، ولم يكن لأيّ جهة من الجهات الأربع أيّ خصوصية .

ولو تحرك إنسان بسرعة النور كانت فاصلة تقدر بالصفر ، فجميع

---

(١) سورة الأنعام : الآية ٥٩ .

النقاط في فضاء الفواصل تبدو في معبر الناظر وكأنها نقطة واحدة مجموعة ، فهو يلاحظ جميع الحوادث وكأنها حادثة واحدة .

والزمان لهذا الإنسان زمان راكد ، أي وإن كانت الحوادث متغيرة ولكنها تبدو في نظرة وكأنها تحدث في آن واحد لا على طول استمرار الزمان ، فلا معنى للماضي والحاضر والمستقبل لدى هذا الناظر النافذ البصر على كل مصير »[1] .

وإذ علمنا أن الله فوق الزمان والمكان ، فجميع الموجودات والحوادث الماضية والآتية حاضرة لديه وموجودة عنده كلوحة مصوّرة من دون أن يكون علمه متوقفاً على هذه اللوحة المصوّرة .

وعلى هذا فنحن أمام خالق عالم بكل صغيرة وكبيرة كما يقول القرآن الكريم :

﴿ إن الله يعلم ما تفعلون ﴾[2] .

يجب علينا أن نشعر بالمسؤولية وأن نحذر عن كل زلة وتحريفة تسبب لنا الانحطاط والبعد عن الله سبحانه ، وأن نخضع أمام ذلك العليم على الإطلاق الذي أخذ بأيدينا وعبر بنا مراحل الحياة المختلفة حتى بلغ بنا مرحلة انفتاح طاقاتنا واستعداداتنا ، ولا نعصي أوامره التي تفتح لنا طريق السعادة والوصول إلى الهدف الإنساني السامي ، بل لا نقبل أيّ عامل أو دافع فينا سواه .

وللوصول إلى هذا الهدف السامي علينا أن نتحلى بالأوصاف الإلهية ، وأن نعدّ العدة في هذه المدة للقاء الله وضيافته ، كي يتحقق لنا الرجوع إلى الله أي إلى مبدأ الوجود ، ولا نصل إلى تلك المقامات إلّا بالعمل المستند إلى التقوى ، فمعرفة الله وتوحيده تجعل مسؤولية العمل على عاتق الإنسان بعنوان الأمانة الإلهية .

(١) العلم والفن : ص ٢٣٦ (بالفارسية) .

(٢) سورة النحل : الآية ٩١ .

الأصل الثاني

عدلُ اللهِ الشّامل



نظرات حول العدل

سارت مسألة العدالة الإلهية بين سائر الصفات الإلهية مسيراً خاصاً ، حيث كان للمسلمين نظرات مختلفة بشأن العدل الإلهي ، وقد أبدوا اجتهاداتهم واستنباطاتهم في هذه المسألة بأشكال مختلفة .

فجماعة من أهل السنة من أتباع أبي الحسن الأشعري ليس لهم إيمان كإيماننا بالعدل الإلهي ، وكأنهم ينكرون العدل في أفعال الله ! .

إنهم يرون : أن كل ما يفعله الله بأيّ شخص حتى لو كان عقاباً أو ثواباً بدون استحقاق بعمل ، كان ذلك حسناً ومحض الحق والعدل ؟ حتى لو حسبناه نحن خلافاً لموازين العدل والإنصاف وفقاً للمقاييس الإنسانية .

هؤلاء ينزعون صفة العدالة عن أفعال الله سبحانه ، ولا يحسبون الشيء عدلاً إلاّ باستناده إلى الله سبحانه ، فلو أثاب المحسنين وعاقب المسيئين كان عدلاً ، ولو عمل عكس هذا أيضاً ، لم يكن خارجاً عن ساحة العدالة ! إنهم إذ يقولون بلغوية التعبير بالعدل والظلم عن أفعال الله ، يزعمون أنهم يقدّسون الله عن هذا الطريق ، بينما نحن لا نحسب عاقلاً يحسب هذه الفكرة تقديساً لله ، بل هي وليدة نقص فكريّ وتعصّب أعمى باسم العلم ! إن هذه النظرة تؤدي إلى إنكار الحساب والنظام وأصل العليّة والسببية في نظام العالم وأفعال البشر .

إنهم يعتقدون بأن نور العقل بكل إشراقه ينطفىء في الإدراكات الدينية . ومسائل الإسلام وأحكامه ، ولا ضوء له على هذا الصعيد كي يضيء الدرب أمام أقدام الإنسان ، ولهذا فلا يمكن الاستناد إلى هداية العقول والإفادة منها .

إن هذا الادعاء لا يطابق القرآن ولا مضمون السنة ، إذ القرآن الكريم يرى الإعراض عن العقل ضلالاً ، بل يدعو الناس إلى التعقل والفكر لمعرفة المعارف الإلهية والعقائد الدينية ، وشبه الذين يعرضون عن الإفادة من أضواء هذا المصباح الذاتي المنير ، شبههم بالحيوانات والأنعام فقال سبحانه :

﴿ إنّ شرّ الدّوابّ عند الله الصمّ البكم الذين لا يعقلون ﴾[1] .

وقال رسول الإسلام (صلى الله عليه وآله) :

« حجة الله على العباد النبيّ ، والحجة فيما بين العباد وبين الله العقل »[2] .

وأمام هذه الفرقة من المسلمين فرقتان هما : المعتزلة والشيعة ، الذين اختاروا العدل من بين صفات الله وجعلوه أصلاً عقائدياً برأسه ، ورأوا أن القول بأثر القضاء في أعمال الإنسان إلى حدّ اضطراره في العمل ، مناف لأصل العدل ، هؤلاء يعتقدون أن العدل أساس أعمال الله سواء في نظام التكوين أو نظام التشريع ، وكما أن أعمال الإنسان تقاس بمقاييس الحسن والقبح ، كذلك لا مانع من تطبيق مقياس الحسن والقبح على أعمال الله سبحانه ، وبما أن العدل في منطق العقل أمر محمود والظلم مذموم ، فالمعبود المدبّر والحكيم على الإطلاق لا يزاول عملاً مذموماً عند العقل بل ممنوعاً .

إننا حينما نقول : إن الله عادل نعني أن الخالق العليم لا يعمل عملاً

---

(١) سورة الأنفال : الاية ٢٢ .

(٢) الكافي ج ١ ص ٢٥ .

على خلاف الحكمة والمصلحة ، وليس مفهوم الحكمة في الخالق بمعنى بلوغه إلى أهدافه ورفع حوائجه باختيار أحسن السبل ، بل الله هو الذي يخرج الموجودات مما فيها من نقص وإعواز إلى الكمال والغايات السامية ، والحكمة في كل مخلوق هي ما أودعه الله فيه من غايات وأهداف ، والله هو الذي يجود عليهم بفيض التكامل بعد أن أفاض عليهم الوجود .

فالعدل له مفهوم واسع من أجلى مصاديقه الابتعاد عن الظلم والعدوان .

وقد روي عن الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال مبيناً لمعنى العدل :

« أما العدل فأن لا تنسب إلى خالقك ما لامك عليه »[1] .

لا ريب أن كل ظلم وفساد في السلوك والعمل على تفاوت واختلاف في الأشكال والأساليب ، وصور صدوره من البشر ، إنما تنشأ من الجهل والحاجة والضعف أو الحقد والعداوة .

كثير من الناس يبرأ من الظلم والفساد ، ولكنه بسبب جهله بعواقب الأمور يلوث يديه بلوث الظلم والعدوان ، أو أنواع الأعمال الفاسدة والقبيحة .

وقد يشعر البشر بالحاجة إلى شيء يفقد إمكانية قضائها ، فتؤدي تلك الحاجة بصاحبها إلى كثير من الفساد ، إن الشعور بالحاجة والحرص الشديد المؤلم والحقد المؤذي من دوافع التجاوز على الآخرين ، أجل قد يصل به الحال إلى أن يفقد اختياره من يده . وينـدفع إلى أن يكرس كل مساعيه ومحاولاته من أجل تحقيق أمانيه وآماله ومناه ، ويكسر في ذلك كل الحدود الأخلاقية والإنسانية ، ويضغط على أعناق المظلومين .

---

(١) الكافي ج ١ ص ٤٤٢ .

وسبحان الله الواحد الأبدي عن هذه الخصائص والنقائص والمضايقات ، إذ لا يخفى على علمه الواسع شيء ، ولا يتصوّر أيّ عجز أو ذل بشأن ذلك الناموس الأزليّ الذي يمدّ بأشعته الخالدة الموجودات بالحياة وينظم تكاملها وتطورها وتنوعها ، إن الذات المستجمعة لجميع مراتب الكمال لا تكون فقيرة محتاجة إلى شيء أبداً وإذن فلا يخاف الله الفوت ، وإذا أراد شيئاً فلا ريب أنه قادر على كل شيء من دون أيّ محدودية في قدرته على ذلك ، كي يخرج لذلك عن جادة العدالة فيظلم أحداً ، أو أن ينتقم تشفياً لخاطره ، أو يعمل أيّ عمل غير لائق بكماله سبحانه .

إذن فدوافع هذه الأعمال أيضاً ، لا تجد طريقاً لها إلى وجود الخالق العظيم ، ولا يمكن أن يجد الظلم مصداقاً في تلك الحقيقة التي يبدو فيض جوده وقداسة ذاته جلية على جبهات الوجود .

والقرآن الكريم ينفي عن الله الظلم وكل عمل مما لا يتناسب وساحته المقدسة فيقول :

﴿ فما كان الله ليظلمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون ﴾(١) .

ينفي الله في هذه الآية عن نفسه الظلم وينسبه إلى المخلوقين أنفسهم .

ومن ناحية أخرى : كيف يمكن أن يدعو الله الناس إلى إقامة العدل وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، ثم هو يرتكب الظلم ويتجاوز العدل ؟! ﴿ إنّ الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغي ، يعظكم لعلكم تذكرون ﴾(٢) .

إن القرآن الكريم يولي العدل أهمية خاصة ، ويرفع من مقام العدل حتى يجعله هدف بعث الأنبياء ويقول :

---

(١) سورة الروم : الآية ٩ .

(٢) سورة النحل : الآية ٩٠ .

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾[1] .

ولمعرفة نظرة الإمام أمير المؤمنين (عليه السلام) إلى العدالة الاجتماعية نقرأ في نهج البلاغة :

« قال عبدالله بن عباس : دخلت على أمير المؤمنين (عليه السلام) بذي قار وهو يخصف نعله ، فقال لي : ما قيمة هذه النعل؟ فقلت ، لا قيمة لها ، فقال (عليه السلام) : والله لهي أحبّ إليّ من إمرتكم إلاّ أن أقيم حقاً أو أدفع باطلاً »[2] .

ويرفع الإسلام مقام العدالة الاجتماعية حتى يحكم على المسلمين أن إذا انحرفت طائفة من المسلمين عن جادة العدالة الاجتماعية واتخذت طريق العدوان والتجاوز على حقوق الآخرين ، وجب إحباط محاولاتهم العدوانية حتى ولو استلزم ذلك محاربتهم وقتالهم :

﴿ وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما ، فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التي تبغي حتى تفيء إلى أمر الله ، فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا ، إنّ الله يحبّ المقسطين ﴾[3] .

وفي الآية نقطة مهمة ، هي أنها تؤكّد على وسائط الصلح أن يلاحظوا بدقة كي ينهوا النزاع بالعدالة التامة وبدون أيّ تغافل عن الحق والعدل ، إذ في الموارد التي بدأت الحرب والنزاع فيها بين الطرفين بالعدوان من أحدهما على الآخر ، فلو جعل هؤلاء الوسطاء الذين يريدون إنهاء المشكلة بالمصالحة ، لو جعلوا ضغطهم على العفو والصفح ، وحاولوا أن يكتسبوا رضا أحد الطرفين بأن يرفع اليد عن حقه ، كان من المحتمل أن يؤيد

---

(١) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(٢) نهج البلاغة / الخطبة : ٣٣ .

(٣) سورة الحجرات : الآية ٩ .

هـذا العفو والتجـاوز الجائـر روح العدوان والتجبـر ، فيمن حاز على شيء بالحرب والعدوان ، وهذا هو الغالب في المصالحات البشرية فهم يحاولون إرضاء المعتدي بإعطائه بعض ما يريد على الأقل .

إن غض الطرف عن بعض الحقوق ، وإن كان حسناً في نفسه ، إلاّ أنه يخلف أثراً غير حسن في نفس المعتدي في هكذا مواقع ، في حين يحاول الإسلام أن يطرد شبح الظلم والعدوان عن أوساط المجتمع الإسلامي ، وأن يثق الناس بعدم الإمكان لأحد أن يظفر بشيء بالعدوان والتجاوز على حقوق الآخرين .

بإمكاننا أن ندرك بملاحظة نـظام الوجـود أنّ هناك تـوازناً يحكم على جميع الظواهـر الفلكية ، تـوازناً شـاملاً ، إن انتـظام الذرّات والألكتـرونات وحركة جميع الأجسام، ومنها دوران المجرّات والسيارات،وفي عالم الجماد والنبـات ، والانسجام الكـامل بين أعضـاء المـوجـود الحيّ وكـل القـوانين الدقيقة ، التي يسعى العلم لمعرفتها ، كـل ذلك دليـل على وجود الانتـظام التـام في جميع أجـزاء العالم ، وقـد بيّن نبينا (صلى الله عليه وآله) هـذه العـدالة الشـاملة والتوازن التـام وأن لا شيء بلا حسـاب ، في بيان موجـز وبليغ : « إن العدل هو الذي يمسك السماوات والأرض أن تزولا » .

ويقول القرآن الكريم على لسان موسى (عليه السلام) :

﴿ ربنـا الـذي أعـطى كـل شيء خلقـه ثم هـدى ﴾[1] ، إن مـوسى (عليه السلام) يصـوِّر لفرعـون بهذه الجملة القصيـرة ، كيفية خلق العـالم الفيّـاض باللطف والجمـال والنظام التـام ، الذي هـو من آيات الله سبحـانه وتعالى ، يبين له ذلك ﴿ لعله يتذكّر أو يخشى ﴾ أو يدرك ذلك النظام العادل والدقيق في جميع أجزاء الوجود .

إنّ النظام والاعتدال من السنن الحاكمة على الطبيعة بصورة قسرية ،

---

(١) سورة طه : الآية ٥٠ .

وكل شيء من أجزاء الطبيعة يتحرك في إطار السنن والقوانين الطبيعية نحو كماله ومسيرته الخاصة ، وإن أيّ انحراف عن النظام العام والعلاقات السائدة عليه يؤدي إلى الاضطراب والاختلال في نظام الكون .

طبيعي أن ظواهر الطبيعة تؤدي نوعاً من ردّ الفعل أمام ظهور أيّ اختلال في الطبيعة ، وتحاول طرد العوامل التي تمانع دون مسيرة التكامل من الخارج أو الداخل ، وتفتح الطريق لاستمرار مسيرة الرشد والتكامل وسيادة النظام والقانون .

فحينما يصاب البدن بحملات العوامل الممرضة والميكروبات ، تحاول الكريات الدموية البيضاء ، أن تحبط عمل تلك الميكروبات مكافحة لفسادها وفق سنة طبيعية قسرية ، والمعالجة الطبية التي تتخذ عن طريق العقاقير ، إنما هي مساعدة خارجية تمدّ تلك الكريات البيضاء بالعون والتأييد ، وتحاول إرجاع الاعتدال إلى البدن ، ولكن يختلف الحال بالنسبة إلى حكومة العدل في الإنسان ذلك لتمتع الإنسان بقدرة الاختيار .

أما الله الرحمان الرحيم المنعم الكريم ، فمحال أن يصدر منه ما لا ينبغي له مما يخالف العدل المطلق ، وهذا نداء القرآن يقول :

﴿ الله الذي جعل لكم الأرض قراراً ، والسماء بناءً ، وصوّركم فأحسن صوركم ، ورزقكم من الطيّبات ، ذلكم الله ربكم ﴾[١] .

* * *

(١) سورة المؤمن : الآية ٦٤ .

تحليل حول الشرور في العالم

إن البحث في عدل الله يبعث على التساؤل عن سرّ وجود البلايا والخسائر والشرور في نظام العالم ، وبعض النقائص في طبقات المجتمع ، إن هذا الموضوع يبعث موجاً من الأسئلة والإشكالات وإعصاراً في أفكار كثير من الناس ، بحيث لا يستطيعون الخلاص من تلك التساؤلات ، والشكوك والشبهات التي تنشأ من هذا المنشأ تتبدل إلى عقدة لا تنحل .

يقولون : كيف يمكن أن يكون العالم وليد الحكمة ، في حين نرى أن الآلام والشرور تسود هذا العالم ، وأنه صريع تحت رحمة التعاسة والشقاء ، وأن أمواج الإعواز والنقائص تفيض عليه من كل جانب ! .

ـ لماذا نرى أن الحوادث الموحشة والقاسية تهدد بين الحين والحين وجود البشر في أطراف العالم ، وتسبب آلاف الخسائر والتلفات ! .

ـ لماذا هذا جميل وذاك قبيح ، هذا سالم وذاك عليل ، فلماذا لم يخلقوا سواء ؟ أليست هذه الاختلافات نتيجة لعدم سيادة العدالة في صعيد الحياة ؟! .

ـ إن عدالة النظام لا تتحقق إلّا مع عدم الظلم والتمييز والآفات والبلايا ، وكل نقص وضعف وفقر ومرض .

* * *

اولا يجب علينا أن نقبل بأن تحقيقنا في مسائل الـوجود ، لا يبلغ بنـا إلى نهاية أعماق هذه الظواهر الوجودية ، ولا يكفي لتوجيه غايات الحوادث وتعليلها .

إن الحوادث المرة والبلايا في بادىء الرأي بلا معرفة حقائقهـا وبدون أن نتوسّم أبعاد أهدافها في النظرة البدائية ، تصوّر لنا انعدام العدل في نظام العالم بحيث تتأثر عواطف الإنسان حين تذكرها بشدة ، وفي خضمّ العواطف المتأثرة تتوالى التحليلات غير المنطقية .

أما إذا فكرنا بصورة أساسية وعميقة أدركنا أن هـذا التصوّر مبنيّ على أساس أننا نجعل مقياس حكمنا على هذه الحوادث أنفسنا ومصالحنا وأناساً ممن يرتبطون بنا مباشرة أو بالواسطة ، فما كان ينفعنا كان حسناً ، وما كـان يضرنا كان سيئاً، فالحسن والسيّىء هو ما رأته عيوننا القاصرة، كذلك مع عدم المعرفة الدقيقة بالسنن السائدة في العالم فهل الحوادث تـرتبط بنا فقط كي نجعل من أنفسنا مقياساً للحسن والسيّىء ؟! .

إن عالمنا المادي هذا متـطور ، أيّ متغيّر ، تحـدث غداً حـوادث لم تكن اليوم ، وتنعدم أشيـاء وتحدث بمكـانها أشيـاء ، فما كـان اليوم مفيـداً لبعض الناس لا يبقى له غـداً وجود في الخـارج ، ونحن بشر نحب أنفسنـا والأشياء المتعلقة بنا فالحسن عندنا ما وجدناه والسيّىء ما فقـدناه كـذلك ، وهناك بعيداً عن الإنسان حوادث مختلفة تنشأ من تغيّر عالمنا هذا، ولولا تغيّره لما كانت فيه حوادث ، وإذ ذاك فلا حسن ولا قبيح .

في ذلـك العالم الخيـالي الخالي عن التغيّـر والحـوادث. لا نقص ولا إعواز ولا تطوّر ولا نموّ ، ولا وجود للتضاد والتباين ، ولا تمايز ولا آمال ولا أيّ حركة ، وفي ذلـك العالم الـذي لا نقص فيه لا أثـر للقوانين الأخـلاقية والحدود الاجتماعية والضوابط الإنسانية ، إن التطوّر والتمايز إنما هو من أثر حركة الكواكب السيارة ، ولو انعدمت هذه التحوّلات لمـا بقيت الأرض ولا الشمس ولا القمر ، ولا الأيام والشهور والسنين ، إن العالم الذي لا ألم فيه

ولا مصائب لا حركة فيه ، ولا مساعي ولا محاولات ، ولولا الإحساس بالمخاطر لما كان الإحساس بالأمان مبهجاً مفرحاً ، إن عالماً لا تتموج فيه المنى والآمال ولا تأثير فيه للعاطفة والمحبة والمودة في أرواح ذوي الأرواح ، لا تستقر فيه علاقات البشر على أساس متلاحم مصمم ، ولكان حب الكمال ميتاً في الإنسان ، بينما العلاقات المتقابلة هي التي تؤثر في تطوّر البشر بمقياس واسع .

وفي رؤية شاملة يمكن أن يكون ما يضرنا اليوم ينفعنا في واقع الحال أو للآخرين ، إذ أن حركة العالم إنما تهدف إلى تحقيق الأهداف العامة للعالم ، وربما تضرر أفراد في مسيرة هذه الأهداف ، أو لم تكن الفوائد عامة لجميع أفراد الإنسان ، نعم لو استطعنا أن نغوص بحار المعارف الإلهية ، ونتصفح بأنامل العلوم والرؤية الشاملة صحائف الأسرار والرموز ، لكانت آثار عواقب الحوادث وفلسفتها تبدو لنا واضحة بيّنة ، أما مع علمنا بأن حوادث اليوم وليدة سلسلة من العلل السابقة ،وهي أسباب لحوادث لاحقة وعلل لمعلولات آتية ، ندرك أن ما نراه ونحكم عليه أنه خير أو شرّ ليس حكماً جامعاً عميقاً .

أجل لو أمكننا أن ننظر من فوق إلى مجموع العالم ، بكل جوانبه الإيجابية والسلبية ، ونرى جميع الأسرار وكل ما يجري في العالم ، فنقدّر جميع نتائج الحوادث في طول تأريخ البشر الماضي والحاضر والمستقبل ، وفي جميع عوالم الوجود الأزلية والأبدية ، فنرى أضرار حادثة ما أكثر من منافعها ، حينذاك كان بإمكاننا أن نصف تلك الحادثة بالشر .

ولكن هل للبشر أن يحيط هذه الإحاطة الكاملة التامة بجميع أسرار العالم ؟!

أما إذا لم تكن لنا هكذا قدرة على التحقيق ، وكانت خطواتنا قاصرة في هذا المسير ، ولم يمكن لنا أن نرفع الستار عن الأسرار والرموز المعقدة في هذا العالم فنحسب لها حسابها ، وجب علينا أن نكف عن الحكم

والقضاء العاجل والقاصر ، وكان علينا أن نعلم بأنه لا ينبغي لنا أن نجعل منافعنا ومصالحنا الخاصة مقياساً للنظر في النظام العام لهذا العالم الواسع ، فنقضي لها بنتيجة كلية ، وبكلمة : لا يمكننا أبداً أن نجعل من نظرتنا النسبية التي تخضع للظروف الخاصة ملاكاً للحكم النهائي .

فربما كانت الطبيعة تعمل من أجل تحقيق هدف يصعب تصوّره على الإنسان وفقاً لمسيرة الحياة الطبيعية ، فهل لنا أن نتصوّر أن هذه الحوادث غير المتناسبة وغير المتزنة تسعى لتمهيد أرضية تنشأ عليها مواليد جديدة تخلف بعض ما هو موجود اليوم ، ولعل الظروف اليوم تقتضي تلك الحادثة الخاصة ؟

لو لم تكن تجري هذه التحوّلات المذهلة لأهدافها المرسومة وتستمر في أدوارها المختلفة لما كان اليوم أيّ أثر من أنواع الحيوانات والإنسان على الأرض .

لماذا نتهم عالم الوجود بالظلم واختلال النظام بمشاهدة عدد من الحوادث والظواهر الاستثنائية ؟ ولماذا نضغط إصبع التأكيد على عدد مما نراه غير موزون ؟ وننسى جميع المظاهر المعقولة والظرائف الدقيقة والعجيبة في العالم ، والتي هي من آثار الحكمة اللامتناهية والإرادة المطلقة التامة .

إن العلوم البشرية بما لها من أشعة فتانة ، قليلة ومحدودة وقاصرة ، وليس الإنسان إلّا في بدايات المعلومات ، وليس هذا الغرور العلمي إلّا حصيلة لتلاعبه بالكلمات كيفما يشاء ، فالإنسان الذي لم يحصل بعد على علم تام بأسرار جسمه المحدود ، حينما يحاول الحكم على نظام الوجود بأسراره الواسعة ليس إلّا مخدوعاً مغروراً .

يقول الدكتور (كارل) : لا شيء أقرب إلينا منا ومع ذلك فإن في هذا الجسم من الأسرار الكثيرة ما لا علم لنا بها .

إن الإنسان الذي يرى التدبير في جميع جوانب الوجود يجب عليه أن

يعترف بأن العالم مجموعة من مجريات هادفة متكاملة، أي تسير نحو الكمال، وأن كل شيء في هذه الحياة يتبع مقياساً معيناً ، أما ما لا يراه معقولاً موجهاً فعليه أن يرى ذلك من قصر في نظره ، وأن يدرك أن محدودية وجوده لا تمنح مجالاً لمعرفة جميع أهداف الوجود وأسراره ، أما نفس عالم الوجود فلا نقص فيه .

إن قضية الحوادث المرة في العالم ، في نظرنا، تشبه قضية ذلك الرجل البدوي الذي يدخل البلد فيرى عدداً من المعاول الميكانيكية ماضية في تهديم عدد من الأبنية القديمة ، فيرى في هدم هذه الأبنية عملاً هدّاماً لا يقوم به إلاّ البلهاء ! ولكن هل أن هذا التخريب والهدم بلا حساب وبلا تصميم وهندسة وأهداف صحيحة ؟ وهل يمكن إقرار ذلك البدوي على حكمه وقضائه هذا ؟ كلاّ ؛ إنه رأى الهدم ، ولا علم له بالأهداف المرسومة للمهندسين والقائمين بالهدم والبناء بعد ذلك .

يقول أحد العلماء : « إن حال هؤلاء الذين يحكمون على ظواهر الوجود بالنقص والإعواز والشرّ ، كحال الأطفال الذين شاهدوا مسرحية تمثيلية ، لا تلبث أن تنتهي ، فيعمد أصحابها إلى جمع أثاثهم وأدواتهم ليقوموا بعرضها في محل آخر ويتابعوا عملهم . إلاّ أنّ الأطفال لا يرون أيّ معنى لذلك سوى الانحلال والانتهاء وسقوط الأعمدة والحبال والستائر وذهاب الممثلين » .

إننا لو نظرنا إلى المصائب والبلايا بنظرة عميقة ووسيعه واستفدنا منها استفادة صحيحة ، أدركنا أنها في الواقع نعمة لا نقمة ، بل إن كون النعمة نعمة أو النقمة نقمة يرتبط بنوع ردّ فعل الإنسان أمامها . فالموضوع الواحد قد يختلف وصفه بالنسبة إلى شخصين .

إن المصاب والألم إنما هو صافرة إنذار تبعث الإنسان لإصلاح ما فيه من نقص وإعواز وأخطاء ، والواقع أن الألم والمصاب جهاز الحيطة الطبيعية .

إن أورثت الثروة العيش والكسل كانت شقاء ، والفقر والإعواز لو كان سبباً في تربية الإنسان لنفسه كان نعمة ، فلا الثروة نقمة مطلقاً ، ولا الفقر شقاء مطلق ، وهكذا الأمر بشأن جميع المواهب الطبيعية .

إن الأمم التي تقاوم أعداءها وتضطرّ لحفظ وجودها إلى السعي والعمل ، تصبح أمماً حية مقتدرة ، إننا حينما نصف العمل بأنه سعي بناء ومحاولة إيجابية ، لا ينبغي لنا أن نغفل عن دور المصاعب في تأييد القوى الذاتية لتقدم الإنسان نحو أهدافه ، بل إن الأمة التي لا تضطرّ إلى تنشيط المساعي ، وتعيش في محيط فارغ عن المجاذبات هي أقرب إلى الانحدار والسقوط بل الانغماس في الشهوات واللذائذ المادية .

قد يتحمل الإنسان المصاعب والآلام الثقيلة في سبيل أهداف جليلة ؛ لولا تلك المساعي الصعبة لما كان الهدف يبدو كثيراً ، إن مسيرة التكامل لا ينبغي أن تكون بحركة ميكانيكية عمياء متهادية ، وإن محاولات الإنسان بلا إرادة واعية لا تبلغ إلى التغيير الأساسي ، إن المجاذبات المتضادة بمنزلة العصا الزاجرة للدابة عن المسير ، إن الجماد يتفتت بالضغط ولكن الإنسان يشتدّ بالمشاكل والصعوبات ، ولا يظهر نبوغ البشر إلاّ مع وجود الضر والشرّ .

إن اللذة المطلقة والغرام بالدنيا وجعلها هدفاً في الحياة ضلال وابتذال ، وإن أتعس الأشخاص من تربّى في نعمة تامة بعيداً عن صعوبات الحياة وآلامها لا يذوق حرارتها وزمهريرها .

إن اتباع الهوى لا يجتمع مع الحركة المثمرة والمحاولة المقتدرة والسعي المتواصل ، فإن قوة النفس والاستقامة تضادّ الالتذاذ بالفساد .

ولكن كما يستحيل جمعهما معاً كذلك يستحيل نفيهما معاً أيضاً ، فعلى الإنسان أن يسعى دائباً لينمي في نفسه قوة الإرادة والثبات بمقدار ما يقلل من طلب اللذة والمتعة .

إن أولئك المتربين بين المترفين بعيدين عن مزاولة مرارة الدنيا مع

حلاوتها ، حيث لم يعانوا ألم الجوع متمتعين بالرفاه ، لا يدركون لذة الحياة ولا حتى لذة الأغذية ، ولا يدركون الحسن والجمال . إذ إن مزاولة المشاكل وتـذوق المرارات ومـواجهة الفشـل في بعض المحاولات ، وتحمـل الآلام والمصائب التي تواجه الإنسان خطوة بعد خطوة ، هذا كله شرط في التمتع بلذائذ الحياة .

إن المدركات المادية والمعنوية من الحياة ، إنما يقدرها من وقع تحت ضغط الحوادث المرة وصعد التلال وهبط في الوديان .

إن الإنسان بسبب تمتعه بالحياة الدنيا يصبـح عبداً لهـا ولمن في يده شيء منهـا ـ كما قـال أمير المؤمنين (عليـه السلام) ـ ويفقـد حركتـه الحرة ويغفل أو يتغافل عن الحياة الأبدية والسعي في إعداد نفسه لها ، وهو ما دام في ظـل الأهواء وظـلام الأشباح فليس إلّا كـريشة على الأمـواج المـاديـة ، وكالأسير لكل شيء سوى الله سبحانه . ولهذا فإن الإنسان بحاجة إلى وسيلة لليقظة يكون لها دور في تصوير الأفكار ونضجها ، تذكـره بفناء هـذا العالم وزواله السريع ، وتبلغ به إلى تحرر النفس العاقلة ، التي هي الغاية المطلوبة للتربية الدينية ، التحرر من جميع الموانع والسـدود التي تمنع الإنسـان عن الترفع نحو الكمال ، كل الكمال .

أجل ، إن تهذيب النفس لا يحصل بسهولة ويسر ورخاء ، بل يستلزم غض البصر عن اللذيذ من الأهواء، وهو لا شكّ حرمان مرّ وبلوى ! صحيح أن هـذا السعي القيم ، في سبيـل تـوطيـد النفس واستثمـار الاستعـدادات الروحية ، إلّا أن الصبر عن المعاصي واللذات أمرّ من العلقم في المطعم ، وأشدّ من ألم اللدغة ووجع اللسعة ؟ ولا يقدر الإنسان على أداء رسـالته في رفع الموانع وتحطيمها وحلّ مشكـلاتها ، ولا يستـطيع الصعـود إلى مدارج المثل والقيم العليا ، إلّا بالمقاومة الصلبة .

الآلام منبهات لليقظة والحركة

إن أولئك السكارى بغرور القدرة والظفر ، الذين نسوا الأخلاق الإنسانية بسبب غلبة المغريات على عقولهم وأرواحهم ، قد تقدر الحوادث المرة في أطراف الأرض على أن تكون أرضية لتغيير أفكارهم ويقظتهم ، وأن تهتك الحواجز عن عقولهم ، وأن تهديهم إلى صراط مستقيم نحو كمال إنسانيتهم والبلوغ بهم من حالهم إلى مستقبل مثمر وسعيد ، وكثير من تحوّل من حاله السافل إلى مستقبل حافل على أثر هذه الحوادث والآلام .

إننا بالنظر إلى الآثار الضارّة والموحشة للغرور والغفلة ، والدروس التربوية الكثيرة التي يتلقاها البشر من هذه الحوادث ، نستطيع القول بأن هذه الحوادث والآفات ـ مع كونها شروراً نسبياً ـ تحتوي على نعم كثيرة وألطاف خفية توقظ الإنسان وتصنع له إرادته الواعية والجادّة .

إذن فالشدائد من مقدّمات التكامل في الوجود ، وهي التي تمهد الأرضية لتقييم القيم والمثل والإثابة عليها ، وبها تستبين مراتب الإخلاص والكمال أو الانحطاط في الإنسان ، ويقول القرآن الكريم بهذا الشأن : ﴿ لقد خلقنا الإنسان في كبد ﴾[1] .

---

(١) سورة البلد : الآية ٤ .

﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ، وبشّر الصابرين * الذين إذا أصابتهم مصيبة قالوا : إنّا لله وإنّا إليه راجعون * أولئك عليهم صلوات من ربّهم ورحمة وأولئك هم المهتدون ﴾[1] .

ويقول الفيلسوف المعروف : (أمرسون) :

« إن التغييرات الطبيعية التي قد تهدد بل تحطم سعادة الناس ، إنما هي إنذار من الطبيعة التي طبعت على النموّ والتكامل ، إذ حينما تظهر الحاجة إلى العبادة للخالق في روح الإنسان تترك الأرواح نظامها الرتيب المبنيّ على أساس المال والثروة والأصدقاء ، كما يترك صغير الحيتان مكانه الأوّل ليجد دوره اللائق .

إن أجر المصيبة يظهر على أفهام البشر بعد مرور الفواصل الزمنية الطويلة .

إن الأدواء ونقص الأعضاء وفقد الثراء وموت الأصدقاء واستيلاء اليأس والقنوط المفرط والبلاء ، مما لا يجبر كسره في حينه . . إلاّ أن مرور الزمان سيأتي على إظهار ما خفي علينا الآن من القوى والطاقات الكامنة ، في هذه الحوادث بل الحقائق الراهنة ! .

إن فقد الأحبة الذي ليس في البداية سوى الحرمان والمصاب ، سيجد صفة الهداية والإرشاد بعد قليل من الزمن ، فإن كل واحدة من هذه الحوادث تتكفل بإيجاد تحوّل في حياتنا لا محالة ، تنهي دوراً من الصبا والشباب المشرف على الأفول ، وتقطع سيرة مستمرة من الحياة والعمل الدائب الدائم ، إلاّ أنها تستحدث بمكانها سيرة جديدة تكون أكثر استعداداً للنموّ والكمال .

إن من يريد أن يعيش كالوردة الطرية سعيدة بعيدة عن الشمس المحرقة

---

(١) سورة البقرة : الآيات ١٥٥ ـ١٥٧ .

وغير آبهة برقة جلدتها وفرعها القائمة عليه ، حينما يهملها الفلاح وتتهاوى حيطان البستان ، تتبدّل إلى شجرة تين قوية في غابة ، تقوم بإفادة الناس بظلالها وثمارها »[1] .

لا ريب في أن الله قادر على خلق عالم لا ألم فيه ولا شقاء ، ولكنه لو كان إذ ذاك يسلب الإنسان حرية إرادته واختياره ، ويتركه بلا إرادة ودون اختيار وقدرة ، يتشكل في الطبيعة كسائر الموجودات ويتلون بألوانها ، فهل كان ـ إذ ذاك ـ يستحق اسم : « الإنسانية » أيضاً ؟ .

هل كان إذ ذاك يجد كماله ولا ينحدر إلى هاوية الانحطاط والسقوط مع افتقاده لاستعداده وحريته ؟ وهل كان العالم يشتمل إذ ذاك على ما فيه من الحسن والجمال الذي لا يتميز إلاّ بالقياس بأضداده ؟ .

إن الله الحكيم سبحانه أراد بحكمته المهيمنة على الوجود كله أن يدل على قدرته وحكمته في تجديد الحوادث وإتقانها بتفضّله على الإنسان بنعمة الاختيار والحرية التي لا تقدّر بثمن .

أودع في الإنسان القدرة على الخير والشر كليهما ، ومن دون أن يجبره على فعل أيهما ينتظر منه الخير دائماً ، فإنه لا يرضى بالشر والقبيح ، وإنما يرضى بالحسن والجميل الذي قرر أجراً كثيراً لا يحصى على فعله وترك ضدّه ، وقد نهاه عن سوء السيرة والإساءة بالاختيار ، وأوعده بالجزاء والعذاب الأليم ، فللإنسان أن يعمل بإرادته واختياره تحت هداية الله سبحانه فيكون شاكراً ، أو يترك فيكون كفوراً .

وقد فتح الله للإنسان طريق العودة إلى الطهارة والنور حتى إذا ما زلت به قدمه عاد إلى لطف الله ورحمته ، وهذا هو من لطف الله وعدله ورحمته .

إن من يبادر إلى عمل صالح إذا ما أثابه الله على عمله ومنجزاته ثواباً

---

(١) الفلسفة الاجتماعية : ص ٢٩٧ ـ ٢٩٨ (بالفارسية) .

عاجلاً ، لم تكن له فضيلة على الفاسد ذي العمل غير الصالح ، وكذلك إذا ما عاقب الله ذوي الأعمال السيئة بالعذاب العاجل ، لم تبق أية مزية للفضيلة على الرذيلة ، وللطهارة على الخبث وسوء السريرة .

إن أساس العالم مبنيّ على وجود الأضداد ، وإن تحوّل المادة في صفاتها هو الذي يجري من خلاله فيض الوجود من الباري سبحانه على هذا العالم ، ولو لم تكن المادة تتشكل بأشكال مختلفة ، ولم تكن مستعدة لتقبل الصور الجديدة على أثر التضادّ بين الموجودات لما أمكن أن يتحقق التكامل والتطوّر لهذه الموجودات .

إن العالم الثابت غير المتغير كرأسمال راكد لا يفيد ربحاً ، وإنما تداول المال هو الذي يستتبع الربح والفائدة ، وقد يكون تداول رأسمال خاص يستتبع خسارة خاصة ، إلاّ أن جميع مواد العالم وكل هذا الرأسمال لا ريب يربح في تداوله .

إن التضادّ الموجود في صور المادة يقود نظام الوجود إلى كماله المطلوب .

نحن إذا لاحظنا جيداً وجدنا أن « الشر » ليس وصفاً حقيقياً بل إنما هو وصف نسبيّ ، فالأسلحة النارية بيد العدّو شرّ لي وهي بيدي لمقابلته خير لي ، ولولا العداء بيني وبين عدوّي فلا هي شرّ ولا هي خير .

أضف إلى ذلك أن نظام العالم لا يلبي كل ما نريد ، ونحن نريد أن نحصل على كل ما نريد مما لا يحصى من دون أيّ مزاحم أو مانع ، بينما العوامل الطبيعية لا تستجيب لما نحب مما لا أهمية له ولا قيمة ، ولا تستسلم لميولنا ، ولذلك فحينما نواجه في حياتنا الآلام نجزع ونفزع ونعبّر عما أصابنا بالشر ، وهذا التعبير إنما هو من عدم استيعابنا لشؤون الوجود في ذاتنا وعالمنا .

إن من يعلم بعدم وجود النفط في المصباح إذا أراد أن يوقده فلم

يتّقد ، لا يسب الأرض والسماء ولا ينادي بالويل والثبور .

إن عالم الوجود يسير نحو هدفه المرسوم له بسعي متواصل ، وحثيث خطوة خطوة ، ولا تحدث التحوّلات فيه حسب خواطر البشر ، بل بالعلل والأسباب .

على هذا لا بدّ لنا من أن نخضع ونقبل بأن بعض مجريات هذا العالم لا توافق ميولنا ، إذن فلا يمكن أن نصف ما لا يلائمنا من هذا العالم بالظلم والجور والشر بالنظرة الفلسفية .

يقول أحد العلماء : « إن الطبيعة صادقة وعملاقة ، تعمل عملها بدقة وبلا أيّ زلل ، ولا يصدر الخطأ والغلط إلاّ من ناحيتنا . إن الطبيعة تحارب الضعف والعجز ، ولا يظهر شيء من أسرارها ورموزها إلاّ للطاهرين من المقتدرين المتقين » .

إن أمير المؤمنين علياً (عليه السلام) يذمّ الدنيا ولكنه يراها : خير دار لمن أبصر بها واعتبر منها ، وكان يواجه في حياته أنواع الشدائد والآلام ولكنه يذكر الناس بعدالة الله المطلقة .

وهنا نقطة أخرى هي : أن الخير والشرّ ، في نظام الوجود ليسا مستقلين بعضهما عن بعض ، بل الخير هو الموجود والشر هو المعدوم ، فحينما يأتي الكلام عن الفقر والجهل والمرض ليس الفقر إلاّ فقدان الثروة وليس الجهل سوى عدم العلم ، وليس المرض غير انعدام السلامة أو اختلالها .

وحينما نحسب الآفات والسباع والمصائب شروراً ليست هي إلاّ أعداماً ، أو ليست شراً إلا لأنها أعدام في أمور أخرى ، وإلاّ فلا يمكن أن نعدّ الشيء الموجود بما هو موجود شراً ، فلو لم تستتبع الأمور هذه المرض والموت ولم تسبب في فقدان أجزاء من الوجود ، أو لم تمنع عن نموّ بعض الاستعدادات الإنسانية وغيرها ، لم تكن شراً أصلاً ، فإنما الشرّ بالذات هو

ما ينشأ من هذه الأمور من الخسائر والتلفات .

فما هو موجود في العالم ، إنما هو خير ، والشرّ إنما هو من نوع العدم ، وليس العدم نوعاً من الوجود ، فليس الشرّ نوعاً من الوجود .

وليس مثل الوجود والعدم إلاّ كمثل الشمس والظلّ ، فإذا واجه الجسم الشمس أوجد ظلاً ، ولكن ما هو هذا الظلّ ؟ ليس له شيء من الوجود ، وليس هو سوى عدم شمول النور المباشر لوجود المانع ، وإلاّ فليس مستقلاً في وجوده .

إن الأشياء بما أنها قد تعلق بها الخلق ، ووجدت لنفسها حظاً من الوجود ، ليست شراً من هذه الجهة ، بل الوجود في الفلسفة الإلهية يساوي الخير والإحسان، فكل شيء خير في وجوده وبالنسبة إلى نفسه، ولو كان شراً فإنما هو بالنظر إلى وجوده النسبي والإضافي بالنسبة إلى الأشياء الأخرى ، وليس الوجود النسبيّ وجوداً حقيقياً وإنما هو وجود اعتباري لم يتعلق به الوجود بالذات .

فبعوض الملاريا ليس شراً في نفسه لنفسه ، وإنما يوصف بالسوء بالنظر إلى إساءته إلى الإنسان وتسبيبه له المرض والموت ، والذي يتعلق به الخلق إنما هو وجود الشيء لنفسه الذي هو وجوده الواقعي ، وأما الوجودات الاعتبارية فبسبب عدم واقعيتها في الوجود لا يصحّ أن نسأل : لماذا خلق الله هذه الوجودات الاعتبارية الإضافية ، فإن الأمور الانتزاعية والإضافية تلازم ملزوماتها ولا تنفك منها قط ، بل هي من اللوازم القسرية للأمور الحقيقية الواقعية ، أما نفس هذه الوجودات الإضافية فبما أنها لا حظ لها من الوجود لا يمكن السؤال عن وجودها .

إنما الموجود بالوجود الواقعي يجد وجوده من الخالق الموجد ، والأشياء والأوصاف الحقيقية لها وجود في خارج أذهاننا ، أما الأوصاف النسبية فإنما هي مخلوقة لأذهاننا ولا حقيقة لها في خارج أذهاننا ، فلا يصحّ أن نسأل عن خالقها .

لقد اقتضت الحكمة الإلهية وجود هذا العالم بنظامه هذا الموجود بجميع لوازمه وأوصافه التي تشكل بمجموعها هذا الكلّ المتشكل. أما العالم بلا نظام ، أو بلا نظام العلية ، أو مع استقلال الخير عن الشرور الإضافية النسبية ، فليس إلاّ وهماً محالاً ، إذ ليس الكلام على جزء من النظام دون جزء آخر ، بل كل الوجود كالبدن الواحد ، وحينذاك يصبح عالماً آخر غير هذا العالم ويخرج عن مورد الكلام .

إن الله غنيّ بالإطلاق ، وذلك يلازم فيض الخلق والإيجاد ، كما يلازم البذل الجواد ، من دون أن يريد بذلك جزاءً أو شكوراً ، أو كالفنان الماهر الذي يلازم الفنّ والإبداع الدائم ، فالخلق والإيجاد من لوازم أوصاف ذات الخالق الباريء سبحانه .

صور من التفاوت

افترضوا صاحب معمل استخدم لإدارة وإنتاج محاصيل المعمل عدداً من العمّال العاديين وآخرين فنيين ، وحين أداء أجورهم أعطى للعمّال الفنيين المهرة والذين يتميّزون بكيفية عمل أحسن ، أعطاهم أجوراً أكثر من أجور العمال العاديين ، وهنا يأتي هذا السؤال : هل أن هذا الاختلاف في الأجور من العدل أو لا ؟ وهل أن صاحب المعمل ظلم العمال العاديين بعمله هذا أو لا ؟ .

لا ريب في أن هذا إظهار للتفاوت بين العمّال الفنيين وغيرهم ولكنه ليس تمييزاً باطلاً ، فليس معنى العدالة أن يقسم صاحب العمل الأجور بين العمّال الفنيين وغيرهم بصورة متساوية ، بل العدالة أن يعطي لكل أحد ما يستحقه ، وهذا الأسلوب يعين مستوى العمل ويمهّد الأرضية لتقدّم أكثر ، وله الأثر الواضح في رفع مستوى كيفية العمل .

إن التفريق في هكذا موارد من أصرح مصاديق العدل ، وعدم التفريق عين الظلم .

إننا حينما ندرس العالم بكل زواياه ونواحيه نرى أن لكل جزء منه وضعاً وموقعاً خاصاً لا يناسبه إلاّ كيفية خاصة ، وبالتحقيق العميق ندرك ضرورة وجود الظلمة إلى جانب النور والخيبة إلى جانب الفوز والظفر ، واختلاف

المستويات ، في تحقق التوازن العام في العالم ، وأنه لا يتحقق النظام العام إلاّ في هذه الصور المختلفة من الوجود واختلاطه بالعدم .

لو كان العالم وحدة واحدة خلواً من الاختلاف والتفاوت لما كانت فيه هذه الكثرة من الموجودات المتنوعة ، بينما نحن لا نرى عظمة هذا العالم إلاّ في نفس هذه الاختلافات والتنوعات الوافرة ، إننا لا نقدر على التقدير والقضاء العادل الصحيح بشأن العالم ، إلاّ مع ملاحظة توازن هذه المجموعة وعلاقاتها المتقابلة النافعة والمتكاملة ، لا بالنظرة الفردية والجزئية المنفصلة من هيكل هذه المجموعة الوجودية ، إن نظام الوجود مبنيّ على أساس التوازن ، والقابليات والاستحقاقات والموجود الثابت والمحقق في نظام الوجود هو التفاوت لا التمايز ، إذ التمايز عبارة عن التفريق بشأن الاستحقاقات المتساوية والشرائط والأوضاع والأحوال الواحدة ، بينما التفاوت عبارة عن التفريق مع الشرائط والأوضاع غير المتساوية .

إنه وهم غير صحيح أن يقول قائل : كان الأحسن أن يكون العالم متساوياً بعيداً عن أيّ اختلاف وتفاوت ، في حين لا تتحقق الحركة والتكامل والأخذ والعطاء المتبادل إلاّ في ظلّ التفاوت .

إن كل ما ندركه من الحسن والجمال لا يمكننا إدراكه إلاّ مع التقابل بين القبح والجمال ، إذ أن وجود القبح والاضطراب هو الذي يعكس ازدهار الحسن والجمال ، وكذلك لو لم يكن في الوجود افتتان وابتلاء وتورط في المعاصي لما تجلّى اعتبار الفضيلة والتقوى ، ولم يكن أيّ موجب لضبط النفس وتهذيبها ، كذلك لو كانت لوحة الرسّام لوناً واحداً لما كانت هناك لوحة فنان ، وإنما تتجلى مهارته في فنه بتنوع الألوان والأصباغ ودقائق التصوير الرقيق اللطيف .

من أجل أن يتعين الشيء بشخصه لا بدّ من أن يختلف مع سائر الأشياء ، إذ لا امتياز لمعرفة الأشياء والبشر ، بعضه عن بعض سوى الاختلاف فيما بينها وبينهم .

بل إن الاختلاف في الاستعدادات والطاقات والقابليات والإمكانات والمواهب ، من عجائب شؤون الخلقة ، إن نظام الخلقة قد وهب لأفراد المجتمع أذواقاً خاصة لصالح استمرار الحياة الاجتماعية واستقرار نظامها ، فكل واحد يقضي جانباً من حوائج المجتمع ويحل قسماً من مشاكله .

إن التفاوت الطبيعي في الطاقات يستوجب حاجة الجميع إلى الجميع ، وتعهد كل واحد من أفراده ببعض أعماله على أساس قواه وأذواقه ، ولا ريب في أن تكامل الإنسان إنما يمكن أن يتحقق في ظلّ الحياة الاجتماعية .

وبإمكاننا أن نضرب لذلك مثلاً بالطائرة، فإنها ذات قطع وأدوات معقدة دقيقة تتفاوت بعضها عن بعض في الحجم والشكل ، هذا الاختلاف يتبع اختلاف الأعمال الموكلة إلى هذه الأدوات والأجهزة ، ولو لم يكن هذا الاختلاف في أجهزة الطائرة لم تكن لتصبح الطائرة طائرة ، بل تشكيلة من أنواع المعادن المختلفة ، ولو كان هذا الاختلاف في الطائرة من العدل ، لا الظلم فكذلك الاختلاف في موجودات هذا العالم من الإنسان وغيره ليس سوى مقتضى عدل الله سبحانه .

أضف إلى ذلك أن التفاوت في موجودات نظام الوجود من ذاتياتها ، فإن الله لا يخلق كل شيء بإرادة خاصة مستقلة منفردة ، بل إن العالم من أوّله إلى آخره وجد بإرادة واحدة؛ فإفاضة الله بالوجود على الموجودات هي التي أخرجت ما لا نهاية له من الأشياء إلى صعيد العالم بإرادة واحدة .

على هذه النظرية ، هناك نظام خاص لخلق الموجودات ينطبق على جميع أبعادها ، ولكل شيء مكان خاص به في نظام العلية ، وإرادة الله في خلق الأشياء وتدبير العالم هي نفس إرادته للنظام ، والدلائل الفلسفية القطعية تثبت هذه النظرية ، والقرآن الكريم ينبيء عن هذه الحقيقة إذ يقول :

﴿ إنّا كلّ شيء خلقناه بقدر * وما أمرنا إلاّ واحدة كلمح بالبصر﴾[1] .

---

(١) سورة القمر : الآيتان ٤٩ ـ ٥٠ .

من الخطأ أن نتصوّر أن نظام خلقة الله كنظام العلاقات الاجتماعية ، فليست علاقة الموجودات بالخالق علاقة وضعية حادثة ، بل هي نسبة الأحداث والإيجاد ، وأمره في ذلك أمر تكويني حقيقي ، وكل موجود يجد من الكمال والجمال ما بإمكانه أن يتقبله من قبل الله سبحانه .

ولو لم يكن لموجودات العالم نظام معيّن كان بإمكان كل موجود أن يصدر منه كل شيء ، وأن يتبادل المعلول مكانه بمكان علته ، علينا أن ندرك ضرورة وحتمية الروابط الذاتية بين الموجودات، وأنها من لوازمها الذاتية في أية رتبة كانت من الوجود، وعلى أية خصوصية كانت، وأنه ليس لأيّ حادث أن يتجاوز عن رتبته الخاصة ويشغل رتبة موجود آخر ، وأن التفاوت والاختلاف من لوازم المراتب السائدة بين الموجودات من حيث الشدة والضعف والنقص والكمال .

وإنما يتحقق التمييز غير الحق فيما إذا كان للحادثين كليهما ظرفية واحدة لتقبل درجة خاصة من الكمال ، فيفاض ذلك الكمال على أحدهما ويمنع عن الآخر .

ولا يمكننا أن نشبه مراتب الموجودات بالمراتب الاعتبارية في المجتمعات البشرية ، بل هي أمور واقعية غير قابلة للانتقال ، فلا يمكن للحيوان مثلاً أن يتبادل مكانه من الوجود مع رتبة إنسان ما ، كما يمكننا أن ننقل الأشخاص من مقاماتهم ومناصبهم ومراتبهم الاجتماعية إلى مراتب أخرى غيرها .

ذلك لأن علاقة العلة بالمعلول والمعلول بالعلة نابعة من ذات العلة والمعلول ، فلو كان الشيء علة كان ذلك للخصوصية غير القابلة للانفكاك عن ذات ذلك الشيء ، والآخر المعلول أيضاً إنما هو معلول بسبب الوضع الخاص في ذات المعلول ، ثم ليست تلك الخصوصية شيئاً سوى نفس كيفية وجود هذه الأشياء .

إذن فهناك نظام ذاتي عميق سائد بين جميع الموجودات ، وكل مرتبة وجودية هي عين ذات ذلك الموجود ، وما دام التفاوت والاختلاف يرجع إلى قصور ذاتي فليس ذلك تمييزاً بغير الحق ، إذ لا يكفي فيض الله لتحقق أمر ما ، بل قابلية المتعلق شرط أساسيّ لتحققه ، هذا هو السبب في حرمان بعض الموجودات وعدم توصلها إلى المراتب الأسمى مما هي عليه ؛ ومحال أن يكون الموجود ذا قابلية لوجود أو كمال آخر ثم يمسك الخالق الكريم ذلك الكمال أو الوجود عنه .

ذلك كالأعداد تماماً ، فلكل عدد مكانه الخاص ، فعدد الاثنين بعد عدد الواحد ، ولا يمكن تغيير مكان الاثنين ووضعه قبل عدد الواحد ، ولو أردنا أن نبدّل مكان عدد بعدد آخر انعدم ذلك العدد في الواقع .

إذن فقد تبيّن أن لجميع الحوادث أساليب معيّنة ، وأنها محكومة بسلسلة من القوانين الثابتة غير المتغيرة .

ولكن ليس معنى ذلك أن هناك قوانين خاصة لخلقة الله سبحانه، بل هي قوانين مفهومة لأذهاننا منتزعة من كيفية وجود الموجودات، على ما هي عليه الآن من مراتب ودرجات الوجود ونظام العلة والمعلول ، والذي لا تجري الأمور خارج ذلك النظام ، وتلك هي سنّة الله كما يقول القرآن الكريم :

﴿ ولن تجد لسنّة الله تحويلاً ﴾(١) .

والنتيجة : إن نظام الوجود مبنيّ على أساس سلسلة من القوانين الذاتية ، التي تعيّن بها مكان كل حادث في رتبة وجوده بها ، وإن وجود الدرجات والمراتب المختلفة للموجودات من لوازم وجود النظام للوجود ، وذلك بالطبع يوجب ظهور الاختلاف والتفاوت بين الموجودات ، إذن فالاختلاف والتفاوت لم يخلق بنفسه بل هو من لوازم ذات الحادثات ، وإن كل جزء من أجزاء هذا العالم قد أخذ ما كان بإمكانه أن يأخذ من مراتب

---

(١) سورة فاطر : الآية ٤٣ .

الوجود والكمال ، ولم يحكم هذه المجموعة الوجودية في مراتب كمالها تمييز بغير الحق بالنسبة إلى بعض أجزائها ، التي هي فيما بينها كجدول الضرب في الحساب والرياضيات

إن من ينظر بنظرة مادية ويرى الاختلاف والتفاوت في نظام الطبيعة ظلماً ، ويظنّ بأن الظلم يسود العالم ، تصبح الحياة عليه مرة صعبة وشديدة ، إنه حينما يواجه الحوادث يحكم ويقضي كما يقضي ويحكم الطفل الذي يرى البستانيّ يقطع الأغصان والفروع الخضراء السليمة من الأشجار في الربيع ، فإن عدم وعيه لحكمة هذا العمل يجعله يقضي على البستاني بأنه مخرّب جاهل ! .

إن الماديّ هذا لو ملك مواهب الدنيا بأسرها لا يشعر بالرضا والطمأنينة ، إذ لو لم يكن الوجود هادفاً وكان أساسه مبنياً على أساس الظلم والجور والعدوان فما معنى أن يطلب الإنسان العدل ويسعى لتحقيقه ؟! إذ كون الإنسان هادفاً في حياة لا هدف فيها لا معنى له أصلاً .

ولو كان مصير الإنسان كما يصوره هؤلاء الماديون كأعشاب الأرض تنبت وتموت ، فلا موجود أذلّ منه ! إذ هو يعيش في عالم لا يناسبه ولا يلائمه ولا ينسجم معه ، والفكر والإحساس والعواطف فيه سخرية من الطبيعة له لتضحك بملء فيها عليه ! إذ هي تزيد في شقائه وعذابه وتعاسته وبؤسه ، وحتى لو خدم الإنسان الإنسانية بنبوغه هذا بخدمات عظيمة حتى كان خادماً مخلصاً للبشرية فما هو الذي يعود له وإليه ؟! إن أيّ تقدير أو تكريم أو مراسيم تقام له بعده على قبره وباسمه لا تفيده أية فائدة أو ثمرة ، وليست سوى أسطورة من الأساطير الفارغة الجوفاء ، إذ الطبيعة هي التي صنعت منه جسداً حركته أياماً كما شاءت ثم ردّته مرة أخرى إلى قبضة تراب ! .

ولو درسنا مصير أكثر البشر الذين يعانون أنواع الهموم والغم والاضطرابات والحرمان وجدنا أمامنا منظراً هائلاً كئيباً . . فهل تصبح جنة

المادية مع هذه الرؤية عن الإنسان سوى جحيم من العذاب الهائل الموحش ؟! .

ويبلغ شقاء الإنسانية أوج غلوائه حينما ندرس نظرة الماديين إلى الإنسان بوصفه مكرهاً لا إرادة له ولا اختيار ، إنّ هذه الرؤية تنظر إلى الإنسان كماكنة أتوماتيكية تعمل الطبيعة حتى في خلاياه من حيث الديناميكية والميكانيكية أيضاً ! وهل يقبل العقل والفطرة وواقعيات الحياة هكذا تفسير عن الإنسانية ومصيرها وحياتها هذه الفارغة الجوفاء الرخيصة الخسيسة ؟! إنها إن قبلت ذلك فليس الإنسان إذن أسعد من الدمية بيد الأطفال ! .

ألا ينبغي للإنسان أن يفسّر أصول إنسانيته وأسس أخلاقه في حياته ومقياس قيمه إلّا في إطار النفع والضرر والمصالح والشهوات الشخصية ؟ ثم يكسر لذلك كل السدود والموانع ما أمكنه، ويطلق هوى نفسه عن كل قيد وحدّ ؟ .

ولو جلس للدراسة والتحليل ببصيرة ورؤية صحيحة بعيدة عن كل جهل ومرض وغرض ليقضي بالحق على هذه النظريات الوهمية القاصرة ، مهما كانت مزوقة بالمغالطات العلمية والسفسطات الفلسفية ، فهل يبقى اعتبار عنده بهذه الأوهام ؟! .

أما في الرؤية الدينية : فالمؤمن بها يرى العالم عبارةً عن نظام حكيم تحكمه إرادة وهدف معيّن ، وأن تلك الحكمة العظيمة والعادلة تحيط بجميع ذرّات الوجود وبكل أعماله وأفعاله هو ، ولهذا فهو يشعر بأنه مسؤول أمام هذا الحكيم الحاكم المحيط بالعالم ، وهو أيضاً يرى العالم منسجماً متوازناً متحداً وخيراً ، وأن لا وجود للشر فيه إلّا بصورة تبعية، وأنه ليس له دور في انسجام العالم واستمرار الخير فيه .

والجانب الآخر من هذه الرؤية التي تصوّر أفقاً رحباً لحياة الإنسان ، هو أنه لا يرى الإنسان الوجود ـ مع هذه الرؤية ـ منحصراً بهذه الحياة الدنيا ، وأن الحياة الدنيا أيضاً لا تتلخص في الرفاه الماديّ بعيداً عن كل ألم أو

تعب ، بل هو يشعر بأن الدنيا قنطرة للمرور عليها والوصول إلى تلك الحياة الأخرى ، وأنها ساحة للامتحان والسعي والعمل الدائب ، يختبر فيها مستوى إيمان الإنسان وصلاح أعماله ، وفي بداية تلك الحياة الأخرى هناك موازين دقيقة تَعيِّن للإنسان نتيجة الخير والشرّ في أفكاره وعقائده وأعمالـه ، وهناك تبدو الصورة الحقة للعدالة الإلهية ، ويجبر الله بجزائـه الجزيـل كل تخلف ماديّ أو حرمان معنوي كان للإنسان في الحياة الأولى الـدنيا ، على أحسن الوجوه وأكملها .

ومع هذه الصورة الرديئة عن ماهية المتاع المـاديّ الدنيـويّ لا يتحرك المؤمن بها حركة واعية إلاّ إلى الله تعـالى ، ويصبح بجميـع وجوده وسعيـه وهدفه أن يكون محياه ومماته لله ربّ العـالمين ، ثم لا يبالي بعـالي الدنيـا ودانيها ، ولا يقيّم الأمور العابرة إلاّ بالرؤية الحقيقية والواقعية ، ولا يقيد قلبه بأي جمال فتّان ، إذ هو يعلم بأن هذا الجمال سيجمّد منابع إنسانيته إن هو استسلم له ، وأنه ينكسه إلى حضيض الضلالة المادية العمياء .

* * *

وهنا كلمة أخرى : هي أنه لو لم يكن امتلاك الموجودات لما هي عليه بـالاستحقاق الإمكـانيّ ، إذن فلا ظلم مـع التفاوت والاختـلاف الـذي هي عليه ، إذ لا يتحقق الظلم إلاّ مع عمل التمييز غير الحق بالنسبة إلى شيء ما مع استحقاقه للمساواة مع الأشياء الأخرى ، أو في الإنسان مع الآخرين من نوعه ، ولا حق لموجودات العالم على الخالق القدير ، فهي لم تزل ولا تزال غير مستحقة لأيّ حق عليه سبحانه ، كي يكون رجحان بعضها على البعض الآخر مخالفاً لعدله تعالى .

إننا لم نكن نملك شيئاً من أنفسنا ، بل إن كل نفس نتنفسه ، وكل دقة من دقات قلوبنا ، وكل خاطرة من خواطرنا وأفكارنا في أذهاننا إنمـا هي من رصيد لا نملكه أيضاً ولم نسع لتحصيله ووجوده ، بل إن ذلك الرأسمال هدية

إلهية أرخصها لنا الخالق من بدء ولادتنا بل خلقتنا ، وإذا أدركنا أن ما نملكه إنمـا هو عـطية إلهيـة ، فالتفـاوت الموجـود فيما بيننـا إنما هـو على أساس الحكمـة ، وليس ظلمـاً كمـا ليس عـدلاً (حسب معنـاه المصـطلح) إذ لا استحقاق لأيّ أحد من قليل العطاء أو كثيره ، حتى يكون قليله ظلماً وكثيره عدلاً .

إن هذه الحياة المؤقتة إنما هي هدية وعطية من الخالق القديـر ، وهو حرّ مختار في تعيين نوع هذه الهدية ومستواها وله الخيار في ذلك ، ولا حقّ لنا عليه أصلاً ، فلا يمكن أن نعترض على من أعطانا هدية بالمجان ، مهما كانت تلك الهدية قليلة وغير خطيرة .

تحقيق حول

الجبر والاختيـار

نظرة بدائية إلى أصل الموضوع

الجبر والاختيـار ، من المسـائـل التي اجتـذبت إلى نفسهـا أنـظار المفكرين الذين كـانت لهم صلة بشؤون الإنسان ، ولا زالت معتـرك الآراء والعقائد المختلفة : هل الإنسـان حرٌ في أعمـاله ومسـاعيه واختيـار أهدافـه ومقاصده وأمور حياته الماديـة والمعنويـة ، ولا دور لأيّ عامـل في تصميمه سوى إرادته الشخصية ؟ .

أم أنـه مجبـر في سلوكـه وعمله ، ومكـره على اتخـاذ أيّ عمـل أو تصميم ، وهو آلة طيعة لعوامل أخرى ؟ .

إن طرح مسألـة الحريـة والاختيار على صعيـد البحث لا يقتصر على المباحث العلمية الفلسفية فحسب ، بل إن الحرية تدخل في رؤية وإقدام كل من يعرض وظيفة للإنسانيـة ويرى البشـر مسؤولين عن إجرائهـا وتنفيذهـا ، ويدعوهم إلى العمل بها ، إذ لو لم يكن قائلاً معتقداً بـالحريـة والاختيار لم يكن يبقى أيّ معنى للثواب والعقاب بعد المسؤولية .

بعـد ظهور الإسـلام أصبح للمسلمين اهتمـام خاص بهـذه المسـألـة العقائدية ، إذ أن الرؤية الإسلامية كانت تقتضي البحث والدراسة العميقة في

هذه المسألة ، وأن يحققها العلماء أكثر من أيّ مسألة أخرى بعد التوحيد ، فبيّنوا أساسها ونقاط الغموض والإبهام منها ، إذ أن هذه المسألة ترتبط بالتوحيد من ناحية وبالعدل أو القدرة الإلهية من ناحية أخرى .

ينقسم المتكلمون ـ سواء في الماضي أو العصر الحاضر ـ في مسألة الجبر والاختيار إلى قسمين :

القسم الأول منهم : أنكروا حرية الإنسان في أعماله بكل تأكيد ، وقالوا بأن ما يبدو له من مظاهر الأعمال والمساعي المختارة إنما ذلك من قصور ونقص في إدراك الإنسان ! .

والقسم الثاني : يقولون بأصالة اختيار الإنسان ، ويقولون بأنه يتمتع في أموره وأعماله بحرية كاملة ، وأن شعاع إرادته واسع وبلا مانع ولا رادع .

إن الإنسان يشعر بأثر الجبر في وجوده من قبل ميلاده ، حسب ملاحظة العوامل التي تحيط به من كل حدب وصوب ، وهو يشعر كذلك بالجبر في مواجهته مع بعض حوادث الحياة حتى أنه يكاد يعتقد بعدم وجود اختيار له ولا حرية ، حيث هو يقدم إلى هذه الحياة بلا إرادة منه ، ويدخل بذلك تحت نظام قسريّ في الحياة لا حرية معه، بل يصبح تحت رحمة هذا النظام كصحيفة ورق بيد الهواء حتى يودع الحياة الدنيا .

وهو من ناحية أخرى يلاحظ حريته واستقلاله بالنسبة إلى كثير من الأمور بصورة جيدة ، حيث لا جبر ولا إكراه عليه فيها ، فله القدرة والنفوذ في مكافحة المشكلات والموانع ، وله أن يبسط سلطته على الطبيعة بالاستناد إلى تجاربه ومستنتجاته السابقة .

ومهما كان مسلكه من الدين والمذهب والمبدأ والعقيدة في الحياة لا يقدر على إنكار هذه الواقعية العملية المحسوسة : إن هناك تفاوتاً عميقاً بين حركات يده ورجله وحركات قلبه وكبده .

فالإنسان في ظل شعوره بإرادته المختارة والنافذة التي هي رمز إنسانيته

وهي أساس مسؤوليته يشعر بحريته واختياره في سلسلة من الأعمال والأفعال ، ولا يرى أيّ مانع عن إجراء إرادته دون قدرته . وهو بنفسه يفقد اختياره ويبقى مغلول اليدين بالنسبة إلى عدد من الأمور المادية والغريزية، والتي تشكّل مساحة واسعة من حياته وجهازه الجسماني الذي لا ينفك تحت أثر العوامل الخارجية .

القائلون بالجــبر

ينكـر الجبريّـون حريـة الإنسان في أعمـاله ، وذهب الاشعـريون من الموحدين المسلمين إلى هذا القول مستندين في ذلك إلى المعنى الظاهر لبعض آيات القرآن الكريم ، بلا تدبّر في المفهوم الحقيقي لمجموع الآيات والأحاديث ، هؤلاء ينكرون آثار الأشياء ولا يعترفون بأيّ دور للعلل في عالم الطبيعة ، بل يرون حوادث الطبيعة معلولة للخالق بصورة مباشرة وبلا واسطة ، ويقولون : إن الإنسان وإن كان له قدرة وإرادة إلاّ أنه لا أثر لأيّ واحد منهما في أفعاله ، إذ ليست الإرادة والقدرة هي العلة لمعلول العمل بل إن الأصل في الأثر هو إرادة الله ، وإنما بإمكان الشخص أن يصبغ عمله ذلك بقصده وإرادته فقط ، وهـذه الإرادة هي التي تجعل ذلـك العمل في عـداد العمل الصالح أو غيره حسب المقاصد .

وعلى هذا فليس الإنسـان سوى آلة ومجرى لإرادة الله وقدرته فقط .

ويقولون : إننا لو قلنا باختيار الإنسان كنا قد حددنا صفة قدرة الله في مخلوقاته ، بينما تقتضي خالقيته المطلقة أن لا يكون الإنسان خالقاً لأعماله ، فالاعتقاد بالتوحيـد في حاكميتـه المطلقـة يستلزم القول بـأن جميع حـوادث الوجود وحتى أعمال الإنسان لا تجري إلاّ بإرادة الله سبحـانه وتعـالى ، ولو قبلنا وقلنا بأن الإنسان هو خالق أفعاله كنا قد أنكرنا حـاكميته المطلقة على

جميع عالم الوجود ، وهذا ينافي القول بخالقيته سبحانه ، وعلى هذا فالقول بحرية الإرادة يجرّ إلى الشرك بالله والثنوية .

هؤلاء الجبريّون يقولون : إن جميع حوادث العالم إنما تظهر للوجود بسبب وجود العلل المتقدمة عليها ، وهذه العلل المتسلسلة تنتهي إلى علة أصلية ونهائية هي الله سبحانه .

وليس الإنسان الذي يشعر في الظاهر بالحرية سوى آلة بلا إرادة ، ولا شيء يدخل تحت اختياره بدءاً بعقله وغرائزه وعواطفه وأحاسيسه، ومروراً بآثار العناصر الكيماوية والأمواج غير المرئية عليه، وانتهاء بآثار الماء والهواء وعوامل الوراثة والتربية والبيئة الاجتماعية وكثير من العوامل غير هذه ، فهو في الواقع في حصار هذه السلسلة من العوامل الداخلية والخارجية لا حرية له معها .

وآخرون تذرّعوا إلى أنواع الانحرافات في الفكر والعمل بتقبل القول بالجبر لتبرئة أنفسهم عن ارتكاب الأعمال المخالفة للأخلاق والدين ، وجعلوا الجبر مستمسكاً للفساد والإفساد ، من حيث يشعرون أو لا يشعرون ، منهم بعض شعراء المجون والخلاعة ، الذين وجدوا في التوّسل بالقول بالجبر عذراً مناسباً لما كانوا هم عليه من التلوث والفساد ، ونفسوا بهذا القول عن أنفسهم من سوء الذكر ووخز الضمير .

أجل ، هذه هي خلاصة فكرة القائلين بالجبر .

إن هذه الفكرة تنافي العدالة الإلهية والعدالة الاجتماعية ، بينما :

نحن نرى العدل الإلهي بجميع أبعاده في نظام الوجود بصورة واسعة ، ونصفه سبحانه بنفس هذه الصفة كما جاءت في القرآن الكريم :

﴿ شهد الله أنه لا إله إلاّ هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلاّ هو العزيز الحكيم ﴾[1] .

---

(١) سورة آل عمران : الآية ١٨ .

وكذلك جعل الله استقرار العدل في المجتمع البشري من أهداف بعث الرسل وإنزال الكتب فقال :

﴿ لقد أرسلنا رسلنا بالبيّنات وأنزلنا معهم الكتاب والميزان ليقوم الناس بالقسط ﴾(1) .

وكذلك العدل هو أساس عمل الله بعباده يوم القيامة إذ يقول :

﴿ ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئاً ﴾(2) .

فهل من العدل أن نجبر إنساناً على عمل ثم نجازيه بجرمه ؟ لا جرم أن الحكم بجزائه حكم ظالم وبعيد عن أصول العدالة .

ونحن لو أنكرنا أصل الحرّية ولم نعترف بأيّ دور إيجابي لإرادة الإنسان لم يبق هناك أيّ تفاوت أو تمييز بين الإنسان وسائر الموجودات ، فإن حركاتها المستمرة معلولة لعلل خارجة عن إرادتها واختيارها ، وعلى مبنى عقيدة الجبر تصبح أعمالنا وحركاتنا كذلك .

ولو كان الله هو الذي يخلق أعمال الإنسان الاختيارية ، وهو الذي يخلق الظلم والفساد في الإنسان وحتى الشرك به سبحانه ، فكيف يصحّ أن ننزّه ذاته المقدّسة عن تبعات هذه الجرائم ؟ .

إن القول بالجبر يلغي القول بالنبوّة والوحي والإلهام والأوامر والنواهي والأحكام الشرعية والبيانات العقائدية ، وكذلك الثواب والعقاب ، إذ لو قلنا بأن جميع أعمال الناس تتحقق من دون إرادتهم واختيارهم بل بصورة أتوماتيكية ، إذن فما هو دور رسالة الأنبياء المرسلين مدداً لإدراك عقول البشر ـ كما يقول أمير المؤمنين (عليه السلام) .

---

(1) سورة الحديد : الآية ٢٥ .

(2) سورة الأنبياء : الآية ٤٧ .

وما دام الأمر الإلهيّ خارجاً عن اختيار الإنسان فما هو الموقع من توجيه التكليف إليه ؟

وما دام سلوك الإنسان وحتى روحياته تصدر منه بصورة أتوماتيكية ، إذن فمساعي المربّين لإصلاح المجتمعات والأفراد على الفضيلة والأخلاق والتحرّك الخلّاق ، تذهب أدراج الرياح سدى ، وعلى هذا فما هي فائدة هذه المساعي والمحاولات ؟! ، إذ أن السعي في هذا السبيل لا يصل إلى النتيجة المتوخاة ، إذ لا معنى لتوخي التغيير بالتربية من الموجود المكره المجبور على ما هو عليه .

الحقيقة أن الإنسان مسؤول عن انحطاطه وسقوطه ومكلّف بانقاذ نفسه والآخرين وإسعادهم ، وأن اختياره هو الذي يقرر مصيره ، فهو يختار طريقه بدقة ، ويتوّكل على ربّه ولطفه ، فيوفقه الله بقدرته ونوره .

يقول الفيلسوف الشهير : (سانتي هيلر) :

« إن الذي خلق هذه العوالم ووضع قوانين الوجود لم يخلق شيئاً كالقلب من حيث العظمة ، والحرية ـ مع صغرها ـ هي أكبر من كل الطبيعة ، بل إن من عرف نفسه لم يستطع أن يقايس بين عالم الطبيعة وحريته الذاتية ، فهو قياس هزيل ، فإن عظمة المكانة المعنوية لا تناسب القياس بأية عظمة أخرى غيرها .

إن قدرة الله فينا أكثر جلاء ووضوحاً من قدرته في حوادث عالم الطبيعة، انظروا إلى نقطة واحدة مهمة: هي أن الإنسان حينما يشعر بالاختيار في ذاته بين إطاعة عقله أو عصيانه إياه ، يدرك أنه مسؤول أمام عالم قدير هو صانع الوجود وواضع نواميس الكون .

ينبغي للإنسان حينما يتجاوز الأوامر الإلهية ـ والتي يعترف هو بعدالتها ـ أن يكون مشفقاً من غضبه سبحانه ، ولو كان العاصي نفسه غاضباً على نفسه من الذنب الذي ارتكبه ، فعليه أن يعلم بأن الحاكم المطلق أيضاً

غاضب على مرتكب الخطيئة مع تمكنه من اجتنابها .

إن على من يشعر بلذة خاصة من سيادة قانون الأخلاق أن يدفع حساب هذه اللذة .

ولا يستطيع المجتمع أن يحاسب الأفراد ، فإن المجتمع إنما يعاقب على ما يسبب خسارة اجتماعية ، ولا يستطيع المجتمع أن يحاسب الدور الحقيقي لذلك الفرد المتخلّف ، إذ لا يطلع المجتمع على نيات الأفراد وما تخفي الصدور ، وهي وإن كانت تخفى على العدالة الاجتماعية لكنها لا شكّ دخيلة في الحكم والقانون .

فإما أن ننكر سيادة قانون الأخلاق وحرية الإنسان ومسؤوليته ، أو أن نقبل ونعتقد بالحياة الأخرى فيما وراء هذه الحياة الدنيا يحكم الله فيها بعدالته كنتيجة لازمة ، وقانون الأخلاق إذ يحكم بوجوب وجود العدالة النهائية لعالم الآخرة الأبدية لا يتجاوز في حكمه هذا حدوده ؛ إذ لا معنى لحياة الإنسان الدنيا بدون حياة أخرى بعد هذه »[1] .

قالوا : مع الاعتقاد بعلم الله وأنه عالم منذ الأزل بجميع حوادث العالم ، والاعتقاد بأنه لا تحدث في أية نقطة من العالم حادثة جزئية أو كلية إلّا وهي سابقة في العلم الأزلي لله سبحانه ، إذن فلا بدّ من أن تتحقق جميع السيئات والمعاصي من دون أيّ تغيير ؛ ثم لا اختيار للإنسان لترك شيء منها ، أليس هكذا ؟! .

ونقول : صحيح أن الله عالم بالحوادث الكلية والجزئية ، ولكن لا يؤدي هذا العلم إلى إكراه الإنسان على أعماله ، فإن علم الله إنما هو متعلق بنظام العلية ، ولا يتعلق بالحوادث وأعمال الناس خارج إطار الأسباب والمسببات ، والعلم الذي يتعلق بمجاري العلل والمعلولات لا يوجب الجبر والإكراه ، فإن الله العالم بمجاري الحوادث في العالم يعلم بأن الإنسان

---

(١) مقدمة عالم الأخلاق : ص ١٩ ـ ٢٠ (بالفارسية) .

يعمل بإرادته واختياره ، وحرية البشر في إرادتهم واختيارهم جزء من سلسلة الأسباب والمسببات والعلل والمعلولات ، والإنسان هو الذي يصمم على العمل الصالح وغيره ، وبسوء اختياره يوجب الفساد والضلال ، فإذا ساد الباطل والظلم في مجتمع ما كان ذلك بفعل الناس أنفسهم لا خلق الله سبحانه ، ولا أثر للعلم الإلهي في اختيارهم طريق الخير أو الشر .

صحيح أن أحوال المحيط والدوافع الفطرية والهداية الإلهية من العوامل التي لها دور فعّال في حرّية واختيار الإنسان ، إلاّ أن دورها إنما هو دور المعدّ والممدّ والممهد ، والمشوّق والداعي والدافع ، ولا يصل ذلك إلى إيجاد الإكراه والجبر في الاتجاه ، وليس معنى وجود هذه الأمور أن الإنسان أسير في مخالبها ، بل له القدرة والخيرة في موافقة أو مخالفة هذه الدواعي والدوافع أو تحديدها أو تغيير اتجاهها ، وبإمكانه أن يفيد من الهداية الإلهية بالرؤية والبصيرة الواضحة ، وأن يوجّه ميوله ويعدّلها وينظمها ، إذ كما لا يصحّ فسح المجال لودائع الطبائع في البشر ومنحها الفرصة لتطغى وتستبدّ ، فكذلك لا يمكن تجميدها لتصبح جافة ميتة .

لنفترض أن عاملاً ميكانيكياً فحص سيارة قبل حركتها وتنبأ أنها لا تطوي أكثر من بضعة كيلومترات حتى تقف، لما فيها من عطب فنيّ ، فلو سارت السيارة ثم توقفت كما قال العامل ، هل يمكننا أن نقول بأن تنبؤ العامل هو السبب في توقف الشاحنة ؟ .

بديهيّ أن الجواب الصحيح هو النفي ، فإن عطب السيارة هو سبب توقفها لا تنبؤ العامل ولا علمه السابق بتوقفها الآن ، ولا يصحّ لعاقل أن ينسب عطب السيارة إلى علم العامل .

أو نفترض معلماً عالماً بأوضاع طلاّب الصف يعلم برسوب التلميذ فلان بسبب تباطئه في العمل للامتحانات النهائية في آخر السنة الدراسية ، فلو أعلنت نتائج الامتحانات وعلم أن هذا التلميذ المتواني والكسول لم يخرج بنجاح في الامتحانات ، هل يمكن أن يكون علم ذلك المعلم سبباً

لرسوب هذا الطالب غير العامل ، أم أن السبب هو كسله وقلة عمله ؟! .

لا ريب أن سبب الرسوب هو عدم العمل للدراسة لا تخمين المدرسين .

بذكر أمثال هذه النماذج نعلم بعدم عليّة العلم الإلهي لصدور أفعال العباد .

ومن الآثار السيئة لمدرسة الجبريين ، أنها تطلق أيدي الطغاة الظالمين للضغط الأكثر على أعناق المظلومين وشدّ وثاقهم وضرب رقابهم ، وبالعكس تقيد أيدي المظلومين عن القيام بأيّ ردّ فعل دفاعي أمام الظالمين .

إن الظالم يخلّص نفسه من المسؤولية عن أعماله الظالمة والخشنة ، بالتمسّك بحجة الجبر ، بل يرى يديه يدي الله والحق ، ولذلك فهو ينسب عدوانه إلى الله عزّ وجلّ الذي ﴿ **لا يسأل عما يفعل وهم يسألون** ﴾ ، وعلى المظلوم أن يتقبل ويتحمل ما يتجرعه من قبل الظالم ، إذ لا معنى لمقاومة الظلم والعدوان ، ولا تصل مساعيه إلى شيء في هذا السبيل ! .

أما أتباع المدرسة المادية فهم في تناقض فكري في هذا الموضوع :

فهم من ناحية : يحسبون الإنسان موجوداً مادياً محكوماً بالتقلبات الديالكتيكية ، فهو عامل غير مؤثر أمام عوامل المحيط وجبر التأريخ والأوضاع المعينة من قبل ، فاقد الحرية مقهور للطبيعة في اختيار أعماله بل وحتى أفكاره ونهجه في الحياة ، ويقولون : إن كل حركة وتطوّر وثورة اجتماعية إنما هي نتيجة طبيعية للأوضاع المادية للمحيط والبيئة ، من دون أن يكون للإنسان دور في ذلك ، إذ أن إرادة الإنسان محكومة بالأوضاع المادية والاقتصادية للمحيط والبيئة ، وحتى ذهن الإنسان محكوم بالقوانين القسرية لمسيرة حركة التأريخ الجبرية فهو لا بدّ له من اختيار تلك الطريقة التي عينتها له مقتضيات المحيط والتطورات الفكرية القسرية هي بدورها أيضاً ، إذن

فالطريق مسدود أمام الإنسان لتجلي إرادته واختياره ، ولا دور لمعرفته بمسؤوليته ، هذا من جانب .

ومن ناحية أخرى : يرون أن شخصية الأفراد من الإنسان مؤثرة في مسيرة المجتمعات ، ولذلك فهم يركزون على الانقياد المبدئي والحزبي أكثر من أيّ مبدأ أو حزب آخر ، ويحملون الشعوب المستعمرة (بالفتح) على تنظيم حركات التحرير المسلحة والعسكرية ، ويحاولون تغيير عقائد الناس والقيام بدورهم بالإفادة من حريتهم واختيارهم .

وهذا الاعتراف بدور الإنسان حتى الفرد منه ، تناقض صريح مع شمول المادية الديالكتيكية ، فهو اعتراف بوجود قوة الإرادة والاختيار لدى الإنسان الفرد فضلاً عن المجتمعات .

فإن قالوا : إن استنهاض الجماهير الكادحة وتأييد ودعم الحركات الثورية ، مما يعجل في انبثاق فجر النظام الجديد والتقدمي من بطن العهد البائد التليد والرجعيّ ! .

قلنا : إن هذا كلام غير منطقي ، إذ لا يتحقق التطور الثوري من الكمية إلى الكيفية في غير موقعه وخارج حدود التدرج التطبيقي الديالكتيكي كما تقولون أنتم ! فدعوا الطبيعة لتعمل عملها على الأسلوب الديالكتيكي كأحسن ما يكون ، وليس حتى استنهاض أفكار الكادحين إلا تدخلاً في أمر الطبيعة كما تزعمون .

والقول : بأن الحرية إنما هي أن يدرك الإنسان الضرورة التأريخية وقوانين الحركة ، وكيفية الإفادة منها باتجاه الأهداف والمقاصد المعينة وأن استقلال الإنسان لا يعني مقابلة قوانين الطبيعة ومقاومتها والوقوف أمامها . .

. . إن هذا الكلام لا يرفع الإشكال في هذا المجال ولا الإبهام الموجود في المقام ، إذ بعد معرفة تلك القوانين والإفادة الأصولية منها باتجاه الأهداف الخاصة يبقى الإشكال في : أن المادة والطبيعة هي التي تعيّن تلك

المقاصد الخاصة وتنفذها ؟ أم أن المصمم عليها هو نفس الإنسان ؟! .

ولو كان الإنسان هو المصمم فهل أن تصميماته هي انعكاس لمطاليب الطبيعة فيه ؟ أم هل يمكنه أن يخالفها أيضاً ؟! .

إن الماديين تصوروا : أن الإنسان موجود ماديّ ، وحتى أن أفكاره وعقائده إنما هي نتيجة طبيعية للتطورات الاقتصادية والمادية ، وتابعة لمواقفه الطبقية ، ووليدة لعلاقاته الإنتاجية في المجتمع ، وردود فعل للأوضاع الخاصة والحاجات المادية لحياة الإنسان .

إن الإنسان وإن كان بسبب وضعه المادي متأثراً بالعلاقات المادية والأوضاع الطبيعية والجغرافية والفيزيائية للمجتمع الذي يعيش فيه . . إلاّ أن هناك عوامل أخرى نابعة من ذات الإنسان وفطرته تؤثر فيه وفي مصيره في طول التأريخ لا محالة ، ولا يمكن أن تكون حياته العقلية والفكرية إلهاماً من المادة والعلاقات المادية الإنتاجية للمجتمع فقط .

ولا يمكن أن نغض الطرف عن أهمية دور العوامل المعنوية والدينية والعواطف الروحية في اختيار البشر لطريقته في الحياة ، وأن إرادته هي بدورها أيضاً حلقة أخرى من سلسلة حلقات العمل والأسباب في الفعل أو الترك لأيّ عمل من أعماله في هذه الحياة الدنيا .

لا ريب في أن البشر متأثر ومؤثر فاعل ومنفعل بالطبيعة ، وأن التأريخ وعوامل الإنتاج تمهّد الأرضية لظهور الحوادث في المجتمعات البشرية . . ولكن ليس عامل الانتاج هو العامل الوحيد في ظهور الحوادث التأريخية ، وليس هو الذي له الدور الأصيل في مصير البشر ، وليس بإمكانه أن يسلب منه إرادته وحريته ، فإن الإنسان قد بلغ رتبة من الكمال عرف بها قيمته التي تفوق الطبيعة وعواملها ، وقد توصّل بذلك إلى وعى مسؤوليته في الحياة .

ولهذا فهو ليس أسيراً محكوماً بالمادة والعلاقات الإنتاجية ، بل له سلطان على الطبيعة وحاكمية عليها وله أن يغير العلاقات المادية .

إن (مـاركس) وإن كان قـد أعطى الـدور النهائي في نـظريـاتـه إلى الاقتصاد بوصفه البنية التحتية والعامل المصيري ، لكن صديقه : (انجلز) يعلق على هذا الكلام من (ماركس) فيقول :

« إن العامل المصيري في التأريخ ، في آخر نظرية طبق الرؤية المادية التأريخية ، هو تجديد الحياة الـواقعية ، ولم نقـل نحن ولا (ماركس) أيّ شيء أكثر من هذا .

إنهم إذا مسخوا هذا الاقتراح من (ماركس) بحيث أدى إلى معنى : أن العامل الاقتصادي هو العامل المصيريّ الوحيد . . فقد بدلوا قوله هكـذا إلى مجرد عبارة جوفاء وجزافة فارغة .

أجل ، إن الوضع الاقتصادي هو الأساس ، ولكن هناك عوامل أخرى تشكّل البنية الفوقية : الكيفية السياسية للكفاح الطبقي ونتائجهـا ، والكوادر الحاكمة التي تظهر بعد الانتصار ، والصور الحقوقية ، وحتى ردود فعل هذا الكفاح في أفكار نفس المكافحين ، والنظريات السياسية والحقوقية والفلسفية والثقافات الدينية ، وتطوّر هذه الأمور إلى الثقافة المسيطرة في الساحة ، مما يؤثر في مجاري الكفاح التأريخي ، وفي كثير من الأحوال قد تكون هي التي تقرر المصير .

جميـع هذه العـوامل لا تـزال في فعل وردّ فعـل ، وتستمـر الحـركـة الاقتصادية تفتح طريقها فيما لا ينتهي من التناقضات ، كضرورة حتمية »[1] .

ونحن نقول : لو كانت العوامل الفوقيـة هي التي تقرر مصيـر الكفاح التـأريخي ، فكيف تركّـزون أنتم على الدور المصيـري لـلاقتصـاد بصـورة متفردة ، ولو كانت العوامل الفوقية هي التي تقرر المصير فهي في الواقع من البنية التحتية على الفرض ، بل لو كان شيئان مرتبطان أحدهما بالآخر ، فما هو معنى إعطاء الأولوية للبنية التحتية ؟! .

---

(١) دعوة لتجديد النظر . ص ٢٨١ ـ ٢٨٢ (بالفارسية) .

كما أن التحوّلات في ظواهر الطبيعة تتبع العلل والعوامل الخارجية ، كذلك هناك سنن وقوانين للمجتمعات البشرية يتبعها نموّ الأمم واقتدارها أو انحطاطها وانحدارها ، وعلى هذا فالحوادث التأريخية ليست تتبع الجبر الأعمى ، وليست وليدة الصدفة ، بل إن كل تلك التحوّلات والتطوّرات والتغييرات من سنن الخلق والتكوين ، ولإرادة الإنسان في هذه السنن دور أساس .

كثير من آيات القرآن الكريم تؤكد على أن الظلم والجور والعدوان والطغيان مما يغيّر تأريخ الأمم ، وهذه هي من السنن الإلهية الجارية في المجتمعات البشرية ، كما قال :

﴿ وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميراً ﴾[1] .

﴿ ألم تر كيف فعل ربك بعاد* إرم ذات العماد* التي لم يخلق مثلها في البلاد* وثمود الذين جابوا الصخر بالواد* وفرعون ذي الأوتاد* الذين طغوا في البلاد* فأكثروا فيها الفساد* فصب عليهم ربّك سوط عذاب* إن ربّك لبالمرصاد ﴾[2] .

إن القرآن يؤكد أن الظلمة الذين يطيعون هوى أنفسهم مهما كانت ، يسببون ظهور الحوادث المؤلمة في التأريخ

﴿ إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبّح أبناءهم ويستحيي نساءهم ، إنه كان من المفسدين ﴾[3] .

﴿ فاستخف قومه فأطاعوه ، إنهم كانوا قوماً فاسقين ﴾[4] .

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١٦ .
(٢) سورة الفجر : الآيات ٦ ـ ١٤ .
(٣) سورة القصص : الآية ٤ .
(٤) سورة الزخرف : الآية ٥٤ .

إن الإنسان بوصفه جزءاً يشكل المجتمع البشري يتمتع بالعقل والحكمة والإرادة الفطرية ، قبل اتصافه بالصفة الاجتماعية ، وليست الروح الفردية فيه مكرهة على تبعية الروح الجماعية .

يتصور القائلون بالجبر أن الأفراد يندكون في المجتمع كالجزء في الكل ويخرجون كحقيقة جديدة ، فإما أن نعترف باستقلال وحرية الأفراد وننفي الصورة التركيبية للمجتمع ، وإما أن نرفع اليد عن حرية واستقلال الأفراد حتى نعترف بتركيب المجتمع كحقيقة واقعة ، ولا يمكن الجمع بين أصالة المجتمع واستقلال الفرد وحريته ! .

في حين أن المجتمع وإن كان يتمتع بقوة أطغى من قوة الأفراد أنفسهم ، إلّا أن المجتمع لا يقدر أن يجبر الأفراد على شيء في الأمور الإنسانية وحتى الاجتماعية ، فإن أصالة فطرة الإنسان التي هي من صميم الطبيعة الإنسانية تمكّنه من التمتع بحريته واختياره وإرادته ، وبإمكانه أن يعصي ما يفرضه عليه مجتمعه .

والإسلام وإن كان يعترف للمجتمع بالروح والحياة والموت والقوة والقدرة وكأنه شخصية مستقلة ، إلّا أنه يرى الأفراد منه مقتدرين على اتّخاذ المواقف ومقاومة الفساد في مجتمعهم . ولا يعترف بالموضع الطبقي كعامل جبريّ لفرض فكرة أو عقيدة معيّنة على صاحبها .

وليس الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، إلّا أمراً بعصيان أوامر المجتمع والخروج على فساد المحيط :

﴿ يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم ، لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم ﴾[1] .

﴿ إن الذين توفاهم الملائكة ظالمي أنفسهم قالوا : فيم كنتم ؟ قالوا :

---

(١) سورة المائدة : الآية ١٠٥ .

كنا مستضعفين في الأرض ، قالوا : ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها ، فأولئك مأواهم جهنم وساءت مصيراً ﴾[1] .

هذه الآية تستنكر على الذين يعتذرون باتباع مجتمعاتهم ولا تقبل لهم عذراً .

لا معنى للتقوى إلاّ مع اختيار البشر ، وتقييم الإنسان أيضاً يلازم اختياره ، ولا يجد الفرد استقلاله وكرامته الشخصية إلاّ إذا كان سالكاً طريق الحق خلاف النفس وعلى حسابها ، أما لو وضعنا أنفسنا بحيث تحملنا التطورات الطبيعية أو الأدوار الديالكتيكية على المثل والقيم ، فلا قيمة لذلك ولا كرامة لهذه الشخصية إلاّ معه .

فليس هناك أيّ عامل يحمل الأشخاص على اتّخاذ طريقتهم في الحياة ، وليس هناك أية قوّة تحمله على ترك بعض الأعمال ، وفي هذه الحالة فحسب يجد القويّ معناه .

ولا يحقّ للإنسان أن يدعي التقوى فيما لو كان تصميمه على تغيير وضعه الفاسد جرياً تبعياً لا شعورياً وفق البرامج والأهداف المرسومة من قبل ، وطبقاً للقانون العام السائد ، بل إنما فيما إذا كانت كل أعماله وأفعاله اختياراً لها من صميم نفسه .

---

(١) سورة النساء : الآية ٩٧ .

القائلـون بالاختيـار

أصحاب هذا القول يقولـون : إن الإنسان يشعـر بالحـرية في العمـل بنفسـه بصورة تلقـائية (أتـوماتيكيـة) ـ إن صحّ التعبيـر ـ فله أن يصمم وفق هواه ، وأن يقدم وفقاً لإرادته وميوله على أيّ عمل مصيريّ بالنسبة إليه أو إلى غيـره ، وأن وجود القـوانين التي تشعر الإنسـان بالمسؤوليـة أمامهـا ، وندم الإنسان على بعض أعماله ، والعقوبات المقدرة في القوانين للمجرمين ، وما قـام به البشـر من الأعمال التي غيـرت مسيرة التـأريخ الـطويلة ، وما قـدمه الإنسـان من العلوم والتكنولـوجيا ، كـل ذلك دليـل على حريـة الإنسان في أعماله .

وكذلك فإن مسألة التكليف وبعث الرسـل ، وعرض البـرامج الإلهيـة على البشر ، وتعيين المعاد ، كل ذلك مبنيّ على حرية واختيار الإنسان في القيام بأعماله وأفعاله .

إذ لا معنى لأن يكلّف الله العباد ، بل يجبـرهم على أعمالهم ثم هـو يثيبهم أو يعاقبهم عليها .

فليس من العدل أن يسيرنا الخالق بقدرته وإرادته في أيّ مسير تقضيه إرادته ومشيئته ثم هو يعاقبنا على سلوك صادر منا بلا اختيار ولا إرادة .

لو كانت أعمـال العباد في الحقيقـة أفعالاً لله سبحـانه للزم أن تكـون

جميع المفاسد والظلامات من فعله تعالى ، في حين أنه منزّه عن أيّ نوع من الظلم والباطل ، بل لو لم يكن لنا اختيار في أفعالنا لكان أصل التكليف ظلماً وخلافاً للعدل ، ولم يكن لوم على الظالمين والجبارين ، ولم يكن أصحاب العدل يستحقون أيّ حمد أو ثناء أو تحسين، إذ لا معنى للمسؤولية إلّا في حدود الإمكانات والطاقات .

إن الإنسان لا يستحق اللوم ولا التقدير والثناء إلّا حينما يكون حراً في تصميماته وأعماله ، وإلّا فلا لوم ولا تحسين .

وقد أفرطت هذه الفرقة بشأن حرية الإنسان إفراطا حسبت معه الإنسان مختاراً اختياراً مطلقاً وبلا منازع ، وكأنها زعمت عجز الله سبحانه وتعالى عن إصدار أوامره فيما يتعلق بإرادة خلقه ، وأن قدرة الله لا تتعلق بأفعال الإنسان الاختيارية .

إن ما يقوله هؤلاء مبنيّ على أساس أنه سبحانه أسس العالم وظواهره على أساس نظام طبيعيّ وأنهى عمله بذلك ، فما يحدث من الحوادث بعد ذلك لا علاقة له بصورة مباشرة بالله تعالى ، وأفعال البشر هي إحدى ظواهر عالم الوجود المتحررة عن مباشرة مشيئة الله الواحد بصورة تامة ، فلا مباشرة له فيها قطّ .

هذه هي خلاصة ما تقوله هذه الفرقة .

إن الذي يقول بأن ما يوجد ظواهر الطبيعة هي نواميس الطبيعة وإرادة الإنسان ، وأن دوران العالم وأعمال البشر لا علاقة لها بالله تعالى ، إن هذا ينسب التأثير في الكون في الحقيقة إلى مركز آخر هو نفس المخلوقات فيجعلها شريكة مع الله تعالى في الخالقية ، وهو بذلك يتقبل وجود خالق آخر في قبال الخالق العليم القدير ، ويقول بالاستقلال لذوات الموجودات أمام ذات الله تعالى ، من حيث يشعر أو لا يشعر .

إن القول بالحرية التامة لأيّ موجود من الموجودات سواء كان إنساناً أو

غير بشر مستلزم للعقيدة بمشاركة ذلك الموجود مع الله تعالى في الفاعلية والاستقلال .

وهذا لا ريب نوع من أنواع الثنوية حيث يبعد العبد عن قمة التوحيد إلى هوة الشرك ، إذ أن نتيجة قبول هذه الفكرة أن نسلب عن الله اختياره في أوامره بالنسبة إلى نظام الوجود ، ونحسب الإنسان صاحب حكومة مطلقة لا تعارض ، وليس لأيّ موحد أن يتقبل هذه الخالقية للإنسان حتى ولو كانت في إطار أعمال البشر خاصة ، بل على كل موحد ـ في نفس الوقت الذي يقول فيه بالعلل والأسباب الطبيعية ـ أن يرى الله هو المؤثر الحقيقي في الحوادث والظواهر ، وأنه إذا أراد أن يذهب بأثر إرادة الإنسان في أفعاله لفعل .

وكما أنه لا استقلال لذوات الموجودات كذلك لا استقلال لها في السببية والتأثير ، وهذا هو ما يصطلح عليه بالتوحيد الأفعالي .

وذلك يعني أن ندرك أن نظام الوجود بما فيه من سنن وعلل هو من عمل الله تعالى ، وهو نابع من إرادته سبحانه ، وأن حقيقة وجود أي عامل وتأثيره إنما هو منه عزّ وجل .

وعلى هذا لا يلازم التوحيد الأفعالي أن ننكر نظام الأسباب لعالم الوجود ، وأن نقول بأن كل أثر إنما هو من الله مباشرة وبلا واسطة في ذلك ، وأن لا نعير للعوامل أية أهمية كانت أم لم تكن ، ولكن تصور تأثير الله في الموجودات كنسبة الفنان إلى الفنّ أو كمبدع لوحة بالنسبة إليها حيث تحتاج اللوحة في وجودها إلى الفنان ، ولكن اللوحة حيث تتم تستمرّ روعتها وجمالها حتى لو مات الفنان ، إن هذا التصور بالنسبة إلى الله لا شكّ أنه من الشرك ولا يلائم التوحيد .

إن من ينكر دور الخالق في ظواهر وأعمال الإنسان يقول بتحديد قدرة الخالق بحدود الطبيعة واختيار البشر ، وهذا كلام مردود لدى العقل والمنطق ، إذ هو مستلزم لإنكار عمومية قدرته من ناحية ، وهو من ناحية

أخرى يولد إحساس الغنى عن ذات الخالق لدى المخلوق ، وهو إحساس ينتهي بالإنسان إلى الطغيان والفساد ، في حين أن التسليم المطلق للخالق والتعلق به ، والتوّكل عليه له الأثر التام في شخصية وأخلاق الإنسان وسلوكه وروحياته ، وحيث لا أمر عنده سوى أمر الله فلا سلطة للهوى ولا لأحد من الخلق عليه .

إن القرآن الكريم ينفي كل شرك في مديرية العالم لأيّ من الخلق مع الخالق فيقول :

﴿ وقل الحمد لله الذي لم يتّخذ ولداً ولم يكن له شريك في الملك ولم يكن له وليّ من الذلّ وكبره تكبيراً ﴾[1] .

وقد صرّح القرآن الكريم في آيات كثيرة بقدرة الله المطلقة فيقول مثلاً :

﴿ لله ملك السموات والأرض وما فيهنّ وهو على كل شيء قدير ﴾[2] .

﴿ وما كان الله ليعجزه من شيء في السموات ولا في الأرض إنه كان عليماً قديراً ﴾[3] .

إن موجودات العالم بحاجة إلى الله في بقائها ، كما كانت كذلك في حدوثها تماماً ، ولا بدّ للوجود من استفاضة فيوضات الوجود من قبله سبحانه ، وإلا لا نفرط هذا النظام الموجود ، إذ أن ما يصدر من قوى العالم ليس إلّا صادراً عن خالقية الله وفاعليته تعالى ، ولا بد لماهية الموجودات من التعلّق بإرادة الله ، وعلى هذا فلا استقلال لها ذاتاً ، تماماً كالمصابيح

---

(١) سورة الإسراء : الآية ١١١ .

(٢) سورة المائدة : الآية ١٢٠ .

(٣) سورة فاطر : الآية ٤٤ .

الكهربائية التي لا بدّ لها من استمداد البرق من المولد الكهربائي في البداية والبقاء .

والقرآن الكريم يصرّح بكل تأكيد يقول :

﴿ يا أيها الناس أنتم الفقراء إلى الله والله هو الغنيّ الحميد ﴾[1] .

فالحقائق كلها نابعة من إرادته تعالى وهي متعلقة بـه سبحانـه ، وكل ظاهرة فهي تستمد وجودها منه دائماً وأبداً ، ونظام الوجـود كلّه يـدور حول محور واحد فقط . قال الإمام الصادق (عليه السلام) :

« الله أكرم من أن يكلّف الناس ما لا يطيقون ، والله أعزّ من أن يكون في سلطانه ما لا يريد »[2] .

لو لم يكن الله يفيض علينا حرية الإرادة والإمكانات والقوى والحياة ، في كل لحظة لما كنا قادرين على أيّ عمل ، فإن إرادته التامة قد تعلقت بأن نفعل نحن أفعالنا الإرادية باختيارنا ونؤدّي ما أودعه فينا من دور ذلك الخالق القـدير ، وقـد شاء أن يصنـع الإنسان مستقبله الحسن أو السّيء بتشخيصه وإرادته بنفسه .

إذن فأفعالنا الإرادية ترتبط بنا من ناحية ، وبالله من ناحيـة أخرى ، إذ نحن نستطيع أن نعمل بفضل الذخائر التي جعلها الله تحت اختيارنا في سبيل البناء والاختيار المناسب واللائق أو في سبيل الفسـاد والبـاطل وأن نحقق مـا نريد ، وإن كان ذلك في إطار معين من قبله تعالى ، وبعبارة أخرى نقول :

إن القوة من الله والإفادة منها منا .

افترضوا إنساناً يحمل قلباً صناعياً هـو تحت اختيارنـا عن طريق سلك يتصل بالقوة الكهربائية ، وبإمكاننا أن نوقف عمليات هذا الإنسان ذي القلب

---

(١) سورة فاطر : الآية ١٥ .

(٢) أصول الكافي ج ١ ص ١٦٠ .

الصناعي في أيّ لحظة شئنا ، والذي يمكنه من كل ما يقوم به هو هذا السلك الذي نقوم نحن بوصله ما شئنا ، ونمهله ليقوم بمـا يريـد ، فلو عمل عمـلاً صالحاً أو سيئاً كان ذلك بإرادته ، فإن كيفية الإفادة من القوة المعطاة له تتعلق به ولا علاقة لنا بها .

كذلك كل طاقاتنا من الله سبحانه وتعـالى ، حيث يستطيـع أن يسلبنا قوانا ، إلا أنه قرر أن تكون كيفية الإفادة من هذه القوى تحت اختيارنا بصورة تامة نسبياً .

وهذا هو ما يقول به أصحاب مدرسة الاعتـدال ، وسنوضـح ذلك في الفصل الآتي .

الأمر بين الأمرين

إن موجودات العالم حينما تبلغ أيّ مرحلة من مراحل الكمال تتمتع بالهداية الخاصة لتلك المرحلة، والهداية بالنسبة إلى درجات الوجود متفاوتة في الرتبة والكمال أيضاً .

بإمكاننا نحن أن نعين موضعنا بين الموجودات المختلفة في هذا العالم ، نعلم أن النباتات لا خيار لها بين أيدي قوى الطبيعة القسرية ، ومع ذلك لها ردود فعل قصيرة ومتفاوتة تظهر منها أمام بعض المتغيرات .

وحينما نحلل خصائص الحيوان نشعر بأنه يتمتع بخصائص متفاوتة عن النباتات بصورة تصاعدية وتكاملية ، إن عليه أن يسعى وراء غذائه سعياً حثيثاً واسعاً ، إذ أن الطبيعة لا تدعو الحيوان إلى موائد معدة ، ولا تحضر له مواده الغذائية ممهدة ، ومن البديهي أنه في سعيه هذا بحاجة إلى وسائل كافية ، وهو بنفس المستوى مجهز بأدوات تكفيه لمهمته .

وهو من حيث تأثره الشديد بشهواته الغريزية موجود طائع مكره ولا يتمتع إلّا بدرجة واحدة من الحرية والإرادة والاختيار ، وهو بذلك يتحرر بنفس المستوى من أسر الطبيعة وعسرها .

ويعتقد علماء الحيوان بأن الحيوانات مهما كانت عاجزة بالنظر إلى الأجهزة والبنية الطبيعية، كانت من حيث الغريزة أقوى وأعتى وأتبع للطبع،

وكلما كانت من حيث القوى الحسية والعقلية أكثر تجهيزاً وأكثر استقلالاً وقدرة ، كانت من حيث الهداية أو القيادة الغريزية أقل وأضعف وأبعد ، فالطفل في أدوار حياته الأولى لا يعيش إلاّ تحت ظلّ حماية الأبوين سيما الأم حماية شاملة ، وكلما تدّرج في الرشد والنموّ خرج من تحت رعايتها .

إن الإنسان هو المتصاعد إلى أعلى مراحل الكمال الخلقي ، وهو الموجود الوحيد الذي يتمتع بقوة إرادة مستقلة (نسبياً) وتمييز ومعرفة تامة (نسبياً) نجده من حيث الغريزة إنما هو في مستويات ضعيفة ، بينما هو في مراحل الحرية التدريجية بالنسبة إلى عالم النباتات والحيوانات قد بلغ حدّ الاختيار التام مع ضعف في الأجهزة .

إن الطبيعة ترفع أنواع حاجات النباتات من جهات مختلفة ، وفي الحيوانات على الأم أن تتحمل قسطاً من الأتعاب من الحمل والتغذية والرعاية ، وإن كانت الغرائز في الحيوانات ثرة نشطة من أيامها الأولى وليس على الأم تربيتها ، وهي بذلك فرحة مستبشرة ، وأما في الإنسان فنرى أنه لا يتمتع بأجهزة طبيعية قوية ، ولذلك فإن قوة مقاومته أمام العوامل المضادة والكاسرة أقلّ من الحيوان بمراتب عديدة ولذلك فإن علاقته وحاجته إلى الآخرين، وبخاصة إلى الأبوين، وبالأخص إلى الأم الوالدة تستمر وتدوم مدة أطول من سائر الحيوانات ، حتى يصل إلى حدّ الاستقلال والكفاية الذاتية فيقوم على قوائمه .

فالقرآن الكريم يصرح بضعف الإنسان ، ويقول :

﴿ وخلق الإنسان ضعيفاً ﴾(١) .

والطبيعة قد أوكلت الإنسان إلى نفسه أكثر من الحيوان ، ومع طي مراحل النموّ والتكامل نشاهد في أنفسنا اتّساع رقعة الاختيارات والتحرّكات والحرّيات من ناحية ، ومن ناحية أخرى نرى ازدياد نسبة الحاجات والعلاقات

---

(١) سورة النساء : الآية ٢٨ .

والارتباطات ، ولذلك فمع تمتعنا بالقدر الأكثر من الحرية والاختيارات نرانا ننحدر إلى شدة الحاجة والعجز معها .

والمفكرون يرون هذه الكيفيات من أسباب التكامل في الموجودات ومع ذلك يرون أن الإنسان مهما نما وترقى تقدم نحو الحرية أكثر فأكثر ، وأن التقدم إنما يحصل في ظلّ الحاجات ومع السعي لإيجاد التوازن .

ولكي تتجلى الحرية في الإنسان لا بدّ من وجود عامل مخالف أمام الغرائز الطبيعية في البشر كي يرى الإنسان نفسه بين جاذبتين متخالفتين كل منهما تجره إلى اتجاهها ، فيضطرّ إلى أن يختار بإرادته الحرة طريقته المختارة عن وعي وقدرة وعمل بعيداً عن أيّ جبر أو إكراه أو أصول مسبقة ، ثم يبدأ ببناء نفسه على أساس أصول خاصة يختارها ، وبدون وجود هذا العامل المخالف لا يقدر البشر على أن يقع في طريقته الصحيحة المتعادلة بصورة أتوماتيكية وبلا أيّ سعي من نفسه .

وفي خضم هذا الصراع والنزاع والتخاصم إما أن يقع الإنسان أسيراً لميوله الهوجاء مع تحمله للأمانة الإلهية والموهبة الربانية التي لم تكن السماوات والأرض جديرة بحملها وحملها الإنسان **﴿ إنه كان ظلوماً جهولا ﴾** وإما أن يبدأ مسيرته في سبيل الكمال وطريق الرقيّ بالإفادة من استعداداته الفياضة وإرادته النافذة المختارة والمستندة إلى فكرته الرشيدة .

إذا تحرر الإنسان عن الطاعة الجبرية لغرائزه، وقدر على كسر أغلالها من يديه ورجليه ، وداوم على التمتع بقواه الاكتسابية والمكتنزة ضعفت مراكز إحساساته وعواطفه وتضاءلت وسائلها الطبيعية أمام العقل ، فإن كل عضو أو طاقة في الموجود الحيّ إذا تركت بلا أيّ استفادة ضمرت وقصرت ، وبالعكس كلما اشتغل عضو أو طاقة أكثر وبصورة أساسية نمت وتكاملت وتطوّرت .

وعلى هذا فإذا أصبحت الإرادة الخلاقة والواعية للإنسان مستلهمة من وحي العقل ، مصباح الطريق ، استعانت فكرته ببصيرته لسلوك السبيل إلى

الحقائق والواقعيات ، وحملته حالة التحير بين طرفي الترديد على التأمل والمقايسة ، حتى يتعرف على الصراط المستقيم بمدد عقله ، وهكذا تبعث الميول والحاجات على الفكر والفعالية وتتقوّى وتتحرّك وتفيض في الإنسان منابع الفكر .

إن حرية الإرادة ، ومحاولة الخروج من مرحلة التحيّر ، وحب الحياة ، كل ذلك يبعث على الأمل ، ومحاولة سدّ الحاجات وبلوغ الأهداف تصبح دوافع الإنسان لمتابعة مقاصده بالإفادة من قوّة إرادته ؛ ولذلك لا معنى للإرادة والأمل في الموجودات المكرهة على التبعية لطبائعها الذاتية ، وإنما ينشأ الأمل وتنبع الإرادة من الإرادة بصورة مباشرة .

وكذلك العلم والتمدّن والحضارة والملكية وإرادة التحرر ، كلها من ثمرات الاختيار ونتائجها المباشرة ، والإنسان بتمتعه بالحرية ومساعيه الإيجابية يقدر على التقدّم باتّجاه نموّه وكماله العلمي في إطار طبيعته وفطرته ، وأن يبلغ ـ بتفتح طاقاته واستعداداته وطبائعه الإنسانية السامية ـ إلى مرحلة يصبح فيها منبعاً فياضاً للفضائل ، وعاملاً مثمراً لمجتمعه ، وذلك كله من آثار الاختيار .

إن نفس وجود هذا النزاع والتخاصم بين معترفي ومنكري الاختيار شاهد بيّن على القبول الضمني لوجود الاختيار في البشر .

ولكن لنر ما هي شروط وحدود الاختيار في الإنسان ؟ وكم هو شعاع نفوذه وإلى أيّ مدى ؟ .

إن الرؤية الإسلامية الأصيلة لدى المسلمين من الشيعة المستلهمة من آيات القرآن الكريم ، وأحاديث أئمة الدين ، اختارت مسلكاً ثالثاً هو الوسط بين مذهبي الجبر المطلق والتفويض المطلق ، لا يحتوي على ما يحتوي عليه مذهب الجبر من نقاط الضعف ، المخالف للعقل والفكر والوجدان والمقاييس الأخلاقية والاجتماعية ، والذي ينسب بالقول بالجبر جميع

الفجائع والأخطاء إلى الله سبحانه وينتهي إلى إنكار العدل الإلهيّ ، ولا يؤدي إلى ما يؤدي إليه القول بالتفويض المطلق من إنكار شمول قدرة الله ، ومخالفة توحيد الله في الأفعال والأعمال والخلق والإيجاد .

بيّن أن هناك فرقاً بين حركاتنا الإرادية وبين حركات الأرض والشمس والقمر والنبات والحيوان ، إنه ينبع من طبيعتنا إرادة تفتح أمامنا أبواب الفعل والترك كليهما ، وتترك لنا حرية الاختيار .

إن تصميمنا الاختياري لتحقيق الأعمال الصالحة والسيئة ، ينبع من طيب خواطرنا وينشأ من قوة التمييز فينا وتشخيص الخير والشر لأنفسنا ، إن الإفادة من هذه الموهبة الإلهية يجب أن تكون عن وعي وشعور وبصيرة ، نقارن ونعيّن ونحاسب ثم نختار ، وهذه هي إرادة الله أن نتمتع نحن بهذه الحرية في عالم لا تجري فيه الأمور إلّا بإرادته وإدارته وإحاطته وعلمه وإدراكه .

وكل ما نقدم عليه من عمل ليس خارجاً عن علمه ، ولا سابقاً لمشيئته وكل أمور الحياة ومصائر البشر مشروطة بعلمه ، ومقيدة ومحدودة بحدود سبقت في علمه ، ولا نستغني في أية لحظة عنه ، ولا يمكننا التمتّع بما فينا من قوى وطاقات بدون إمداده سبحانه .

وهو يراقبنا ببصيرته النافذة وقدرته العظيمة والقاهرة ، ومحيط بجميع نياتنا وأعمالنا ، وله أن يقطع عنا فيضه في أية لحظة .

ولا يخرج اختيارنا وحريتنا عن النظم العام وما وضع له من شروط وحدود ، وعلى هذا فليست هناك أية مشكلة في هذه المسألة من جهة توحيده تعالى .

إن الإنسان الذي يؤثر في ظل طاقاته وإرادته في هذا العالم هو بدوره محكوم بسلسلة من القوانين الطبيعية لنظام الوجود ، فهو يولد بلا إرادته ، ويموت حتف أنفه ، قد أسرته الطبيعة بسلسلة من الحاجات والغرائز

المختلفة وتجره بها إلى نفسها ، وفي نفس الوقت يتمتع بإمكانات واستعدادات ، وفيه جهات من الحرية والغنى ، وهما يمنحانه قدرة وخلاقية يقتدر بها على تسخير جوانب من الطبيعة ويتحكّم في عدد من عوامل المحيط .

ولهذا قال الإمام الصادق (عليه السلام) :

« لا جبر ولا تفويض ، بل أمر بين الأمرين »[1] .

فالبشر له الخيار إلاّ أنه ليس مئة بالمئة ، إذ القول باستقلال المخلوق واختصاصه بمساحة من القدرة والاختيار يؤدي إلى الشرك في فاعلية الله تعالى ! أما هذا الاختيار المحدود فهو حسب إرادة خالق الطبيعة ، وتتجلى أوامر الله بصورة السنن الحاكمة على الطبيعة بما فيها البشر .

الإنسان في الرؤية الإسلامية ليس موجوداً مخلوقاً محكوماً بجبر القدر ، ولا موجوداً مطلقاً في محيط مظلم وبلا هدف ، بل هو فياض بالدوافع والاستعدادات والميول المختلفة والوعي الخلاّق ، معه هداية فطرية وقيادة معنوية .

إن أتباع مذهبي الجبر والتفويض أخطأوا حيث تصوروا أن لا ثالث للأمرين ، فإما أن ننسب أفعالنا إلى الله ، فنسلب الإنسان حريته ونقول باضطراره ، أو لا بدّ لنا من القول بصدور أفعالنا الاختيارية من ذواتنا مستقلة وبدون ارتباط بالله تعالى ، وهذا يؤدي إلى محدودية قدرة الله ، بينما لا تأثير لحرية إرادتنا في شمول قدرته سبحانه ، إذ هو الذي أراد قدرتنا على التصميم بحريتنا ضمن السنن الطبيعية .

بإمكاننا أن ننسب أفعال الإنسان إلى نفسه من ناحية ، وإلى الله من ناحية أخرى ، فنسبتها إلى الإنسان مباشرة وبلا واسطة ، ونسبتها إلى الله مع واسطة الإنسان ، وكلتا النسبتين حقيقيتان وواقعيتان ، وعلى هذا فإرادة

---

(١) الكافي ج ١ ص ١٦٠ .

الإنسان لا تقابل إرادة الله ولا هي مخالفة له سبحانه .

إن الاعتقاد بأثر الأسباب في مسبباتها ، والاعتراف بدور المخلوقات في نظام العالم ، ليس شركاً للخالقية ، بل هو من كمال الاعتقاد بخالقية الخالق وإحاطته وحاكميته المطلقة على الوجود بأسره ومنه الإنسان .

وإن نحن أنكرنا كل مؤثر في الوجود سوى الله سبحانه بصورة مطلقة ، لم نجد أيّ توجيه أو تفسير معقول لحركة المادة ، ومع نفي تأثير الموجودات بعضها في بعض لا يبقى لنا طريق لإثبات العلل للمعلولات .

وليس من المنطق القول : بأن الحوادث كلها تحدث من حركة المادة والله يوجد الحركة في المادة في كل لحظة بصورة دائمة مستمرة .

إذ الحركة حقيقة واحدة ، فلا يمكن أن تصبح بنفسها سبباً للتحوّلات المختلفة للمادة ، بل المادة التي تتشكل بحركتها بأشكال مختلفة لا بدّ أن يكون وجود الصور لها بيد القدرة الخالقة حتى يمكن أن يتحقق تنوّع الموجودات .

ولنتساءل : هل للمادة أيّ أثر في الموجودات والحوادث أو لا ؟ فإن لم يكن لها أيّ أثر فمن أين تنشأ هذه الآثار المتنوعة في نظام الوجود ؟

وإن كانت تؤثر ، فلا بدّ من القول بأن الله لا يخلق جميع الحوادث بصورة مباشرة تماماً كالعلة بالنسبة إلى معلولها الماديّ ، بل المادة مؤثرة ولكنها تأخذ كل طاقاتها واستعداداتها من الله سبحانه ، وهو ليس مادة ولا حركة في المادة .

إن الاعتراف بأن الله أودع في المادة قوى واستعدادات تستطيع بها إيجاد التحوّلات في نفسها وغيرها ، لا يستتبع أيّ إشكال في خالقيته المطلقة ، وإن الفاعلية المحدودة للإنسان بكل ما فيه من فقر وحاجة تحيط بجميع وجوده لا تتنافى مع إرادة الله ومشيئته ، ولا تخل هذه الفاعلية في

خالقية الخالق اللامتناهية ، ولا تؤدّي إلى أيّ إشكال معقول .

جاء في حديث عن أبي عبدالله الإمام الصادق (عليه السلام) أنه قال :

« أبى الله أن يجري الأشياء إلاّ بأسباب ، فجعل لكل شيء سبباً . . »[1] .

فمن أسباب خلق الله هو الإنسان وإرادته ، وهذه قاعدة عامة تشمل أفعالنا الاختيارية ، ولا بدّ أن يكون اختيارنا وإرادتنا في آخر الأجزاء من سلسلة حلقات الأسباب بعد حصول سائر الأسباب والعلل المتقدمة ، حتى ينتهي إلى صدور وتحقق عمل من قبل الخالق القدير .

إن آيات القرآن الكريم التي تنسب كل شيء إلى الله سبحانه ، ليست إلاّ في مقام بيان الإرادة الأزلية لخالق العالم منذ الأزل ، وبيان الصورة العامة للوجود ، وتثبيت إحاطته الكاملة وقدرته التامة ونفوذ أمره الشامل لجميع العالم بلا استثناء ، ولكن مع هذا النفوذ الواسع الشامل والعامل التام الكامل لا تنافي حرية البشر في اختياراتهم ، إذ اختيار البشر أيضاً جزء من المخلوق ، وهو الذي أفاض هذه الحرية عليه لاتّخاذ طريقته التي يختارها في الحياة .

لو كان الإنسان مجبراً على شيء فإنما هو مجبر على الاختيار ـ إن صحّ التعبير ـ وإن حرية الإنسان من مشيئة الله لا خلاف مشيئته .

وعلى هذا فنحن حينما نشتغل بالعمل الصالح نجد الطاقة على العمل منه واختيارنا منا .

والقرآن الكريم يؤكد على دور الإرادة ، ويرد دعوى الجبريين ، حينما يجعل عذاب الدنيا ومصائبها نتائج أعمالهم ، ولا نجد بين مجموعة الآيات

---

(١) الكافي ج ١ ص ١٨٣ .

المتعلقة بالإرادة الإلهية حتى مورداً واحداً تنسب فيه الأفعال الاختيارية إلى إرادة الله .

﴿ فمن يعمل مثقال ذرةٍ خيراً يره * ومن يعمل مثقال ذرةٍ شراً يره ﴾[1] .

﴿ ولتسألنّ عما كنتم تعملون ﴾[2] .

﴿ سيقول الذين أشركوا : لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرّمنا من شيء . كذلك كذّب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا . قل : هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ؟ إن تتبعون إلاّ الظن وإن أنتم إلاّ تخرصون ﴾[3] .

لو كان الفلاح والضلال من مشيئة الله لما بقي أيّ أثر من الضلال والفساد في الأرض ، **﴿ لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً ﴾**[4] .

وقد ادعى المنحرفون أن ارتكاب نوع من الفساد إنما هو بإرادة الله كما حكى القرآن عنهم إذ قال تعالى :

﴿ وإذا فعلوا فاحشة قالوا : وجدنا عليها آباءنا ، والله أمرنا بها ، قل : إن الله لا يأمر بالفحشاء أتقولون على الله ما لا تعلمون ﴾[5] .

إن الله كما قرر الثواب للعمل الصالح قرر الجزاء والعقاب للفساد والباطل ، ولكن ليس معنى تعيين العقاب للسيئات أنه قرر وقوع السيئات .

لو شاء إنسان عاقل أن يشعل عود الكبريت (الولاعة) في مخزن من النفط ، فلو أشعل النفط أمكن أن تلتهم النار نفس المشعل الباعث على

---

(١) سورة الزلزال : الآيتان ٧ ـ ٨ .
(٢) سورة النحل : الآية ٩٣ .
(٣) سورة الأنعام : الآية ١٤٨ .
(٤) سورة الرعد : الآية ٣١ .
(٥) سورة الأعراف : الآية ٢٨ .

الاشتعال ، إن هذا الاشتعال قاعدة طبيعية تتحكم في هـذا العالم ، ومشعل النار أقدم على ذلك عالماً بهذه القاعدة الطبيعية ، ولم يكن عمله هذا ضرورة طبيعية بل كان على خلاف طبيعة الإنسان العاقل .

إن إرادة الله تتعلق بوجود الإنسان والآثار الطبيعية لأفعاله ، أمـا نفس تلك الأعمال الإرادية فهي تنشأ من إرادة الإنسان نفسه .

الـرؤية الإسـلامية في التصـوّر الشيعي هي : أن البشر ليست إرادتـه مطلقة بحيث يمكنه أن يتجاوز بها ويخالف إرادة ومشيئة الله المتمثلة في قالب القوانين والسنن الكونية الثابتة في العالم ، فليس الله ـ معـاذ الله ـ ضعيفاً أو عاجزاً أو مغلول اليدين أمام إرادة مخلوقـاته ، ولكنـه ليس من ناحيـة أخرى أسيراً لما ركب فيه من عوامل ودوافع وبواعث بحيث لا يمكنه اختيـار سبيله في الحياة كما يشاء كالحيوانات أسيراً لإرادة غرائزه فحسب .

ويصرّح القرآن الكريم بأن الله قد هدى الإنسـان إلى سبيل الـرشاد ، ولكنه ليس مكرهاً على الفلاح والهدى ولا على الضلالة والردى :

﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[1] .

* * *

(١) سورة الدهر : الآية ٣ .

القضـاء والقـدر

كيف تتحقق إرادة الله

إن مسألة القضاء والقدر من المسائل الضوضائية التي حرفت في كثير من الموارد بسبب عدم الوعي والمعرفة الدقيقة أو بسوء النية ، ونحن هنا لتحليل الموضوع نلخص بعض نتائج التحقيقات فيه :

لقد ابتني كل شيء في هذا العالم على أساس قوانين دقيقة محسوبة مقدرة ، وهي تكتسب مشخصاتها وحدودها من قبل عللها وموجباتها ، فكل موجود كما يحصل على وجوده من قبل علته ، كذلك يأخذ كل خصائصه الظاهرية والباطنية من ناحية علته ، ويتحدد بحدودها ويتقدر بقدرها ، وحيث لا بدّ من المجانسة والسنخية بين المعلول والعلة لا تعطي العلة لمعلولها سوى الأثر المناسب لذاتها .

إن القضاء والقدر في الرؤية الإسلامية : يعني الأحكام الإلهية القطعية في مجاري أمور العالم ومقاديرها وحدودها ، وكل ظاهرة وحادثة في نظام الوجود ومنها أعمال الإنسان تصل إلى مرحلة التحديد القطعي بعللها ، ولا يعني هذا سوى شمول واستيعاب أصل العلية العام حتى بالنسبة إلى أفعال البشر الاختيارية .

القضاء : يعني العمل المحتوم المبرم الذي لا رجوع فيه ، وهو من فعل الله سبحانه .

والقدر : يعني المقدار وكيفية جريان نظام الوجود الكونية ، فالقدر أيضاً من خالقية الله الماضية في جميع موجوداته ، وعلى هذا التفسير فالقضاء والقدر يعني : أن الله هو الذي خلق التقنية الكونية ونظامها ، وهو الذي قدّرها وقضى بجريانها .

والمقصود من التقدير هو التحديد العملي والعيني الخارجي ، لا التقدير الذهني كما يقدر المهندس حدود البناية المقصودة وجميع خصوصياتها في ذهنه قبل تجسيدها .

والقرآن الكريم يرى هذه الأحجام الثابتة بجميع خصوصياتها وحدود كل شيء من قدر الله تعالى إذ يقول :

﴿ إنّا كل شيء خلقناه بقدر ﴾[1] .

﴿ قد جعل الله لكل شيء قدراً ﴾[2] .

نرى في القرآن الكريم أن القضاء جاء تعبيراً عن الضرورات الطبيعية والعقلية ، وعن العلل وتحقق معلولاتها ، وكأنه يعني : ما لم تتم تلك المقادير المعينة بشروطها ولم تتكامل المقتضيات لا يتحقق القضاء الإلهي في الوجود .

أي أن الله قدر الموقع المكاني والزمني وحدود الحوادث ثم حكم عليها بقضائه ، فأي عامل يظهر في العالم ويؤثر إنما هو مظهر لإرادة الحق وعلمه ووسيلة لتنفيذ قضائه

إن المادة المحكومة بقانون « الحركة » تضمر استعداد النمو والتطور والتكامل ، وهي على استعداد لتقبل الصور المختلفة والحالات والكيفيات

---

(١) سورة القمر : الآية ٤٩ .

(٢) سورة الطلاق : الآية ٣ .

المتنوعة حسب آثار العوامل ، باصطدامها ببعض العوامل الأخرى ، قد تتقدم وتطرد وتطوي المراحل المختلفة إلى الكمال ، وقد تتوقف في مسيرتها التقدمية ، قد تسرع في حركتها بصورة عاجلة ، وقد تفقد سرعتها اللازمة في طي التقدم والكمال وتبطىء في مسرتها . .

إذن فمصيرها ليس نوعاً واحداً من القضاء والقدر ، والعلة هي التي تعين مصير المعلول ، وحيث إن الموجودات المادية تتعلق بعلل مختلفة لذلك نجد التفاوت في مصير بعضها عن بعض ، وإن كل علة تجعل الموجود في مسيرة خاصة .

فلو ابتلي أحد بمرض « المصران الأعور = الزائدة الدودية » فهو لعلّة خاصة ، ومصيره أحد أمرين : فإن خضع لعملية جراحية استعاد سلامته وبذلك يتغير مصيره ، وإن لم يخضع للعملية ومات ، كان ذلك مصيره الآخر .

إذن فالمصير مختلف ومتغيّر وتابع لتصميم المريض نفسه ، ولا يخرج تصميمه عن حوزة القضاء الإلهي .

ولا يجوز أن يقعد ويقول : لو كان من المقدر أن أعيش فسوف أعيش ، وإن لم يكن من المقدر أن أعيش فسأموت مهما سعيت للعلاج ، لا يجوز شرعاً ولا يجوز عقلاً ولا يجوز تكويناً أيضاً .

فلو مضيت للعلاج وتحسنت حالك فالتقدير كذلك ، ولو متّ تاركاً العلاج فالتقدير أيضاً كذلك ، إن ذهبت أم لم تذهب ، أو عملت أم لم تعمل كل ذلك من التقدير .

إن الذين تكاسلوا عن العمل ولم يحاولوه كان ذلك باختيارهم ، حتى إذا ما ضاقوا بالفقر حملوا اللوم على تقدير الله تعالى (صحيح أن التقدير هنا هو الفقر ولكن كان ذلك باختيارهم) ولو كانوا يصممون على العمل والفعالية وسعوا للرزق سعيه كان ما يحصلون عليه أيضاً من التقدير ، فسواء إن عملت

أو كسلت لم تعمل شيئاً خلاف القدر .

إذن فتقرير لتغيير المصير المتصور لا يعني مقاومة القضاء والقدر أو خلاف قانون العلية الكلية ، وما يغير المصير هو بدوره حلقة من حلقات سلسلة العلل والمعلولات وعامل آخر من عوامل القضاء والقدر الإلهي ، وبكلمة : إن القضاء والقدر يتغير بحكم قضاء وقدر آخر .

إن القوانين الميتافيزيقية (إن صحّ التعبير) لا تتعلق بالحوادث على وضع واحد فقط ، كما لا تساعد قواعد العلوم على أكثر من ذلك ، إنها - أي القوانين الميتافيزيقية - تحكم الظواهر والحوادث ولكنها لا تتحكم في اتجاهاتها ، وفي الحقيقة : الحوادث والظواهر واتجاهاتها كلها محكومة للقوانين الميتافيزيقية الشاملة ، فأينما اتّجهت الحوادث كانت في إطارها غير خارجة عنها تماماً كأنما الحوادث موجودات حية متحركة ماشية تسرح في واد معين واسع ، فأينما اتّجهت يساراً ويميناً ، شمالاً وجنوباً لم تكن تخرج عن محيط ذلك الوادي المعين .

إن القضاء والقدر الإلهي هو شمول أصل العلية ، حسب القوانين الميتافيزيقية ، وأصل العلية لا يقول بأكثر من : أن لكل حادثة سبباً ثم لا يهتدي هذا الأصل إلى أي تنبوء بشأن الحوادث ، إن القانون الميتافيزيقي الذي هو صعيد مجاري الأمور المختلفة ، سواء عليه ما يحدث ، تماماً كالشارع العام الذي يمهد المرور للمارة ولكنه لا يختلف عنده اتجاهاتهم .

إن أمير المؤمنين علياً (عليه السلام)عدل من جدار مائل مشرف على السقوط إلى جدار آخر . . . فقيل له : يا أمير المؤمنين . أتفرّ من قضاء الله ؟ ! قال (عليه السلام) « أفرّ من قضاء الله إلى قدره »[1] أي أفر من تقدير إلى تقدير آخر ، فالجلوس والخلوص كلاهما مشمولان للتقدير على سواء ، فلو تهدم الجدار وأصابني منه شيء كان ذلك بقضاء وقدر ، ولو

---

(١) راجع كتاب التوحيد للصدوق (ره) ص ٣٦٩ .

بعدت عن الخطر وسلمت كان ذلك أيضاً قضاء وقدراً ، و هذا هو معنى شمول واستيعاب التقدير .

إن القرآن الكريم يعبر عن قوانين الطبيعة السائدة في العالم والسنن الكونية الحتمية بأنها سنن إلهية إذ يقول :

﴿ ولن تجد لسنة الله تبديلاً ﴾[1] .

و كذلك يرى من سنة الله :

﴿ وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكّننّ لهم دينهم الذي ارتضى لهم ، وليبدّلنّهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً . ومن كفر بعد ذلك فأولئك هم الفاسقون ﴾[2] .

و كذلك يرى من سنة الله :

﴿ إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾[3] .

وفي الرؤية الإلهية لا تنحصر الواقعيات في العلل المادية ، ولا ينبغي قصر النظر على العلاقات الحسية والأبعاد المادية للحوادث فحسب ، فإن العوامل المعنوية تصل إلى حدود ليس الوصول إليها بإمكان العوامل المادية ، ولها دور مستقل مصيري في وقوع الحوادث .

لا يستوي العمل الصالح والآخر السيّىء ، و لعمل الإنسان ردود فعل في الحياة ، فالإحسان إلى بني نوع الإنسان وإرادة الخير لهم والخدمة والمحبة والمودّة لخلق الله ، كل ذلك من العوامل التي تؤدّي إلى تغيير المصير إلى السعادة والنعيم الدائم ، والظلم وإرادة السوء والعدوان واتّباع

---

(١) سورة الأحزاب : الآية ٦٢

(٢) سورة النور : الآية ٥٥ .

(٣) سورة الرعد : الآية ١١ .

الهوى وحب النفس غير المشروع يستتبع ثماراً مرة وآثاراً مضرة ونتائج خاسرة لا تجتنب ، وكأنما العالم بنفسه بصير سميع ! بل إن عواقب الأعمال أيضاً من القضاء والقدر .

يقول القرآن الكريم بصدد الدور المصيري للعوامل المعنوية :

﴿ ولو أن أهل القرى آمنوا واتّقوا لفتحنا عليهم بركات من السماء والأرض ولكن كذبوا فأخذناهم بما كانوا يكسبون ﴾[١] .

﴿ وما كنا مهلكي القرى إلا وأهلها ظالمون ﴾[٢] .

إن مسألة القضاء والقدر أصبحت مستمسكاً للجبريين قائلين : لايستقلّ الإنسان بصدور أي عمل منه ، إذ قد قدر الله أعمال الإنسان كلّيها وجزئيّها ، صالحها وفاسدها ، وعلى هذا فلا يبقى مورد اختياري للإنسان .

والفرق بين الجبر والمصير المحتوم هو : إن وقوع كل ظاهرة تصبح ضرورة بعد تحقق جميع أسبابها وعللها ومن سلسلة العلل والأسباب إرادة الإنسان ، وبما أن الأنسان لايحقق أعماله إلا بأهداف معينة بصفته موجوداً مختاراً ، إذن فهو لايسير خلف أعماله متابعاً لها كقطرة المطر التي تسقط في مجرى خاص خاضعة لقانون الجاذبيّة ، ولو كان هو أيضاً كذلك لم يكن يمكنه أن يتابع أهدافه التي يفكر فيها ، في حين أن مدرسة الجبر تنظر إلى الإنسان وكأنه موجود قد عطلت إرادته مع حريته ، وترى أن العلل خارجة عن ذات الإنسان ولاتتعلق إلا بالله .

إذن فالقضاء والقدر إنما يؤدي إلى الجبر فيما لو أصبح بديلاً عن إرادة البشر ، ولم يبق أي دور لإرادته في أعماله ، بينما ليس القضاء والقدر الإلهي سوى نفس الأسباب والمسببات .

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٩٦ .

(٢) سورة القصص : الآية ٥٩ .

لا شك أننا لا ندرك كل ما نتمناه، إلّا أن هذه الحقيقة لا تشكل أقل دليل على الجبر ، إذ لا منافاة بين إثبات الاختيار للبشر مع محدودية اختياره لأعماله ، وأدلة إثبات الاختيار لا تتضمن الدلالة على عدم محدودية اختياره .

إن الله قد أجرى عوامل عديدة على صعيد الوجود ، قد تبدو واضحة وأخرى لا تبدو كذلك ، وإن التفسير الدقيق الواقعي لمفهوم القضاء والقدر يبعث الشخص على السعي الأكثر في سبيل استزادة الإفادة من طاقاته في إطار معلوماته ، ولكي يتمكن من التعرّف على الواقع ومحاسبة الواقعيات ، وبالتالي يتمكن من الوصول إلى إمكانات أكثر ، إن محدودية قدرات الإنسان هي العلة في عدم توصله إلى عوامل أكثر في سبيل الوصول إلى انتصارات أكبر ، وبالتالي لا يصل إلى تحقيق آماله .

إذن فمصير كل موجود مرتبط بعلله السابقة على أساس أصل العلية العامة ، وسواء كنا مؤمنين بالمبدأ الإلهي أم لا فإن ذلك غير مؤثّر في مسألة الحرية والمصير ، أي سواء كان الإنسان يرى نظام الأسباب والمسببات في العالم مستنداً إلى إرادة الله ومشيئته ، أو كان يفترض استقلال هذا النظام عن الاستناد إلى الخالق ، إذن فلا يمكن أن نرى أن عقيدة الجبر ناتجة عن العقيدة بالقدر ، إن الغرض من المصير هو علاقة كل حادثة بعللها التي منها اختيار الإنسان وإرادته ، وليس المقصود من تقدير المصير إنكار الأسباب والعلل .

إن الله قد قدر وقضى أن تبدو كل ظاهرة من مجاري عللها الخاصة ، وأن مشيئة الخالق تسود العالم كقانون عام ، وأن كل تغيير إنما يتحقق على أساس السنن الكونية الإلهية ، وإلا فلا يتحقق ذلك ، وأن كل مدرسة علمية تؤمن بأصل العلية العامة لا بد لها من أن تؤمن كذلك بهذه الروابط والعلاقات ، سواء كانت مدرسة مادية أو إلهية .

إذن فلو كان ظهور أية حادثة ـ ومنها أفعال الإنسان ـ قطعياً من قبل علله

وأسبابه ، وكان هذا الحدوث القطعي مفيداً للجبر فما الفرق بين المدرسة الإلهية والمادية ؟ .

أجل ، إن التفاوت الثابت هو أن التصور الديني ـ بخلاف التصوّر المادّي ـ يرى أن هناك سلسلة من الأمور المعنوية هي جزء من العوامل المؤثّرة جداً في حدوث كثير من الحوادث ، إن هذا التصوّر يرى وجود أسرار ورموز معنوية في الوجود هي أدق وأعقد من العوامل المادية ، إن هذا التصوّر يهب الحياة روحاً وهدفاً ومعنى ، والإنسان نشاطاً وعمقاً في البصيرة وقوّة في الفكر واتّساعاً في الأفق ويمنعه من السقوط في هوّة الفراغ المهولة ، ويدفعه في سيره نحو الكمال دون توقف وركود .

وعلى هذا ، فإن المؤمن الإلهي الذي يؤمن بالقضاء والقدر ويدرك أن هناك أهدافاً حكيمة في خلقة الإنسان والعالم ، يكون أوثق وآمل من غيره بنتائج فعالياته وثمارها مع ما هو عليه من الاعتماد والتوكّل على الله في مسيرته في الحياة ، وهو يرى نفسه محاطاً بحماية الله وتأييداته .

أما الأسير في سدى ولحمة التصوّر المادي ، وله تصوره الخاص عن القضاء والقدر في إطار تفكيره الخاص ، فلا يتمتع بهذه المزايا الإيمانية الإلهية قطعاً ، فإنه لا يطمئن بتأييد في تحقيق آماله ، وبدهي ما بين هذين المذهبين من الفواصل العميقة بالنظر إلى الآثار الاجتماعية والتربوية والنفسية .

يقول (أناطول فرانس) : « إن من قدرة الأديان أن تعلّم الإنسان الأسباب والعواقب في الأعمال ، وحينما نطرد نحن أصول فلسفة العقائد الإلهية ـ كما نحن عليه الآن في عصر العلم والحرية ـ لا تبقى أية وسيلة أخرى نفهم منها : لماذا أتينا إلى هذه الحياة ؟ ولماذا أقدمنا إليها ؟ إن سرّ المصير قد أحاطنا بما له من هيمنة ، وعلينا أن لا نفكر في شيء قط كي لا نحس باللغز المبهم للحياة ، وإن جذور أحزاننا وآلامنا إنما هي في جهلنا المطلق بعلة وجودنا في هذه الحياة ، وإن آلامنا الجسمية والروحية كانت

تصبح ممّا يطاق فيما لو كنا ندرك فلسفتها ولو بالاعتقاد بمشيئة الله سبحانه .

إن المؤمن ليلتذ حتى من عذابه الروحي ، وحتى الأخطاء التي تصدر منه لا تسلبه أمله ، أما مع خمود شعلة الإيمان فلا معنى حتى للأمراض والأدواء إلا أن تحسب مزاحاً قبيحاً واستهزاءً من الطبيعة للإنسان » .

تفسير ناقص للقضاء والقدر

إن بعض صغار المثقفين بسبب تصورهم الخاطىء عن القضاء والقدر ، يزعمون أن العقيدة بالقدر عامل من عوامل الجمود والركود وعائق للإنسان عن أي سعي أو عمل في الحياة .

إن السبب في نشوء هذا التصوّر في الغرب هو عدم اطلاعهم على المعنى الصحيح لمسألة القضاء والقدر ولا سيما في تعاليم الإسلام ، وإن سراية ذلك التصوّر الغربي الخاطىء عن القدر إلى أفكار شعوب الشرق إنما هو بفعل تأخّر هذه الأمم وانحطاطها وانهزامها أمام الغرب وكل ما هو غربي ، إن كل شخص أو أي شعب لم يصل إلى آماله وأمانيه المادية والمعنوية يحاول أن يسلي خاطره بكلمات من قبيل : الحظ والمصير والصدفة والتوفيق والقضاء والقدر . .

إن الاعتقاد بالقضاء والقدر لا يتنافى مع سعي الإنسان للوصول إلى أهدافه في الحياة ، بل إن المطلعين على الوعي الديني الضروري في هذه المسألة يعلمون بأن الإسلام قد دعا الناس إلى بذل غاية الجهد في سبيل تنظيم الحياة المادية إلى جانب الروح والمعنى ، وهي دعوة تؤثر في تسريع مساعي الإنسان للحياة .

من هؤلاء المفكرين الغربيين الذين فسروا القضاء تفسيراً قاصراً هو

(جان بول سارتر) فقد تصور هذا المفكر الغربي : أنه لا يمكن الجمع بين العقيدة بالقدر الإلهي وقبول اختيار الإنسان وحريته في الانتخاب ، وأن لا بدّ من اختيار أحد الأمرين : إما العقيدة بالله وقضائه أو العقيدة بحرية الإنسان واختياره . . يقول :

« بما أني أعتقد بالحرية فلا أتمكن من أن أعتقد بالله ، إذ لو آمنت بالله وجب علي الخضوع لقضائه وقدره ، وإن قبلت ذلك كان علي أن أغض النظر عن الحرية . . وبما أني أحب الحرية فلا أؤمن بالله » ! .

في حين أنه لا منافاة بين قضاء الله وقدره العام من ناحية وحرية الإنسان من ناحية أخرى ، إن القرآن الكريم يعترف للإنسان بدوره الحر والفعال إلى جانب مشيئة الله العامة ، ويراه قادراً على تربية نفسه تربية واعية بمعرفة الحسن والقبيح واختيار أحدهما ، ويقول : ﴿ إنا هديناه السبيل إما شاكراً وإما كفوراً ﴾[1] ﴿ومن أراد الآخرة وسعى لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً ﴾[2] ويلوم من يقول يوم القيامة : ﴿ لو شاء الله ما عبدنا من دونه من شيء نحن ولاآباؤنا ولا حرّمنا من دونه من شيء ﴾[3] .

ولا نرى في أي آية من الآيات القرآنية نسبة الفساد والضلال ولا منعهم عن إصلاح شؤونهم إلى قضاء الله ، فلا تجد آية أدخلت إرادة الله على إرادة الإنسان ، أو أن تنسب ابتلاء شخص أو شعب إلى اقتضاء القضاء بالباطل ، أجل ، إن القرآن يذكر بغضب الله وأنه يصيب الطغاة من البشر الفاسدين ، وأن لهم بعد ذلك العذاب الأليم .

بما أن الله رؤوف بعباده رحيم بهم منعم عليهم بما لا يحصى فهو قابل التوبة منهم إن عاد منهم عائد إلى طريق الطهارة والصلاح ، يفتح له طريق العودة ويقبل منه التوبة ، وهذه رحمة عظيمة .

(١) سورة الدهر : الآية ٣ .

(٢) سورة الإسراء : الآية ١٩ .

(٣) سورة النحل : الآية ٣٥ .

إن نطاق نفوذ إرادة الإنسان وإن كان أوسع وأشمل من إرادة كل الأحياء من الحيوانات المعروفة ، إلّا أن أثر إرادته ودوره إنما هو فيما حدّده له الله من حدود ، فلا يمكنه أن يحقق ما أراد على طول الحياة .

كثيراً ما يتفق أن يصمم الإنسان على عمل لكنه لا يصل إليه مهما حاول ، وليس سبب ذلك أن إرادة الله قابلت إرادة الإنسان ومنعته عما أراد من عمل ، بل إن هناك عوامل مجهولة خارجة عن علم وقدرة الإنسان تقف حائلة دون وصول الإنسان إلى أهدافه .

إننا حينما ندرك أنه لا يمكن وجود علة بلا معلول ، ومعلول بلا علة ، وأن وسائل إدراكنا محدودة قاصرة ، نعلم أننا لا ندرك كل ما نتمناه قطعاً .

إن الله قد أجرى في نظام هذا الوجود مليارات العوامل ، بعضها مفهومة للإنسان وكثير منها غير معلومة بل لا تدخل تحت أي حساب . . . وعلى هذا المعنى فإن القدر لا ينتهي إلى سلب اختيار الإنسان ولا يمنعه عن السعي والمحاولة للاستزادة من المعلومات والاستفادة والإفادة منها ، ولكي يتعرّف على العوامل التي تمهد طريقه إلى مزيد من التوفيقات في الحياة ، وإن هكذا عقيدة بالقدر لتؤثّر في التقدم بأهداف الإنسان وحاجاته ، لا بالعكس .

ويضمن هذا البحث والذي سبقه حلت مسألة السعادة والشقاء في الإنسان أيضاً ، إذ أنهما إنما هما صفتان للأفعال والحركات الإرادية للإنسان ، وليستا من الأمور غير الاختيارية والعوامل فوق الطبيعية التي تؤثّر في وجود الإنسان أو دوره في الحياة .

إن عوامل المحيط والوراثة وكل ظواهر الطبيعة لا تؤثّر في سعادة أو شقاء الأشخاص (أثراً إلزامياً) فليست هي التي تقرر مصيره بل الذي يصنع مستقبله ويؤدّي به إلى الرقي أو الهبوط هو اختيار الإنسان نفسه ، ويتبع كيفية إفادته من عقله وعلمه وملكاته التي يتمتع بها .

إن السعادة والفلاح لا علاقة لها بكيفية أو كمية تمتع الإنسان بمواهب

الطبيعة ، أجل ، لا شك أن الذي يتمتع بكمية أكثر أو كيفية أقوى من مواهب الطبيعة يتحمل مسؤولية أكبر ، وإن الانحراف الصغير منه لا يعادل انحراف آخر أضعف منه وأعجز ، بل يحاسب بنسبة الإمكانات والاستعدادات التي يتمتع هو بها .

من الممكن للذي لا يتمتع إلّا بقليل من القدرات والطاقات المذخورة في طبيعته أن يلائم بين وضعه ومسؤولياته المكلف هو بها ، فيصل بذلك إلى سعادة تليق بمقامه الإنساني .

إذ أن ما يصل بالإنسان إلى سعادته وفلاحه هو أن يسعى للإفادة الصحيحة مما فيه من ذخيرة مودعة ، والعكس ممكن أيضاً ، بأن لا يفيد منها الغني الثري بها بل يسيء استعمالها فيسحق بذلك كرامته وشرفه وإنسانيته فيضل ويشقى ولا يفلح أبداً ﴿ كل نفس بما كسبت رهينة ﴾[1] .

وهكذا يرى القرآن أن سعادة أو شقاء كل شخص تتعلق بأموره الاختيارية لا تركيبه الطبيعي والنفسي ، وهذا من آيات عدل الله سبحانه .

و« البداء » من خصائص عقائد الشيعة ، بمعنى أن المصير قد يتبدل بتبدل عوامله وأسبابه ، و أن ما كان يبدو بحسب الظاهر خالداً قطعياً يتغير بتغير أعمال الإنسان وأفعاله وسيرته .

فكما أن العوامل المادية تؤثر في مصير الإنسان أحياناً ، كذلك قد تؤثر فيه عوامل معنوية أيضاً ، فمن الممكن أن تبدي لنا هذه العوامل المعنوية ما كان خلف الستار خلاف المجاري الظاهرية للأمور ، والحقيقة أنه يبدو لنا أمر جديد من طريق تغير الأسباب والشروط ، فينتهي دور حكمة الأمر الأول بحدوث مصالح الأمر الثاني كما في النسخ ، وكما ليس نسخ القوانين السابقة باللاحقة دليلاً على جهل أو ندم المشرع بل إنما هو كاشف عن انتهاء حكم التشريعات السابقة ، كذلك البداء في التكوين .

---

(١) سورة المدثر : الآية ٣٨ .

ويخطىء من يقول في معنى البداء : إن الأمر كـان مخفياً على الله ثم ظهر فغيّره الله ! إذ إن عقيدة كهذه تتنـافى مع علم الله الشـامل ، ولا يمكن لمسلم أن يقبل بذلك .

إن الدعاء من العوامل المعنوية التي لا ينبغي التقليل من أهميتها ، إن الله عالم بأسرار الأمور وبـواطنها ، إلاّ أن دعـاء العبد ربّـه في عالم الـروح والمعنى وعلاقة العبد بربه ، كنظام العمل في علاقة الإنسان بالطبيعة .

في كل لحظة تبدو في الطبيعة ظواهر جديدة كانت لها عوامل سابقة ، وفـي قسم كبير من عالم الوجود يؤثر الدعاء أثره العميق . فكما جعل الله لكل عنصر من عناصر الطبيعة دوراً في نظام العلية ، كذلك جعل للدعاء دوراً في الطبيعة .

فعلى الإنســان حينما يقـع في محاصـرة المشكـلات أن لا يتجـه إلى اليأس والقنـوط ، إذ إن أبواب الرحمة الإلهية لا تغلق على وجه أحد أبـداً ، ولـربما جـاء الغد بـوضع جـديـد من حيث لا يحتسب ﴿ كـلَّ يـوم هـو في شأن ﴾[1] .

و لنفس السبب لا ينبغي للإنســان أن يترك الـسعي والعمـل فـي أي موقعية جنباً إلى جنب مع الدعاء والابتـهال ، فإن الدعاء بـلا عمل كمـا قال الإمام علي (عليه السلام) :

« الداعي بلا عمل كالرامي بلا وتر » ، بل عليه أن يضع أمنياته مع ربه ضمن محاولاته ومساعيه بكل إخلاص ورجـاء ، يطلب من القـادر المطلق إمداده و إعانته ، و لا شك في عون الله لعبده المؤمن كما قال في قرآنه :

﴿ وإذا سألك عبـادي عني فإني قـريب أجيب دعوة الـداع إذا دعــان فليستجيبوا لي وليؤمنـوا بي لعلهم يرشدون ﴾[2] .

---

(١) سورة الرحمان : الآية ٢٩ .

(٢) سورة البقرة : الآية ١٨٦ .

أجل ، إن الروح لا يصل إلى أوج كماله ولا يستغرق في بحار السعادة إلا حينما يجد نفسه منقطعاً عن العلل والأسباب متصلاً بربه وحده ـ من دون الوقوع في حضيض اليأس والقنوط ـ وهنا يرى نفسه مع ربه ويلمس منه عنايته الخاصة ، كما يقول الإمام السجاد زين العابدين في دعائه الذي علمه أبا حمزة الثمالي :

« اللهم إني أجد سبل المطالب إليك مشرعة ، ومناهل الرجاء إليك مترعة ، والاستعانة بفضلك لمن أملك مباحة ، وأبواب الدعاء إليك للصارخين مفتوحة ، وأعلم أنك للراجين بموضع إجابة ، وللملهوفين بمرصد إغاثة » .

وورد في الروايات في أثر الذنوب : « من يموت بالذنوب أكثر ممن يموت بالآجال » ، « ومن يعيش بالإحسان أكثر ممن يعيش بالأعمار » « موت الإنسان بالذنوب أكثر من موته بالأجل ، وحياته بالبر أكثر من حياته بالعمر » [1]

أجل ، إن أثر الدعاء وبركته هي التي وهبت لزكريا يحيى ، والابتهال والتوبة إلى الله هي التي أنقذت يونس بن متّى وقومه من الهلكة والعذاب .

إن القوانين التي أجراها الله في نظام الموجودات في هذا العالم ، لا تحدد قدرته سبحانه ، ولا تشلّ شمولها وعموميتها ، فكما كانت له الخيرة في إيجادها كذلك له الخيار في استمرارها أو تغييرها ومحوها أو إثباتها ﴿ يمحو الله ما يشاء ويثبت ﴾ وليس مغلول اليدين أمام ما وضع هو من قوانين ومظاهر مخلوقة .

ولكن ليس معنى قدرة الله على تبديل بعض ظواهر الطبيعة في كل لحظة ، أنه سبحانه يخرق مقرراته التي أثبتها هو في نظام العالم ، وأنه يقلب القوانين والسنن والأصول ، بل إن نفس ذلك التغيير والتبديل أيضاً يتبع

---

(١) سفينة البحار : ج ١ ص ٤٨٨ .

أصولاً وموازين أخرى لا ندركها أحياناً ، وإن حساب الاحتمالات وبعد النظر فيها تمنع الإنسان عن التنبؤ القطعي بالحوادث وفق مجاري الطبيعة وأصولها في أي زمان .

ما نعلمه إنما هو صورة من مظاهر الطبيعة في بعض أبعادها وليس كلها ، وهي قاصرة عن درك الأجزاء والعلاقات وكيفياتها ومقاديرها ، ولا تدخل كل إمكاناتها وضروراتها في حدود ما نعي وندرك ، وإن دعوى معرفتها وإظهار النظريات الحتمية بشأن المسائل الطبيعية المعقدة وأبعادها المختلفة ونظام الوجود العظيم ، إنما هي مجرد دعوى بلا دليل .

مهما كانت نظرياتنا بشأن الحياة ، فليس في علم الله أيضاً كذلك كي يؤدّي التغيير فيه إلى الاختلاف في علم الله أيضاً ، بل إن كل الأجزاء والشؤون لهذا الجهاز الوجودي العظيم من الأزل إلى الأبد ومجموعة الحوادث المتحققة والتي ستتحقق ، لا تشكل أي تبدل أو تغيير في علم الله الأزلي ، أقل تغيير أو تبدل .

لقد تم ـ و الحمدلله ـ الجزء الأول من هذا الكتاب : (أصول العقائد في الإسلام) الذي قد حوى بين جناحيه البحث عن موضوعي : (توحيد الله و عدله) .

محتويات الكتاب

الموضوع	الصفحة
مقدمة المؤلف	٥
الأصل الأول : معرفة الخالق	٩
دوافع التدين بالأديان	١١
الاتجاه الإلهي في أعماق الوجود الإنساني	٢١
الله ومنطق العلوم التجريبية	٣٥
إن الاعتقاد بالموجود غير المرئي لا يختصّ بالله	٤٥
أصـل العليـة	٥٣
الأصالة في الحياة	٥٩
مظاهر قدرة الله في الطبيعة	٦٣
المادة وقوانين الوجود	٦٧
توازن وانسجام في الطرفين	٧١
ظاهرة طبية تستحق التقدير	٧٥
الطبيعة وفنونها الجميلة	٧٧
تصور الموجود المطلق	٨١
أما مبدأ الوجود فهو غنيّ عن علة لوجوده	٨٥
الموجود الفقير يحتاج إلى علة	٨٩

الموضوع	الصفحة

تتبع سلسلة العلل ٩١
العلم يردّ على أزلية العالم ٩٥
محدودية الإنسان وعجزه ٩٩
الخداع العلمي ١٠٣
دوافع الإنكار واللادينية ١٠٩
صفات الخالق القرآن يصف الله وخصائصه ١٢١
أوصاف المعبود الكامل المطلق ١٢٩
الدعاء أعلى سمات الشاكرين ١٣٣
لا سبيل للقياس بصفاته ١٣٧
وحدانيـة الله ١٤٣
القدرة الإلهية المطلقة ١٥١
علم الله الشامل ١٥٩

الأصل الثاني : عدل الله الشامل ١٦٧
نظرات حول العدل ١٦٩
تحليل حول الشرور في العالم ١٧٧
الألام منبهات لليقظة والحركة ١٨٥
صور من التفاوت ١٩٣
تحقيق حول الجبر والاختيار ٢٠٣
نظرة بدائية إلى أصل الموضوع ٢٠٣
القائلون بالجبر ٢٠٧
القائلون بالاختيار ٢٢١
الأمر بين الأمرين ٢٢٧
القضاء والقدر ٢٣٧
كيف تتحقق إرادة الله ٢٣٧
تفسير ناقص للقضاء والقدر ٢٤٧
محتويات الكتاب ٢٥٥